
بإشراف إدارة الثقافة العامة
كتاب
وزارة التربية والتعليم الإقليم الجنوبي
قصص أعجبتني
تأليف : عباس خضر

الألف كتاب (٣٥١)

# قصص أجنبية

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبي

١٩٦١

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب رقم (٣٥١)

# قصص أعجبتني

عباس خضير

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١٩٦١

# مقدمة

هذه قصص كنت قد قرأتها وتركت أثراً فى نفسى ، وأخيراً رأيت أن أتناولها بالعرض والنقد ، فأعدت قراءتها وانفعلت بها على نحو ما انفعل مؤلفوها بموضوعاتها وأشخاصها ، ثم صورت انفعالى بها كما صوروا انفعالاتهم .

وقد بدأت كتابة هذه الفصول فى وقت كان فيه الأدب القصصى المصرى موضع إنكار وجحود ، ولعله لايزال كذلك عند بعض الناس ، ولاحظت أن هؤلاء المنكرين لم يقرءوا ماينكرونه ، وإنما هم يرسلون أحكامهم من بعيد ، فأردت أن أعطى أمثلة من هذا الأدب وأدل عليه التائه عنه .

وراعيت فى ترتيب القصص المداولة بين الشباب والشيوخ : واحدة لواحد من الأولين وأخرى لآخر من الآخرين ، وجعلت الشباب «أولين» لاغضاً من شأن أساتذتنا الكبار ، فلهم علينا فضل الأستاذية وفتح الأبواب وارتياد الآفاق ، وإنما رأيت أن أولئك الشباب — ولايفوتنى أن أذكر أنهم على الحدود الأخيرة للشباب — قد توافروا على فن القصة ، وكان لهم فيه كيان متميز يجعلهم أهلا لاعتبار يختلف عن شيوخنا فى هذا الفن من الأدب .

ولا شك أن هناك ، غير هذه القصص فى أدبنا الحديث ، ما لو قرأته لعنيت به كما عنيت بها ، ولكن هذا هو القدر الذى أعجبنى فيما قرأت ، وهذا هو صداه فى نفسى ، وقد أعجبنى لبعض المؤلفين الذين تناولت قصصهم هنا أكثر من قصة ولكنى اكتفيت بواحدة لكل منهم ، فاخترت ليوسف السباعى مثلا قصة — له قصص أحسن منها — لاعتبارات أوضحتها فى الكتابة عنها .

وأساس اختيارى لهذه القصص هو ذوقى الخاص ورأيى — المطبوع بهذا الذوق — فى قيمة الأدب التى تتحقق بالمزج بين الإمتاع والاستهداف طبقاً للواقعية التى تقتضى تصوير الواقع تصويراً تتوافر فيه المتعة الفنية مع استهداف « شىء » غير مجرد التصوير ، بحيث نحس فى الأدب لا مجرد الحياة كما هى ، بل كما ينبغى أن تكون .

ذلك « الشىء » يتحقق من اختيار الأديب للواقع الذى يصوره وكيفية تناوله لموضوعه وأشخاصه ، فهو يخلق الجو الذى يجعلنا ندرك الصلة بين المشاهد المصورة وبين تقدم الحياة القائم أو المنشود ، ويرسم الشخصيات بحيث تثير الاهتمام الفكرى بمصائرها ، ويربطها بما يجرى فى الحياة الواقعة ، مستهدفاً فى ذلك تثبيت ما فى المجتمع من قيم أصيلة صالحة وتعميق ما أخذت فيه أو ما تصبو إليه الجماعة أو الإنسانية من قيم منشودة ، وتغيير ما فى الواقع من أوضاع سيئة ومفهومات مضللة ؟

عباس خضر

# بداية ونهاية

## نجيب محفوظ

العرض :

توفى كامل أفندى على الموظف بوزارة المعارف ولم يخلف لأسرته غير معاش لا يتجاوز خمسة جنيهات فى الشهر . وتتكون الأسرة من زوجة وثلاثة أبناء وبنت ، يسكنون فى شقة أجرتها الشهرية مائة وخمسون قرشاً بمنزل فى عطفة نصر الله بشارع شبرا .

تشعر الأسرة بفداحة الخطب ، لا لوفاة الرجل فقط وإن كان عزيزاً عليهم ، ولكن شاركهم هذا الحزن العميق أمر آخر ، هو ما يتهددهم من البؤس ، وتعبر الزوجة عن هذا بقولها : « يحز فى نفسى ألا أجد فراغاً للحزن عليك ياسيدى وفقيدى ولكن ما الحيلة ؟ حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من الفقراء » .

ولم يكن فى الأسرة من يكسب شيئاً . . فأكبر الأولاد « حسن » شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ولكنه خائب ، أفسده تدليل أبيه له فى صغره ، ولفظته المدرسة ولم ينجح إلا فى الشارع والقهوات وما فيها من معارك وقمار وما إلى ذلك ، وحسين وحسنين طالبان بمدرسة التوفيقية الثانوية ، الأول فى السنة الرابعة . . والثانى فى السنة الثالثة . .

وكانت أختهم « نفيسة » فتاة تكبر حسين وحسنين وتهوى الخياطة ، ولكنها لم تعمل بالأجر .

شرعت الأم تنظر فى الأمر . . فكرت وأطالت التفكير فبدت لها الحياة كالحة الوجه، ولكنها قالت : إن الله لا ينسى عباده : خاطبت الأبناء كلا بما يعنيه ، وتسلحت بالحزم والقوة برغم ماتشعر به فى باطنها من الرحمة والعطف عليهم ، أما التلميذان فليس فى الإمكان إعطاؤهما أى مصروف يومى ، واعترض أحدهما قائلا فى جزع : « ولا مليم »؟ فأجابته فى حزم : « ولا مليم ..» وعليهما أن يأكلا وجبة الغداء فى المدرسة كلها ، فلن يتاح لهما الطعام الكافى بالمنزل . . وأما حسن فقد كان ميئوساً منه ولكنها قالت له : لابد من عمل شىء ، ووعدها بأن يعمل ، ولكنه أردف بأنه لا يطالبها بغير المأوى واللقمة ! . . ونفيسة تحسن الخياطة ، وهى تخيط كثيراً للجارات محبة ومجاملة ، ولا بأس فى أن تتقاضى على تعبها مكافأة . . وتبدد اعتراض حسنين على أن تشتغل أخته خياطة أمام نظرة أمه الشديدة وزجرها له .

وذات مساء زارهم جارهم الطيب الكريم فريد أفندى الذى كان يسكن هو وأسرته فى الشقة العليا بالمنزل ، وكان يجاملهم ويسدى إليهم بعض المعونة فى أسلوب لبق وطريقة كريمة . . وطلب فريد أفندى أن يعطى حسين وحسنين لولده سالم دروساً فى المنزل ، وفرح الشابان لذلك ، فلابد أن ينقدهما فريد أفندى أجراً يتيح لهما مصروفاً يومياً .

ويرى حسنين « بهية » ابنة فريد أفندى ، وهى فتاة بضة ممتلئة الجسم ذات وجه جميل ، فيجن بها ويحبها حباً ، ويعمل على الانفراد بها ،

ويحاول أن ينال منها ولو قبلة ، ولكن الفتاة تدفعه عنها فى حزم ، ثم تلوح له مرة بأنه يجب أن يخطبها ، فيخطبها من أبيها مفضياً إليه أنه لا يستطيع مفاتحة أمه فى هذا الموضوع . فيعده الرجل بمخاطبة الأم وتذليل أية عقبة . . ويخاطبها فعلا ، على أن يتم الاتفاق على الخطوبة ، ثم يكون الانتظار حتى يتم حسنين تعليمه ، ولا تجد الأم بدأ من الموافقة .

ويستأنف حسنين محاولته وجرأته مع بهية ، ولكنها ترده بلباقة ، أحياناً برقة ، وأحياناً تضطر إلى الجد والصرامة . . ومرة طلب منها قبلة فلما أبت قال لها : من غير هذه القبلة سأموت كمداً » فقالت : إذن فليرحمك الله ! » وكان يحدثها عن حبه كثيراً ، وهى ترد عليه قليلا وبعبارات متحفظة مقتضبة ، ولكنها كانت تنطلق فى الكلام إذا تحدثت عن أمانى المستقبل . . وكان يتضايق هو من هذا ، ويتساءل : لماذا لا ينشرح صدرها أيضاً بالحب نفسه ؟ لماذا تخافه وتجفل من ذكره وإشاراته ؟ ثم يتساءل : أتحبه حقاً ؟ ولا يسعه أن يشك فى هذا ، ولكنه حب لا يفهمه ، أو هو لا يستطيع فهمها هى . . عيناها زرقاوان صافيتان ليس فيهما ذرة من شيطنة أو خفة ، باردتان لا حرارة فيهما ، ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين . . ويحاول أن يقنعها بأن القبلة ليست جريمة فترد عليه بأن أمها قالت لها مرة : « إن الفتاة التى تتشبه بالعشاق كما يظهرون فى السينما فتاة فاسدة خائبة الأمل فيقول فى نفسه وهو يفكر :

أهى التى قالت لك هذا ؟ القصيرة الماكرة . . أفسدتها علىّ وأفسدت

حياتنا .. إن الغيظ يقتلني .. ماذا أفدت من الخطبة التي تجرعت بسببها تقريعاً ولوماً مراً ؟! لا شيء .. فتاتي عنيدة مجنونة ..

وتمضي الأسرة في شظفها ، وتمضي الأم في كفاحها وتدبر أمور أولادها ، ويجد حسين وحسنين في دراستهما ، حتى يحصل حسين على شهادة « البكالوريا » وينجح حسنين في امتحان النقل إلى السنة الرابعة ، وتواجه الأسرة مسألة مستقبل حسين ، هل يواصل التعليم أو يكتفي بالبكالوريا ويتوظف ، ثم يتغلب الأمر الثاني نظراً لحاجة الأسرة .. ويلجئون إلى أحمد بك يسرى الموظف الكبير بالداخلية الذي كان صديقاً لوالدهم المرحوم كامل أفندي على ، وكان لهذه الصداقة عند الموظف الكبير معنى يختلف عن المعنى الذي تفهمه أسرة الموظف الصغير أو الذي تحب أن تفهمه . فقد كان كامل أفندي على يهوى العزف على العود وكان صاحب صوت لا بأس به ، فكان يتردد على فيللا أحمد بك يسرى ويقضي معه الأماسي في سمر وطرب ، وكان يسرى بك رجلا غنياً ذا أريحية وكرم ، يحب كامل أفندي وينفحه بالهدايا ولكنه لا يعرف منزله لأنه لا يبادله الزيارة بطبيعة الفارق بينهما ..

ذهب الشقيقان حسين وحسنين إلى أحمد بك يسرى ليرجواه أن يتوسط في توظيف حسين ، وكانت الأم قد لجأت إليه عقب وفاة زوجها فكفاها شر « الروتين » الحكومي الذي كان يقف في سبيل إنجاز « المعاش » ووظف حسين بوساطة يسرى بك كاتباً في مدرسة طنطا على أن يسعى لنقله إلى القاهرة بعد سنة .

وجرت في أثناء ذلك أمور ، بعضها ظاهر وبعضها خفي ، وقد

عرفنا جانبا من هذه الأمور فى حب حسنين لبهية ، ذلك الحب الذى كان يقول : إنه يتعزى به فى ظلام الفقر ، وقد أسدل هذا الظلام — ظلام الفقر — سدوله على حب آخر لنفيسة .. كانت هذه الفتاة أقرب إلى الدمامة منها إلى الجمال ، ويوم باعوا المرآة الكبيرة التى كانت بحجرة الاستقبال ، فيما اضطروا لبيعه من الأثاث ، قالت لنفسها : « إن المرآة آخر ما أحزن عليه ، فلن تعكس لى وجها أسر به » وكان تخيط للعرائس ثيابهن فيداخلها شعور بالأمل سرعان ما يتبدد أمام تساؤلها : وهب الزوج جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن أين نفقات الزواج ؟ لذلك كانت تشعر باليأس من هذه الناحية ولكن كان يشغلها إحساس شديد بالتطلع إلى الحب ، فإن غريزتها الأنوثية كانت الشيء الوحيــد بها الذى سلم من النقص والضعف . . فعندما تخايل لعينيها سلمان جابر ابن البقال المجاور لمنزلهم ورأت اهتمامه بها لم يسعها إلا أن تستجيب لما يبديه نحوها من ميل ، كان يتودد إليها عند ما تذهب إلى الدكان لتشترى شيئا ، ثم كان يغازلها بمثل قوله لها حين تطلب حلاوة طحينية : إنك أنت الحلاوة !

وانساقت فى تيار الهوى الجارف مع الشاب الذى استدرجها إلى منزله فى غيبة أهله ، ولما فزعت من إطفاء النور قال لها : أنت زوجة المستقبل .

ثم زوج عم جابر ولده سلمان من ابنة بقال غنى بشارع شبرا ، وفجعت نفيسة فى أملها الوحيد ، ولم يجدها العراك مع جابر ولا ضربها إياه فى الزقاق المظلم الخالى من المارة ..

ثم مرت نفيسة أمام جراج شبرا ، فأخذها صاحبه فى سيارته ، وقالت لنفسها : وهل سأخسر شيئا جديداً ؟ وراحت تفلسف هذا المسلك وتبرره أمام نفسها بأنها مضطرة إلى مساعدة أسرتها الفقيرة بهذه القروش ، إلى جانب قروش الخياطة ، وكانت تتجاهل فى منطقها الظاهر رغبتها التى كانت تدفعها دفعا لم تستطع وقفه .

أما حسن ، فقد جعلت تتقاذفه الشوارع حتى انتهى إلى «درب طياب» حيث عمل «سنيداً» لأستاذه فى الغناء على صبرى ، فى قهوة فتحها «الأستاذ» بالاشتراك مع إحدى النسوة هناك . ولم يكن صوته هو المؤهل الوحيد لهذا العمل ، بل كان الأهم عضلاته وقوة بأسه فى العراك والضرب بالرأس ، وقد صرع برأسه زنجيا عرف فى الحى بشدة البطش عندما أراد الاعتداء على القهوة ، فأطلقوا عليه اسم «حسن الروسى» وعشقته سناء وعاش معها فى مسكنها بحى كاوت بك ، واتجر فى المخدرات فكان له من ذلك مورد لا بأس به ، ولم ينس أسرته بين حين وآخر ، فكان يحمل إلى أمه وإخوته بعض الهدايا من مآكل وملابس . . وكان ذلك فى أوقات متباعدة لمشاغله الكثيرة فى حياته الجديدة وما يحدث له من متاعب وإصابات فى بعض الأحيان . ولما وظف حسين بطنطا ولم يجد نقودا يدبر بها أمر سفره ومعيشته حتى يتسلم مرتبه فى آخر الشهر ، لجأ إلى حسن فأعانه . وكأنه اطمأن على الأسرة بعد أن وظف حسين فانقطع عنها .

وحصل حسنين على البكالوريا ، والتحق بالكلية الحربية بوساطة أحمد يسرى بك . وعندما اعترضته مشكلة دفع القسط الأول من المصروفات ذهب إلى حسن فى منزل تلك المرأة ، فدفع إليه المبلغ ، ولم يقض

بالكلية غير سنة واحدة تخرج بعدها ضابطا ، إذ قررت وزارة الحربية تخريج فرقته بعد عام واحدة لمواجهة الحاجة إلى زيادة عدد الجيش ، على أن يتم الخريجون تدريبهم فى الفرق التى يلحقون بها .

ولما أصبح حسنين ضابطا فرح وفرحت به الأسرة وبهية وأسرتها ، وظن الجميع أن المتاعب قد انتهت . . ولكن هذا كان بدء متاعب من نوع جديد ، فقد أخذ الفتى يشعر بمركزه كضابط لا يليق به أن تكون أخته خياطة ، ولم يحل المشكلة تركها لهذه الحرفة ، فالماضى . . يقول : إن أخت حضرة الضابط كانت خياطة ، والماضى يقول مع الحاضر : إن أخاه فتوة فى درب طياب وتاجر مخدرات . وعطفة نصر الله وشقتهم فيها وحالة أثاثهم لم تعد ملائمة لمظهره الجديد . بل إن بهية الممتلئة الجسم ذات الطابع البلدى ، والتى هى « دقة قديمة » كما وصفها زميل له رآها معه فى السينما ، لم تعد هى أيضـــا ملائمة للحياة العصرية التى يطمح إليها .

ونفد صبر حسنين — وإن لم يكن له صبر — عندما هاجم البوليس شقتهم للبحث عن أخيه حسن الهارب من وجه العدالة . فلم يستطع أن يمكث فى عطفة نصر الله التى ملأت جوها ريح الفضيحة الجديدة. وانتقلوا إلى شقة لائقة بمصر الجديدة ، وتنفس حسنين الصعداء حينما رأى أنه تخلص من الماضى فى شخص تلك العطفة . ولكن بهية وأمها تزورانهم فى مصر الجديدة . فيضيق بهذه الزيارة ويحدث بهية منفردين بما تفهم منه أنه فسخ الخطبة ، ويغضب أخوه حسين من هذا التصرف الغادر فيذهب إلى

فريد أفندى ويعتذر له ويخطب منه بهية لنفسه فيعده بالتفكير فى الأمر، ثم يقبلون .

ويؤدى الطموح بحسنين إلى أن يذهب إلى أحمد بك يسرى ويطلب يد ابنته التى رآها من قبل وأعجب بها فيستمهله ، ثم يرفض هذا الطلب ، ويكاد يصعق حسنين حين يعلم من صديق له متصل بأسرة يسرى أن سبب الرفض : أخته الخياطة ومسلك أخيه حسن .

وتكون النهاية عندما يستدعى حسنين إلى قسم البوليس ليتسلم أخته نفيسة التى ضبطت مع شاب فى منزل بحى السكاكينى ويتسلمها ، وعندما يريد أن يبطش بها فى ظلام الطريق تقول له : إنها تريد أن تجنبه مسئولية القتل فتقتل هى نفسها . ويقصدان فى سيارة أجرة إلى النيل فتلقى بنفسها فيه ، ثم يقف هو متردداً حائراً وهو ينظر إلى الماء .

☆ ☆ ☆

النقد :

أهم ما يسترعى الانتباه فى قصص نجيب محفوظ ، وخاصة فى هذه القصة ، هو الدقة فى رسم الأشخاص وتمثيلهم للقارىء كأنه يعاشرهم ويخالطهم ، ثم يصبحون كأنهم معارف حتى لا يستبعد أن يلتقى بأحدهم فى يوم من الأيام ويناديه باسمه .

حسنين شاب جرىء قلق متمرد يحاول الثورة على الأقدار ، فيقول لأخيه فى محاورة بينهما : إن من يستسلم للأقدار يشجعها على التمادى فى طغيانها . . وهو جرىء فى حبه يندفع فى هجومه على بهية إلى أقصى حد ، يضغط على يدها فى أول مقابلة ، ويصعد إليها فى السطح ، ويحاصرها

فى عشة الدجاج ، وعندما يرى أنه لا فائدة من الملاينة يهجم عليها بقوة ووحشية ويطبع شفتيه على شفتيها . والصفة التى تغلب عليه وتتملكه وتسير أحداث القصة كلها ، هى حب المظهر والنزوع إلى مكانة رفيعة بين الناس ، فنراه فى البداية مشغولا عن الحزن بمظهر الجنازة حريصاً على أن تكون جنازة رائعة يحتشد فيها المشيعون من علية القوم ، وكم كان سروره عظيما وهو فى غمرة الحزن حينما لمح أحمد بك يسرى ينزل من سيارته الفخمة للمشاركة فى الجنازة .. ثم يستغرقه الحزن لأن والده دفن فى مقبرة بالعراء كأنها من مقابر الصدقة . وهو يعترض ويحتج على احتراف أخته الخياطة ، ويظل قلقا لهذا حتى يصير ضابطا فيكون أول همه أن أخته لن تكون بعد اليوم خياطة ، وهو يكذب على التلاميذ فى المدرسة فيقول : من حسن الحظ أن تركتنا عقار ، فليست أراضى زراعية تيسر سبل الخداع للوصى . . وبعد أن يتخرج يشغل نهاره ويؤرق ليله مسلك حسن فيذهب إليه ليحاول إقناعه بأن يترك الحياة التى يحياها إلى حياة شريفة ولكن حسن يفهمه أن حياة الشرف التى يقصدها إنما هى مصلحته — أى مصلحة حسنين — ومظهره بين الناس ، وأنه لو كان يريد الشرف حقيقة لخلع حلة الضابط التى لم يلبسها إلا بفضل النقود التى أتت من الحياة غير الشريفة ، وهى القسط الأول الذى دفعه له من مصروفات الكلية ، والواقع أن حسنين لم يكن همه إلا أن يظهر فى المجتمع بالمظهر الذى يراه لائقا ، ويندفع فى سبيل هذا الظهور إلى حد يعميه عن حقائق الأشياء ، فهو لا يأتى أو يدع من الأمر إلا ما يرفعه فى أعين الناس كما يرى ، دون أن يعير المعانى الإنسانية أى اهتمام ، ولهذا لم يتورع عن الغدر بالفتاة التى

خطبها نحو ثلاث سنوات ، وبأهلها الذين كانوا له ولأسرته أهلا في شدتهم .

وحسين على عكس شقيقه ، شاب قانع يروض نفسه على الواقع ، ويضحى براحته وضروراته فى سبيل أسرته ، فقد رضى بالوظيفة الصغيرة التى أقعدته عن مواصلة التعليم ليمكن أخاه من هذا الغرض . وقد استطاع بقوة إرادته وبدافع التضحية أن يتخلص من حب وقع فيه بطنطا ، إذ أراد رئيسه باشكاتب المدرسة أن يزوجه ابنته فأسكنه فى غرفتين بسطح منزلهم وأحاطه برعايته وكرمه ، وأعجب الفتى بالفتاة ، وأحس بميل شديد إليها ، كان باعثه الأول الشوق إلى أن يحيا حياة زوجية هانئة ، فعندما رأى نفسه قد تورط فى هذه العلاقة ورأى والد الفتاة يبتغى الإسراع ويشير عليه أن يمتع نفسه ، وعلى أخيه أن يتوظف بالبكالوريا مثله .. عندما رأى ذلك ورأى فيه ما سيصرفه عن إعانة الأسرة ، سارع بالرفض وبمغادرة المنزل إلى الفندق .

وهال حسين أن يغدر أخوه ببهية البنت الطيبة الوديعة العفيفة ، وبأهلها الناس الطيبين الذين غمروهم بأفضالهم فى الشدائد ، ولعل هذا الصنيع من حسنين قد سر حسين فى باطنه ، إذ أخلى له الطريق إلى بهية وكان قد تغاضى عن إعجابه بها لما رأى من تعلق أخيه بها . وكانت نظرة كل منهما إلى الفتاة تختلف عن نظرة الآخر ، كان حسنين يريد أن يأخذ المتعة العاجلة ، ويلعن أمها لأنها تقف فى طريقه . . كان يريد فتاة ما . . فى أوربا وأمريكا ينشأ الفتيان والفتيات معا كما يرى فى السينما ، وكان أجدادنا يقتنون الجوارى كما يعلم من التاريخ ، وهو ينظر حوله فيجد الجو مقفرا تماماً .

أما حسين فكان يتطلع إلى المتعة أيضاً ، ولكنه خجول قنوع يريد الحياة البيتية الهانئة فلا يتطلع إلا إلى الزواج . وما كان أسعده وهو ينظر إلى بهية بعد أن خطبها ، وقد التقت عيناه بعينيها ، فسبح فى عالم بهيج من زرقة عينيها وصفائهما . ويقول فى نفسه : « ما أجملها . كيف يعمى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة ؟ ! إنها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامىء إلى حياة البيت السعيد » .

أما حسن ونفيسة ، فهما يمثلان الناحية الخلفية لهذه الأسرة التى تعد بحسب أصلها وظروفها الأولى ، من الطبقة النظيفة فى الناس ، ويطلعنا انحلال حسن ونفيسة على أثر العوامل المختلفة فى سلوك الإنسان بل فى صنعه وتكوينه ، فحسن هو الولد البكر الذى أفسده التدليل صغيراً وأفسدته الحاجة والفقر كبيراً . لم يكن يبالى بشىء ولا يحمل هما ، أراد الحزن على أبيه وعلى سوء حاله أن يداخله ، فقال فى نفسه : « ياسيدى لا تسمح للهم أن يركبك ، فما يجوز أن يركب إلا البهائم من عباد الله ، سوف تعيش طويلا وتذوق الحياة بخيرها وشرها . لم أسمع عن إنسان مات جوعاً . الأغذية تسد الطريق سداً . ولست طماعاً ، فما نريد إلا اللقمة والسترة ، وكم كأساً من الكونياك ، وكم نفساً من الحشيش ، وكل أولئك متوافر بكثرة أكثر من الهم على القلب » .

وقد وجد فعلا كل ذلك عندما انتهى به المطاف إلى «درب طياب» . وجده ، لا بعرق جبينه كالناس ، بل بدماء جبينه الذى كان يدمى به الرؤوس ويدميه . . وظل كذلك حتى حمل يوماً إلى منزل أسرته فى حالة غيبوبة من شدة إصابته ، وظل فيه تعنى به أمه وإخوته حتى شفى ،

ولكنه كان طريد العدالة ، فما إن دق الباب يوم استدعى حسنين لتسلم أخته من البوليس حتى ظن أنه المطلوب ، ففر هائماً على وجهه .

وكانت العاطفة الشريفة الوحيدة التى يخفق بها قلب حسن هى حبه لأسرته . فقد كان يعيش فى الحياة ، كما قال ، على فرض أنه ليس فيها أخلاق ولا دين ولا بوليس ، ومع ذلك كان يرق فى معاملته لأمه ولأخوته . ويشعر ببأسائهم ، ويود لو يستطيع التخفيف عنهم ، وقد خطر له فى أثناء المعركة التى خاضها مع الزنجى فى القهوة أن حظه وحظ أسرته يتوقفان على نتيجة تلك المعركة ، وكانت النتيجة كما تمنى . . فقد توطد مركزه هناك وكسب من شدة بأسه ، وساعد الأسرة مما كسب .

وكانت عاطفة الحب متبادلة بين أفراد الأسرة جميعاً على اختلافهم فى السلوك والنزعات ، فليس منهم إلا من بذل فى سبيل الآخرين . وكانت الأم تضطر إلى إخفاء عواطف الرحمة على أولادها لتظهر بمظهر الحزم والشدة ، كى تلزم كلا منهم حده وتسير الأمور على ما تريد .

ونجيب محفوظ يبنى قصصه على مجموعة من الأفراد مترابطين ، ويهتم بكل واحد منهم اهتمامه بالآخر ، فهو لا يسير على الطريقة القصصية المأثورة التى توجه الاهتمام وتدير الأحداث حول بطل أو بطلين ، وتنظر إلى بقية الأشخاص على أنهم ضرورة لتحريك البطل . أما صاحبنا فإنه يتخذ لقصته خلية من المجتمع و « طقما » كاملا من الحياة .

ونجيب قاهرى ، ولد فى القاهرة ونشأ فيها ولا يزال يعيش بها . وتدلنا قصصه على عنايته بتأمل طبقاتها الدنيا والفقيره والمكافحة واختيار مجموعات منها لإظهارها على مسرح القصة ، وهو — كما حدثنى — يرقب

الشخصية فى الحياة ، ثم يكون لها فى القصة صورة يأخذ ألوانها من الملامح العامة التى وعاها ، ويرسم خطوطها ويركب تصرفاتها من الواقع الذى يجرى فى الحياة . ويقول : إنه صور كثيراً من معارفه أو أتى بشىء منهم دون أن يعرفوا أنهم المقصودون أو أن هذا الشىء منهم . هو إذن يصنع الواقع ويركبه بخياله الذى يتخذه مادة من الحياة . إنه لا يجرى وراء الأحداث ويتتبعها كما يفعل مندوبو الصحف فى جمع المعلومات والتقاط المناظر بالفوتوغرافيا .. فهو لا يعرض واقعاً كما حدث ، وإنما يخلق واقعاً كالذى يحدث . ونعلم أن بعض القصصيين يشق نفسه بتتبع الأشخاص وما يقع منهم ليكون واقعيا أمينا . . ويقول : إنه يقدمهم كما عرفهم معتزا بنتيجة عنائه . . وهذا فى الحقيقة كما أراها — إن تيسر — عناء باطل ، وهو إن تيسر أيضاً صدق ، ولكن الفارق كبير بين صدق الريشة وصدق الفوتوغرافيا ، وبين الصدق الفنى والصدق الصحفى .

وقد أعجبتنى قصة « بداية ونهاية » من بين قصص نجيب محفوظ ، لأنها أكثر مطابقة للواقع ، ليس فيها كما فى « زقاق المدق » مثلا : حشد للشخصيات الغريبة وتصرفاتها الشاذة . . فهذه الشخصيات والتصرفات ، وإن كان الواقع لا يأباها إلا أن اجتماعها فى الزقاق وما تفرع منه لا يقع عادة ، ويظهر فيها العمل الذى يضفى عليها الافتعال ويبدو فيه تعمد الإتيان بالغرائب والعجائب . أما قصة « بداية ونهاية » فالحياة فيها تسير طبيعية كما يحدث عادة ، لا نحس فيها بحركة « مسرحية » مزدحمة مفتعلة .

وتمتاز قصص نجيب من قصص الشيوخ بعدم القصد إلى سياق

الأفكار ، ويشاركه فى هذا كثير من قصاصى الجيل التالى للشيوخ ، فهو يوجه همه إلى إجراء الحياة كما تجرى وينطق الأشخاص بما نجدهم ينطقون به ، ويجعلهم يشيرون إلى الأفكار التى يريدها ، مستخلصة من منطق الحوادث ، إشارات خاطفة كافية دون حاجة إلى مايشبه الخطب والمحاضرات .

ولنجيب خاصة يقصد بها إلى الخواطر التى تجرى وراء الأمور الظاهرة والمحاورة العلنية ، وذلك عندما يفتح القوسين الصغيرين للمناجاة وحديث النفس الذى لا يمكن للشخص أن يصرح به أمام صاحبه . وبذلك يتغلغل إلى نفس الإنسان ويعرض ما يدور فيها على حقيقته ، فحسن مثلا يريد أن يشتم الأستاذ على صبرى الذى يلاعبه الكومى وهو حريص على مجاملته ، ويريد أو يريد المؤلف أن يعبر عن حقيقة شعوره فيقول فى نفسه بين الأقواس : « ما عسى أن أصنع مع ابن الـ . . هذا ! إذا كسبت أغضبته وإذا خسرت ضاع اليوم هدراً ؟ ! »

وأريد بعد ذلك أن أسأل وأن أجيب . . أسأل : ماذا تعطينا القصة وهل لها موضوع ؟

لا أريد أن أتعرض هنا لما يردد من مثل « الفن للفن » و « الفن للحياة » و « الأدب الملتزم » ، وما إلى ذلك مما يختلف فيه الكاتبون ، وتنشب بينهم من أجله المعارك . سأدع هذا كله حتى لا يفسد على الأمر .

أقول أولا : إن المؤلف يصور هؤلاء الناس ويحدثنا عن أعمالهم وخلجاتهم ، فيمتعنا بذلك إمتاعا فنيا لا شك أنه مطلب من مطالب

الأدب ، بل هو عنصر أساسى فيه . وهو مع ذلك يحسن بتصويره ما يستحسن ويقبح ما يستقبح ، وهو بكل ذلك ينقد المجتمع ويبرز صفاته وعيوبه ، وليأت بعد ذلك من يأخذ عنه فهم الحقائق الإنسانية كما فهمها أو كما يريد أن يفهمها ، وليأت كذلك من يصلح العيوب ويقيل المجتمع من عثراته ليتيح له عيشاً أحسن وحياة أفضل .

وللقصة مع ذلك كله موضوع يشملها من بدايتها إلى نهايتها، هو موقف هذه الأسرة التى توفى عائلها الموظف ، ولم يكن يملك غير مرتبه الذى لا يهيء لها إلا الكفاف . موقفها الحرج البائس من المجتمع العام الذى ينعدم فيه ضمان الحياة الآمنة الكريمة لمثلها .

هذا الموضوع تعبر عنه الحوادث نفسها ومافيها من مقدمات ونتائج . ويعبر عنه الأشخاص فى أحاديثهم التعبير الخاطف الكافى . يتأمل حسين حاله بعد أن اضطر إلى الوظيفة ولم يستطع تحقيق رغبته فى التعليم العالى ، ويقول : « لولا الفقر لواصلت تعليمى . الجاه والحظ والمهن المحترمة فى بلدنا هذا وراثية . لست حاقداً ولكنى حزين . حزين على نفسى وعلى الملايين . لست فرداً ولكننى أمة مظلومة » . ويبدى مرة إعجابه بكتاب قرأه عن الاشتراكية، وخاصة ماتضمنه من أن النظام الاشتراكى لا يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق . ويتحدث الشقيقان عن السياسة فتحاول أمهما أن تصرفهما عن هذا الحديث الذى لافائدة منه فى محنتهما ، فيقول لها أحدهما : « لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبى بلا معين » .

والمؤلف يناقش تصرفات ومسائل كثيرة ، بالتحليل ، وعلى ألسنة

المتحاورين ، وبالخواطر التى بين الأقواس . ولكنه ترك حسنين يعيث فساداً فى بعض القيم الاجتماعية فلم يناقشه بأية وسيلة من تلك الوسائل .
وأنا أعتقد أن الأديب مسئول عما يكتب ، فالقصصى مسئول عن الأفكار التى يسندها إلى أفراد قصصه فلا يترك منها بلا توجيه فنى إلا مايقره ويوافق عليه ، وقد قام نجيب بمقتضيات هذه المسئولية فى مواطن كثيرة كما ذكرت ، ولكنه لم يقم بها كما ينبغى إزاء ميل حسنين إلى المظاهر الجوفاء ، فتركه يعلق أهمية كبيرة على ما أحب لجنازة أبيه من كثرة المشيعين ووجاهتهم ، وتركه يأسف ويشعر بالخزى للمقبرة المتواضعة ، وتركه يستنكر ويشغل نفسه أكثر من اللازم باشتغال أخته بالخياطة ، وتركه يهتم اهتماماً كبيراً بمصاهرة أحمد بك يسرى . . الخ . لم يناقش هذه النزعات ، ولم يجعل أحداً من الأشخاص يناقشها مناقشة تبين ما فيها من خطأ .

وهناك مسألة الحب فى القصة .. إن المؤلف يوجه عنايته إلى تصوير الرغبة والاشتهاء . ومن الإنصاف له أن نذكر أنه لا يقصد إلى هذه المسائل قصداً وإنما تأتى المسألة باعتبارها حقيقة من حقائق حياة الأشخاص ، ولا أنكر عليه ، بل من الطبيعى أن يستوفيها فى جملة ما يعرض له من الحياة الكاملة . ولكنى ألاحظ أنه يحرك البطل فى إطار الرغبة وحده ولا يعير العاطفة اهتماماً . وأنا لا أقول بأن العاطفة مجردة من الرغبة ، ولكنى ما أحسبك إلا توافقنى على أن الحب نفسه عاطفة نحو فرد معين لا يغنى عنه غيره ، أما الرغبة فهى تتعلق بفرد وغيره . وأعتقد أن الحب بين الرجل والمرأة لا يخلو من رغبة ، وإن كانت الرغبة أحياناً تتشمشع وتتحول إلى عذرية ، وهو ما يسمى « التسامى »

أما مجرد الاشتهاء فلا يسمى حباً . وعلى هذا أستطيع أن أقول إن ماسماه في القصة حباً ليس حباً بالمعنى الصحيح . .

وحسين لم يكن يشوقه في ابنة رئيسه بطنطا وفي بهية أخيراً ، إلا أن يستمتع بحياة زوجية سعيدة .

ونفيسة كانت الرغبة تجأر في كيانها من جهة ، ومن الجهة الأخرى كانت تريد زوجاً كيفما كان . فلم يكن سلمان ابن عم جابر حبيباً فرداً لا يسد فراغه غيره .

وأسلوب نجيب محفوظ يجمع بين اللغة الفصحى والأداء الواقعي ، وهو متمسك بالفصحى ، ويجرى على سنن المازنى في استعمال الكلمات الدارجة المشتركة بين العامية والفصحى ، فيقول مثلا : « نفسها مصدودة » و « ترامى إلى أذنيها الصوات » و « انهد حيلها » .

ولا أريد هنا أيضاً أن أعرض لما تدور عليه المعارك في هذه الأيام بين أنصار الفصحى وأنصار العامية . وإنما أشير إلى أمرين : الأول — أن الفصحى في حوار نجيب محفوظ تعبر تعبيراً واقعياً حيا ، وواقعية اللغة عنده كواقعية المضمون . إنه لا ينقلها كما هي ، وإنما يحيلها إلى نفسه ثم يترجم بها عن الأشخاص ترجمة فنية فصيحة . وليكتب من يشاء حواره بالعامية . والعبرة أخيراً بحسن الأداء ووفائه سواء بالعامية أو بالفصحى .

الأمر الثاني — أني لا أود للكاتب أن يستعبده موروث اللغة بحذافيره ، فإننا نتلقى هذا التراث ممن قبلنا لتنميته وتطويره ، فلنا أن نؤثر كلمة دارجة على كلمة فصيحة إذا رأينا أن الأولى تؤدي مالا تؤديه الثانية ، ولنا أن نضيف إلى لغتنا ما نشاء من الأسماء الأجنبية التي وضعت لمواليد في

بلادها . . ولا أرى تغيير كلمة الراديو بالمذياع مثلا إلا كما نطلق اسم حسن على جورج .

وذلك لا يضير اللغة فى شىء ، فاللغة جوهرها وكيانها فى سلامة التراكيب ، أما إضافة المفردات إليها فإنها تنميها وتغنيها . وليعلم المعارضون فى تطوير اللغة وتيسيرها ، وفى مقدمتهم موجهو تعليمها بالمدارس ، أنهم يعادونها كما يعاديها أنصار العامية . هؤلاء يقصدون المعاداة ، وأولئك يعادون من حيث لا يقصدون . . ولا صديق للفصحى إلا من يدعو إلى تحبيب الناس فيها بالتيسير والتسهيل .

# شجرة البؤس

## طه حسين

العرض :

جلس أبو خالد وأبو صالح بعد أن فرغا من الصلاة يتناجيان . قال الثانى للأول : ويحك أبا خالد . أخشى أن نكون قد ظلمنا أنفسنا وأرهقنا هذا الفتى من أمره عسراً . قال أبو خالد : وما ذاك أبا صالح ؟ قال أبو صالح : إنى لم أر ابنتى قط منذ كان هذا الزواج إلا رحمت الفتى وأشفقت عليه . فما رأيت أقبح من ابنتى شكلا ولا أبشع منها منظرا ولا أقل منها دعاء للرجال .

هنالك غضب أبو خالد وقال لصاحبه فى شىء من العنف : فإنا اجتهدنا لأنفسنا وأموالنا واجتهدنا لهذين الشابين ولا علينا بعد ذلك أن يسعدا أو يشقيا أحدهما أو كلاهما . إنها ابنتك الوحيدة وإنه ابنى الوحيد وإن لك ثروة ضخمة وإن لى تجارة واسعة وإن بيننا شركة بعيدة المدى وإخاء قديم العهد ، فلم يكن بد أن يقترن هذان الشابان ومن أن يصير إليهما هذا المال .

وأنت ولا شك تريد أن تعرف شيئاً عن هذين الرجلين ، وأنت بعد هذا تريد أن تعرف قصة ذلك الزواج . أبو صالح واسمه

عبد الرحمن — رجل من تجار القاهرة يتجر فى البن والسكر والأرز والصابون ويتجاوز بتجارته القاهرة إلى الأقاليم البعيدة والقريبة ، وقد نشأ بحى الخرنفش فى القرن الماضى وورث عن أبيه هذه التجارة ونماها. وكان قد اشترى من سوق الرقيق جارية سوداء ثم أعتقها وتزوجها ورزق منها ثلاثة أولاد إحداهم نفيسة التى ورثت من قبح الصورة ودمامة الشكل كل ما فى الأسرة من ناحيتى الأب والأم ، وكانت هذه البلوى مدعاة لعطف الأبوين على الصبية البائسة كما كانت مدعاة لاستهزاء أخويها بمنظرها البشع ، ثم فقدت الأسرة ابنيها فأصبحت الفتاة وحدها موضعاً لحب الأبوين وبرهما .

وقد ارتحل عبد الرحمن فى بعض شأنه التجارى إلى إقليم بعيد عن القاهرة ونزل على صديقه وعميله على بن سلام ( أبى خالد ) وكان على تاجراً كبيراً فى هذا الإقليم . وقد ولد له ابنه خالد فعلمه كما تعلم هو فى الكتاب التعليم الموروث ، وتقدمت السن بخالد حتى قارب العشرين وقد حفظ القرآن وجعل يعمل مع أبيه فى تجارته حينا ، وينصرف عنها أحيانا ليختلف إلى المساجد ومشايخ الطرق ويشاركهم فى حلقات الذكر . وقد أخذ العهد عن شيخ الطريقة الذى أخذ عنه أبوه على وصاحبه القاهرى عبد الرحمن . وذات ليلة قال الشيخ لعلى بمحضر صديقه عبد الرحمن : ياعلى زوج ابنك وليعنك على ذلك عبد الرحمن .

وانصرف الصديقان عن الشيخ ، وجعل على يفكر فى هذا الأمر الذى صدر من الشيخ . وفى الصباح يتحدث الصديقان فى هذا الأمر ويتساءل عبد الرحمن عن نوع المعونة التى يأمره بها الشيخ فى هذا الشأن ويتم

على أن يراجع الشيخ ليعرف منه ماذا أراد ، ولكن الشيخ يقول باسماً قبل أن ينطق على : سبحان الله ، ويلتفت إلى عبدالرحمن قائلا : وماشأن نفيسة ؟ ثم يأمر بإقامة الذكر .

فهم الصديقان ما يعنيه الشيخ ولم يستطيعا مع ذلك أن يقولا له شيئاً أو يسألاه عن شيء . ولم يكن بد من تنفيذ ما أشار به الشيخ . فزوج خالد من نفيسة . وقد أقبل خالد على هذا الزواج راغباً فيه دون أن يفكر فى قبح العروس ، فقد أمره الشيخ أن يتزوج فهو يتزوج ، وليس يعنيه شيء من قبح أو حسن أو غيرهما مما يطلب بالزواج . ولما أدخل على زوجته لم ينكر منها شيئاً بل شعر بالسعادة كلها واستيقن فيما بينه وبين ربه أن امرأته بارعة الحسن رائعة الجمال خفيفة الروح ساحرة الطرف خلابة الحديث ، بل كان يفزع إلى الله عقب صلواته ألا يجعل فتنتها تصرفه عن العبادة والتقوى والتماس المعرفة من الشيخ .

شخص واحد ابتأس لهذا الزواج عند ما شرع فيه وعند ما تم — هو أم خالد التى هالها وروعها قبح عروس ابنها عندما هبطت إلى القاهرة لتراها ، وأرادت أن تثنى زوجها عن ابتلاء ولدهما بهذه الفتاة البشعة . وقالت له : ثق بأنك ستندم على ما أنت مقدم عليه من الأمر ، وبأنك إن أتممت هذا الزواج لم تزد على أن تغرس فى دارك شجرة البؤس . ولكن زوجها قال لها : تخيرى فإما أن يعقد هذا الزواج ، وإما أن تفصم عقدة الزواج بينك وبينى فأقسم لتعودن إلى مدينتنا أربعة أو لتعودن إلى أهلك وحيدة . فسكتت وأذعنت للواقع كارهة . فلما عادت إلى دارها فى المدينة أوت إلى غرفتها حزينة مريضة . ولزمت هذه الغرفة حتى أخرجت

منها إلى القبر . وكان على يحب زوجته أم خالد فلما رآها فى آخر لحظة من حياتها جزع وأقبل عليها يسترضيها . وكان هذا آخر حديثهما معا ، قالت : ليكن مرضى وموتى كفارة عما جنيت بتزويج ابننا من هذه الفتاة — فإنه أمر الشيخ — وليكن مرضى وموتى كفارة عن الشيخ أيضا .

وقال الشيخ ذات مرة لخالد : ياخالد زوج أباك كما زوجك فإنه لا يقدر على حياة الرهبان . ورضى على بهذا الأمر وتزوج مغتبطاً . ثم استكثر من الزوجات ، ولكنه ظل وفياً لأم خالد إذ اكتفى بثلاث زوجات واعتبرها الرابعة . . فإذا أعطى لكل من الثلاث ليلة أوى فى الليلة الرابعـــة إلى حجرة أم خالد مصلياً قارئاً داعياً واهباً هذا كله لأم خالد .

رزق خالد من زوجته صبية سماها سميحة ، ومن الغريب أن جاءت هذه الصبية آية فى الجمال ، وجعل حسنها يبدو ويربو كلمـا كبرت . وذات يوم أخذها أبوها بين ذراعيه وقبلها ثم نظر إليها ونظر إلى المرآة ، ونظر إلى امرأته ثم قال لهـا فى صوت يقطعه ضحك عال مر : من أين لهـذه الصبية هذا الجمـال ؟ ليس وجهى بالرائع وإن وجهك لبشع فمن أين لها هذا الجمـال ؟

وكانت تلك الكلمة بدء تحول منـكر فى حيـاة الزوجين ، كأن الزوج لم ير قبح زوجته إلا الآن ولم تـكن الزوجة قد سمعت منه قبل ذلك ما يشير إلى قبحها . جعل منذ ذلك اليوم يتأمل محاسن ابنته ويوازن بينها وبين مقابح زوجته ، يفعل هذا فيما بينه وبين نفسه ، ثم لا يملك إلا

أن يبديه فيتحدث به إلى زوجته ، وهى تحس به كطعنات الخنجر فى قلبها فتجهش بالبكاء وتسرع إلى غرفتها .

وولدت نفيسة صبية أخرى لم يملك خالد حين رآها إلا أن جهر بقراءة آيات من القرآن ليرد نفسه إلى الأمن وقلبه إلى الاطمئنان ، فقد رأى ويا نكر ما رأى — رأى ابنته الثانية صورة مطابقة لأمها أشد المطابقة وقد سميت جلنار .

وخالد مجتهد فى الدين حريص على التقوى ولكن الشيطان ماكر ماهر ، فقد أمهل خالدا إذ تركه يستشعر العطف على ابنتيه والمودة لزوجته ولكنه كان مستخفياً فى زاوية من زوايا نفسه فلا يراه يقبل على ابنته الصغرى يلاعبها حتى يدنو من الصبية فيغطى ابتسامتها البريئة الحلوة بتقلصه المنكر البغيض الذى يرسمه على وجهها . ويحسب نفسه قد أمن من وساوسه ولكن الماكر يدفعه نحو ابنته الكبرى ذات الحسن الرائع ، وإذا خالد بين أجمل وجه خلقه الله وأقبح وجه خلقه الله ، وإذا هو يلقى نظرة خاطفة على زوجته ثم ينصرف مسرعاً رافعاً صوته بآية الكرسى . ويظل يدفع الشيطان بآية الكرسى ويظل الشيطان ينسل إليه فى مختلف الصور ، فهو لا يكتفى بأن يرسل ملامحه البغيضة على وجه الزوجة المعذبة والصبية البائسة ، بل ينطلق إلى أصدقاء خالد فيطلق ألسنتهم بالأحاديث التى تزين الطلاق ، واستبدال زوجة بأخرى ، أو تزين الاستكثار من الزوجات والتنقل بينهن .

ولم يكن عبث الشيطان بنفيسة أقل من عبثه بخالد ، فقد كان يعرض عليها صورتها البشعة إلى جانب نساء حسان ويلقى فى روعها أن زوجها يفكر

فى هؤلاء الحسان ليختار منهن ضرة . ويتفنن الشيطان فى هذه الصور التى يعرضها على الزوجين ويعذبهما بها ، حتى يبلغ أمره مع نفيسة أن يمثل لها جنية البيت التى تزعم أنها تسكن حنايا السلم . وتزعم هذه الجنية للزوجة أن زوجها قد تزوج اليوم أو أنه متزوج غدا ، فتنثر نفيسة شعرها وتمزق ثوبها وتلطم وجهها وتصك صدرها فى نشيج وشهيق ، ويدخل الزوج على زوجته فيتلو القرآن ويستعيذ من الشيطان حتى يشيع فى جسم نفيسة برد الراحة وحلاوة الأمن والهدوء . ولكن ( الحالة ) تعاودها فى أوقات تفصل بينها فترات طوال أو قصار ، حتى يسوء حالها . ويأتى أبوها فيعلم خبرها . ويقول عبد الرحمن بمحضر الشيخ : إن ابنتى لم تعد تصلح زوجا لخالد، وإنى أشهدك على أنى سأكفل ابنتى والصبيتين ماجييت ، فإذا مت فإنى أوصى بهن وبامرأتى ومالى كله إلى خالد يقوم فى ذلك كله بأمر الله وبما ينبغى من البر بالزوج والولد والصهر وذوى المودة والقربى . ويصفق الشيخ فيأتى الخادم فيقول له : أرسل لنا قهوة وقل للشيخ مذكور يغنى لنا :

« سائق الأظعان يطوى البيد طى »

أكثر علىّ من النساء وأخذ أولاده يكثرون ، وأخذ ربح تجارته الكبيرة يذوب فى هذه الأسرة الكبيرة ، بل أخذ رأس المال ينقص ، وأخذت التجارة تفتر شيئاً فشيئاً على مر الشهور والأعوام . ثم أصبح ذات يوم وإذا هو يرى نكراً من الأمر ، فقد أنشئت بالمدينة متاجر جديدة أنشأها قوم غرباء وزينوها ونسقوا فيها البضائع ، فأقبل الناس عليها وأعرضوا عن المتاجر القديمة القذرة . ويشكو على وأصحابه التجار

ما أصابهم من ذلك إلى الشيخ فيقول لهم كما يقولون : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويؤكد لهم أن أكثر أهل النار من الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة .

ورأى على أن يسافر إلى صديقه عبد الرحمن فى القاهرة ، وهو يحدث نفسه بما عساه أن ينال من معونته ، ولكنه يجد صاحبه قد تعرضت تجارته فى العاصمة لمثل ما تعرضت له تجارته فى الإقليم ، فقد امتلأت القاهرة كذلك بالمتاجر الجديدة التى أنشأها الغرباء مزينة منظمة نظيفة جذابة . ويسأل عبد الرحمن صاحبه عن الشيخ ، فيجيبه على بأنه سيجىء إلى القاهرة وسيكون ضيفاً لعبد الرحمن ، فيصيح هذا فرحاً : الله أكبر ! الشيخ ضيفى !

ويجىء الشيخ إلى القاهرة بأتباعه ويقضون فيها عند عبد الرحمن أسبوعاً أنفق عليهم فيه ما لا طاقة له به ولا قدرة له عليه ، ولكنه كان سعيداً مجداً فى الإطعام والإنفاق . ولم يفارقوه عائدين إلى مدينتهم فى الإقليم حتى أحس الجهد ، فلزم داره حتى توفى بعد شهور .

وإذا عدنا إلى خالد وجدناه مضطرباً بين الحزن والرضا وبين القلق والأمن ، فهو حزين قلق لفراق امرأته التى عاشرته أعواماً ورزقته ابنتين ولم تره فى سيرتها معه إلا خيراً ، وحزين لأنه كان ينتظر لنفسه حياة غير هذه الحياة وحظاً غير هذا الحظ ، وهو راض آمن لأن لقاءه امرأته كل يوم مصبحاً وممسياً ونظره إلى ابنتيه وموازنته بينهما وبين أمهما ، كل ذلك كان يسوؤه ويؤذيه ، وقد استراح منه . ولخالد ابن عم اسمه سليم توفى أبوه وهو صغير فكفله عمه على واتخذه لخالد أخاً .

ونشأ خالد وسليم صديقين يعتبران نفسيهما أخوين . وكان لسليم زوجة معتدلة الجمال اسمها زبيدة ، وكانت أسباب المودة قد اتصلت بينها وبين نفيسة ، وكان الصديقان الأخوان سعيدين بالمودة بين زوجتيهما . وكان من هذه المودة أن جلنار لم تكد تبلغ الشهر السادس من عمرها حتى خطبتها زبيدة لابنها سالم وكان فى الثانية من عمره ، وقد آثرت جلنار على سميحة لأن الثانية كانت أكبر من سالم .

ورأى الصديقان الأخوان أن التجارة لم يعد فيها خير بعد أن أصابها ما أصابها من منافسة وكساد ، وهما يحسنان القراءة والكتابة والحساب . وطلبا إلى الشيخ أن يتوسط لهما عند الباشا المدير ، ففعل ، وعين خالد كاتباً فى المحكمة الشرعية وسليم كاتباً فى المديرية .

وتزوج خالد من منى ابنة الحاج مسعود . وهو رجل من أغنياء الريف القريب من المدينة ، ومن مريدى الشيخ الملازمين له ، وذلك بعد أن طلق نفيسة ، وقد أتى بها هى وأمها وابنتيها من القاهرة بعد وفاة صهره الأول عبد الرحمن . وتم كل ذلك برأى الشيخ أو قل بأمره .

وقضى خالد فترة من الزمن سعيداً فى حياته الجديدة بين وظيفته وزوجته منى . ورزق منها غلاماً حسن الطلعة ثم تتابع بعده إخوة ذكور . وقد استقرت نفيسة وأمها وابنتها ، فى جناح من دار أبيه على . ولكن سوء الحال الذى حاق بأبيه نغص عليه عيشه ، وقد احتاج الوالد إلى معونة ولده الموظف وضاق المرتب الضئيل عن أن يتسع لحاجاته ومطالب الوالد المزواج المطلاق .

ويعلن الشيخ أنه وجد لخالد عملا خيراً من عمله فى محكمة المدينة ،

عملا فى الدائرة السنية بمدينـــة أخرى فى أعلى الإقليم مما يلى الصعيد ويتجر عليه بما يعدل راتبه مرتين غير مايسوقه إليه من رزق لاحرج فيه . ولم يكن الشيخ حين وجد هذا العمل واختار له خالدا يفكر فى هذا الفتى وأسرته وحدهما ، وإنما كان يفكر مع ذلك فى نفسه وفى طريقته أيضاً ، ويريد أن يتخذ بيت خالد فيها منزلا له ولأصحابه ينزلون به ويقيمون فيه حلقة الذكر إذا زاروا تلك المدينة .

ولما عرف خالد ذلك تردد ساعة ، ولكنه لم يلبث أن اطمأن إلى الرضا ، فهو لم يتعود أن يخالف أمر الشيخ وهو مدين له بما فى حياته من خير وشر .

واستقر حاله فى مدينته تلك النائيـة مع زوجته منى وأولاده منها وترك نفيسة وابنتيها — وقد توفيت أمها — فى رعاية أبيـه وأخيه سليم ، وقد ضاعف معونته المالية لأبيه .

ساءت حال نفيسة ، وأشار سليم على خالد — فى أثناء زيارته له فى المدينة الجديدة — أن يرسلها إلى مستشفى المجانين . فأنكر خالد ذلك وطلبت زوجته منى أن تحضر نفيسة وابنتاها إلى منزلهم قائلة : إنما مكان نفيسة هنا فى هذه الدار ، أقوم عليها أنا ومن معى ، ويرعاها أبو ابنتيها من قريب كما كان يرعاها قبل أن ينتقل إلى هذه المدينة . قال الرجلان معاً : أو تفعلين ؟ قالت منى : ولم لا ؟ سأتخذ ابنتيها ابنتين لى ، وقد رزقنى الله أربعة غلمان ولم يرزقنى بنتاً واحدة .

وحملت نفيسة بعد أيام إلى دار خالد فى مدينته تلك متعبة منهوكة

القوى . ولكن منى عرفت كيف ترعاها وترفق بها وتتلطف لابنتيها حتى ردت إليها شيئاً من عافية ، فأقامت فى الدار ما شاء الله أن تقيم حية كالميتة وميتة كالحية .

وحرص خالد وزوجته على تعليم أبنائهما فى المدارس حتى يبلغوا نهاية التعليم ، كما حرصا على أن تكون دارهم مثل دور كبار الموظفين حسنة النظام نفيسة الآنية والأداة . وعاشت سميحة وجلنار فى بيت أبيهما مع زوجته وإخوتهما سعيدتين راضيتين قد أنسيتا ما أحستا من ألم أو وجدتا من شظف فى حياتهما الأولى . ثم تزوجت سميحة برجل فى مدينتهم الأولى له شيء من ثراء ومكانة . فأما جلنار فقد ظلت الفتاة الوحيدة فى هذه الأسرة ، راضية ، بما حولها ومن حولها ، ضائقة بما تعرف من دمامتها . وكانت تقوم بشئون البيت بجد وحب ونشاط . وهى تعلم ما اتفقوا عليه فى صغرها من خطبتها لسالم ، وكان سالم ينتهز كل فرصة ليزور عمه وأبناء عمه فى مدينتهم هذه ، وكانت الفتاة البائسة مستيقنة بأنها الغرض من هذه الزيارات ، فكانت تفكر فى الفتى وتحبه حباً لا تتحدث به بل تكتمه كسائر البنات فى الريف .

وكانت منى تتمنى أن ترزق بنتاً إلى جانب من رزقتهم من الذكور . وقد حقق الله رجاءها فولدت صبية ، ثم ثلاثاً بعدها متتابعات . ومنذ أصبح لمنى بنات أخذت نظرتها إلى جلنار تتحول قليلا قليلا ، فجعل صوتها إذا تحدثت إلى الفتاة يجفو ، وجعلت معاملتها للفتاة تغلظ من يوم إلى يوم ، وسالم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث فى الزواج ولا يشير إليه ، والفتاة ترى وتتألم وتصبر ، وتنظر إلى وجهها فى المرآة ثم تعكف على

نفسها فى صمت حزين . ولم تكن جلنار تعنى عناية خاصة بأمها التى كانت تعيش بينهم كالشبح لا تعقل كثيراً مما يقال أو يجرى حولها . وبمقدار ما كانت سيرة منى تتغير مع جلنار كان عطف جلنار على أمها يشتد ويزداد .

كان سالم تقدم إلى الشباب وجعل ينتقل من عمل إلى عمل فيكسب القليل مرة والكثير أخرى وكان ذكياً طموحا جريئاً ، قال لأبيه ذات يوم : لا أسمعك تحدثنى عن جلنار فإنى لم أخطبها ولم يخطر لى أن أتخذها زوجا . ولم تفد مناقشة أبيه إياه فقال له يائساً منه : أنت وما تشاء ! وكان لسالم أخ أصغر اسمه على كان كسولا غبياً خاملا .

كثر أبناء خالد وبناته ، ورحل الشباب منهم إلى القاهرة فى طلب العلم والتماس الرقى ، وقد بذل الوالدان جهداً كبيراً فى تدبير أمرهم والإنفاق عليهم . ومضت حياة الأسرة أعواماً وأعواماً حتى اكتهل الشاب وشب الصبى وصلح البنات للزواج ، وخالد الشيخ ، سعيد بما يرى من تقدم بنيه واستقلال من يستقل منهم ، شقى بما يرى من إعراضهم عنه وازورار أكثرهم عليه .

وفى ذات صيف كانت الأسرة كلها مجتمعة ، وقد التقى الأبناء جميعاً عند أبويهم ، منهم الكهل معه زوجه وبنوه ، والشاب الذى لم تلد زوجه بعد والشاب الذى لم يتزوج والفتى الذى لم يتم الدرس . ويقدم عليهم سليم وابنه سالم وقد حملا من الطرف والهدايا أكثر مما اعتادا أن يحملاه فى زيارتهما للأسرة . ثم يخلو سليم بخالد ويخطب إليه تفيدة كبرى بنات منى لابنه سالم ، ورضيت منى بهذه الخطبة ، ولكن خالدا حار فى الأمر . أيقبل فيضحى بجلنار البائسة أم يرفض فيؤذى أخاه وابنه سالما وزوجته أيضاً ؟

فأما الشباب فقد اجتمعت كلمتهم على الرفض ، وعلى أن فى هذه الخطبة الجديدة قحة لا تبلغها قحة واهتدى سليم إلى حيلة للخروج من هذه المشكلة .. وتم ما اهتدى إليه، وعقد زواج سالم من تفيدة وزواج جلنار من على . وزفت تفيدة إلى سالم وجاءت رسالة فى ذات اليوم تحمل إلى خالد وثيقة الطلاق لجلنار .

وأقبل إلى خالد ذات يوم شيخ متقدم فى السن من أصدقائه يخطب جلنار، ولم يدر أحد أدفعته الرحمة إلى هذه الخطبة أم دفعته إليها الحاجة إلى من يؤنس وحدته أم دفعه حرصه على توثيق الصلة بينه وبين صديقه ولكن جلنار تقول لأبيها وقد عرض عليها الأمر : ليس لى فى الزواج أرب وما أحب أن أفارق هذه الدار . وتقول منى لزوجها : إن شجرة البؤس ما زالت تؤتى ثمارها . قال خالد : فعسى الله ألا تذوقى أنت ولا بناتك بعض هذه الثمار ! ولكن الله لم يستجب دعاءه فلقد لقيت تفيدة من زوجها ما لقيت وابتأست فى حياتها ما ابتأست . وكذلك كان حظ أخواتها .

ورأى الضحى ذات يوم نسوة مجتمعات يبكين ولم تكن فيهن إلا أيم أو مطلقة ، ولم يكن هؤلاء النسوة إلا منى والأرامل من بناتها ومعهن جلنار وأخذن يتذاكرن آمالهن الضائعة وآلامهن الملمة فتقول منى لتفيدة . والله ما جر عليك آلامك إلا الحسد والغيرة فتقول تفيدة : والله يا أماه ما أدرى ! لعلى أكون قد جنيت على نفسى حين أخذت ما ليس لى بحق .

وتسمع جلنار فلا تقول شيئاً ، ثم تنهض متثاقلة إلى حجرتها ولا

تخرج منها إلا إلى جوار أبيها فى الدار الآخرة حيث لاتحاسد ولا تباغض ولا لغو ولا تأثيم .

٭ ٭ ٭

النقد :

بيئة هذه القصة هى بيئة الجزء الأول من كتاب « الأيام » . عنى المؤلف فى الأيام بالفتى ومن حوله وماحوله ، وعنى فى هذه القصة بأسرة الفتى على نحو ما رأينا ، وأكبر الظن أن فتى الأيام هو أحد أبناء خالد . إذن فقصتنا هذه وما فيها من أحداث وتصوير للأشخاص وتعبير عن أفكارهم وعاداتهم وعقائدهم ووصف للعيش الذى عاشوه وما لاقوا فيه من لذات وأشواق ومن بؤس وآلام ، إذن فكل ذلك من تجربة نفس المؤلف وما لابس نشأته وحياته الأولى فى تلك المدينة من ذلك الإقليم . ولا شك أن هذه القصة تعتبر كما يعتبر كتاب الأيام تاريخاً مصورا تصويرا أدبياً لنشأة طه حسين . وفى القصة دلائل للباحث الذى يريد أن يتعمق حياة هذه الشخصية . فأزعم أن انفعال المؤلف بشقاء الآخرين واستجابته لدواعى العطف واندفاعه فى ذلك إلى أقصى حد إنما هى أشياء من آثار ما أحس به من مرارة الثمار التى كانت تؤتيها شجرة البؤس ، وأزعم أن تطلعه إلى آفاق جديدة وحياة أفضل إرث من والده الذى عبر عن آماله البعيدة بتربية أبنائه والكد فى تعليمهم ليبلغوا ما كان يطمح هو إليه . وأزعم أكثر من ذلك أن استقلال شخصيته وتحرره من قيود الفكر وعنفه فى الجدل والخصومة الأدبية ، كل ذلك دفعه إليه ما لم يرضه فى تلك البيئة الأولى من الإيمان المطلق الذى كان يشل عقول القوم إزاء ما يراه الشيخ ويشل إرادتهم إزاء ما يختاره لهم الشيخ .

وقد اشتهر كتاب الأيام على أنه أحسن عمل أدبى للدكتور طه حسين فى رأى الكثير من الناس . والغريب أن أكثر هؤلاء الناس المعجبين بالأيام لا يلقون بالا إلى هذه القصة «شجرة البؤس» ، إما لأنهم لم يقرأوها ، وإما لأن الأيام الذى سبق فى الظهور استنفد أكثر الإعجاب ولم يبق لشجرة البؤس ما تستحقه . على حين أن هذه القصة من نوع ذلك الكتاب ، فهما يتناولان بيئة واحدة مع اختلاف الزمن . ويجرى تصوير الأشخاص فيهما على خط متقارب ، وإن كنت أرى فى القصة قوة ليست فى الكتاب ، ولعل هذه القوة راجعة إلى الحبكة القصصية واتجاه الوقائع فى موضوع له بداية ونهاية . وفى رأيى أن طه حسين لم يكتب كهذه القصة ، فهى القصة الوحيدة بين ما كتب من قصص صغيرة وكبيرة التى اجتمعت لها كل مقومات القصـــة مع خصائص الأدب الحى الرفيع .

فقصة شجرة البؤس تمتاز على كل ما كتب أديبنا الكبير بأنها تجربة من حياته ، وأنه بناها بناء قصصياً كاملا ، لم يحتج إلى أن يقدمها بالسخرية من النقاد الذين يطالبون بخصائص القصة ومقوماتها ، كما فعل فى تقديم قصص «المعذبون فى الأرض» . وقد كان دقيقاً فيما قاله مع هذه السخرية من أنه لا يكتب قصصاً وإنما يسوق أحاديث ، فقصص « المعذبون فى الأرض » وكثير مما كتبه أدنى إلى الأحاديث القصصية منها إلى فن القصة . أما « شجرة البؤس » فهى عمل قصصى ينبض فيه أدب طه حسين الرفيع . وما يستطيع ناقد منصف أن ينكر قدرته القصصية الفائقة إلا إذا كان لم يقرأ هذه القصة .

عنى المؤلف فى قصتنا هذه بمجموعة من الناس ، ولم يجعل لها بطلا واحداً يسلط عليه الضوء أكثر من غيره ، ولعله فى هذا قد سبق قصاصنا الشاب نجيب محفوظ ، وقد جعل هذه المجموعة تتحرك فى دائرة من نفوذ شيخ الطريقـــة وتسلطه الروحى عليهم ، وقد صور هذا النفوذ وهذا التسلط كما صور خضوعهم واستسلامهم المطلق ، تصويرا دقيقاً بالغاً رائعاً .

لم يكن لأحد منهم أن يخالف ما يشير إليه أو يأمر به الشيخ ، ولم يكن لأحد منهم الخيرة فى أمر من أموره مادام الشيخ قد قال فيه كلمته ، بل لم يكن لأحد منهم أن يعتقد أن الخير فى غير ما اختاره الشيخ « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » وقد تلا عبد الرحمن هذه الآية ، وهو يذعن لقضاء الشيخ الذى هو من قضاء الله ورسوله ، يذعن لهذا القضاء كارهاً غير مستريح الضمير لأنه يعلم أن ابنته قبيحة الشكل بشعة الصورة وأن الزواج منها كارثة ، وعلى يقول : أو ليس قد أمر الشيخ ؟ فأينا يقدر على أن يختار لنفسه غير ما اختار له الله !

ويبلغ هذا التسلط الروحى فى نفس خالد مبلغاً هائلا ، فقد صرفه عن التفكير فى أى شىء مما يطلب بالزواج ، كانت أمه تشعر بفداحة هذا الزواج وتخشى على ابنها مما سيجابه به من حقيقة عروسه البشعة فجعلت تهيئه لهذه المجابهة فتقول له : ان الجمال فتنة والحسن محنة ، وإنما يلتمس الشاب عند امرأته قرينة تؤنس وحدته ، وأما ترزقه الولد ، ومدبرة

لبيته ، ومربية لبنيه . ولكنه لم يفكر فى جمال ولا ولد ولا منزل ولم يكن يبتغى أنيساً ، وإنما كان يتزوج لأنه ينفذ أمر الشيخ ليس غير ! بل لقد زين زوجته وجملها فى عينه ذلك الإيمان المطلق وذلك الإذعان العجيب . . حتى لقد أحست أمه بالفجيعة فى حسن ذوقه كما أحست بالفجيعة فى عروس ابنها والحرج من تقديمها للناس . .

ويظهر أن الرجال كانوا يتأثرون بالشيخ ويخضعون لسلطانه أكثر من النساء ، لأن الرجال لقربهم منه وملازمتهم له كانوا يقعون تحت تأثير شخصيته الآسرة الجذابة العجيبة ، فقد كانت له أفانين فى إيهامهم أن له قدرة إلهية خارقة . ويقوم هذا الإيهام على ذكائه وألمعيته ولباقته ، فهو يتفرس فى أحدهم حتى يفهم حاله ثم يلقى عليه جملة فيها إشارة وفيها أمر وكثيراً مايكون ذلك نهياً عن منكر أو أمراً بمعروف . نظر مرة إلى خالد وأبيه على وقد ولدت زوجة خالد بنتاً للمرة الثانية ، وكأنه قرأ ما يدور فى نفسيهما من كراهة ولادة الأنثى وتمنى الذكر مكانها ، نظر إليهما الشيخ نظرة فيها كثير من سخرية وتأنيب وهو يقول لهما ، حسنة وأنا سيدك . إن فقراء الترك يقولون هذا لأغنياء المصريين ، فأما أنتما فتقولانه للغنى عن الناس وعن كل شىء . ثم يأمرهما أن يصوما ويدعوا ويطعما أهل الحلقة حتى يعلمهما بأن الله قد تاب عليهما . ويضيف إلى هذا بلباقته : سأعرف ذلك فى وجوهكما .. أقول : إن الرجال كانوا أكثر تأثراً بالشيخ من النساء لأننا نجد ثلاث نسوة ضقن بقضاء الشيخ وجرؤن على إبداء ضيقهن ، أولاهن أم خالد فإنها لم تكد ترى عروس ابنها حتى ارتاعت لقبحها ودمامتها ، واستقبلت زوجها كأسوأ ما يستقبل الزوج وقالت له

فى نفسه وفى شيخه أسوأ ما كان يمكن أن يقال » ولم تذعن للواقع إلا بعد أن أنذرها زوجها بالطلاق ، ثم حزنت ومرضت من جراء هذا الزواج المشئوم الذى أمر به الشيخ، وأعلنته أنها تموت كفارة عن الشيخ! فهى ترى أن الشيخ أذنب وهى تكفر عن ذنبه بحياتها .

وثانية اللائى ضقن بقضاء الشيخ هى أم زوجة خالد ، وذلك عندما وجد الشيخ وظيفة جديدة لخالد فى المدينة النائية ، فقد جزعت لفراق ابنتها ، ولما قيل لها : إنه أمر الشيخ ، أخذها غيظ شديد وقالت : خلوا بينى وبين الشيخ ، فلئن لقيتــه لأغيرن من رأيه ، فإن لم أستطع فسأعصى أمره مجاهرة له بالعصيان . وأما الثالثة فهى زبيدة زوجة سليم، فقد عبرت لزوجها عن سخطها على ما أمر به الشيخ من طلاق خالد لنفيسة وخطبته لمنى ، وقالت : إن نفيسة لم تختر لنفسها القبح ولم تؤذ زوجها فى نفسه ولا فى بيته ولم تدع المرض إلى نفسها، ففيم كان إعراضه عنها ؛ فيم كان هذا الطلاق ، وفيم كانت هذه الخطبة ؟

والمؤلف يعرض لنا شخصية الشيخ عرضاً دقيقاً ، وهى شخصية خيرة فى مجموعها ، ومن صنيع المؤلف فى عرض جانب الخير فيها تصويره لبر الشيخ لأصحابه وعطفه على الفقراء منهم ، ومشاركته للجميع فى مسائلهم والاجتهاد فى حلها . ولـكن وضع الشيخ فى هذا الموضع من أولئك الناس فى ذلك الزمن بحيث يتوهمون فيه القدرة الخارقة والاتصال الإلهى فلا يملكون إزاءه إلا التسليم والانقياد ، لايفكرون فيما يأمر به ولا يختارون لأنفسهم إلا مايختاره ، هذا الوضع هل يقره المؤلف أو ينكره ؟ إن المؤلف لايوحى إلى قارىء القصة بشىء من الإنكار لذلك

الوضع ، غير ذلك البصيص الضئيل الذى يتمثل فى تبرم أولئك النسوة ، وهو ينطفىء قبل أن يكتمل شعاعه ، فأم خالد لاتملك أن تعبر عن سخطها إلا بأنها تكفر عن الشيخ ، وأم زبيدة لاتلبث أن تعتقد أن ماقضى به الشيخ من فراق ابنتها لو لم يكن خيراً ما خطر للشيخ !

وهل يعتقد المؤلف فى كرامات الشيخ ..؟ فهو يورد فى الحديث عنه أمورا غيبية ، فالشيخ فى أكثر أحواله يدرك مايدور فى نفوس أصحابه دون أن ينطقوا به ، ويتحدث إليهم بأشياء من حياتهم يعجبون كيف يعرفها ، بل هم لا يعجبون لأنهم يعتقدون ذلك كرامة له ..

حقاً إن القصة مبنية على ما أدت إليه مشورة الشيخ أو أمره بأن يتزوج خالد نفيسة من ثمرات مرة أثمرتها شجرة البؤس التى غرست فى دار على وما غرسها فى الحقيقة إلا الشيخ ، وهو هدف بعيد يدركه المتأمل المتعمق ، ولكن العرض والسياق لايخدمان هذا الهدف بالإبراز والتصوير الكامل ، فإن القارىء العادى لا ينكر من أمر الشيخ شيئاً ، بل يشعر بأنه شخصية دينية لاغبار عليها .

وأشعر أنى لما أستطع بعد تصوير إعجابى بهذه القصة ، وأشفق على قلمى ألا يستطيع ، فهى نغم متصل من ألفها إلى يائها ، نغم تحس به ، ويستغرقك هذا الإحساس فلاتعنى بما يتألف منه هذا النغم ولا بالبحث عن مصدره ، أيأتى من هذا التحليل الدقيق الذى يتعمق حقائق الأشياء ويتغلغل إلى أطواء النفس ، فيستخلص من هذه وتلك ما يمزجه المؤلف بروحه وإحساسه ، ويصنع منه هذه المتعة الفنية التى يحملها إليك فتنتشى بها ساعة ويبقى أثرها فى نفسك طويلا .

هذا هو خالد الذى نومه مغناطيس الشيخ حينا حتى جعله يرى القبح والدمامة حسناً وجمالا ، هذا هو إنسان يفكر ويقارن ، ثم يستيقظ إحساسه حتى يطغى على دينه وتقواه فتحدثه نفسه فى بعض الأحيان بما تحدث به الشباب نفوسهم من ألوان المتع واللذائذ .

وهذه هى منى السيدة المثالية التى تحنو على ضرتها وعلى بنات ضرتها، وتظل حينا على هذا ، تصدر فيه عن قلب طيب وطبيعة خيرة ، ثم لا تلبث أن ترزق البنات فينقلب إحساسها وتستشعر خصالا فى الإنسان بغيضة عجزت الأديان والحضارة عن إصلاحها .

وهذه لفتة عميقة ظريفة .. إحدى زوجات على تلتوى عليه فيستقر رأيه على أن يفارقها ، والأمر فى التماس الأسباب يسير ، يكفى أن تلقاه متجهمة تحسب تجهمها دلالا ، متنكرة تحسب تنكرها تيها .. ثم يكون مصرع حياتها الزوجية فى هذا التيه والدّلال .

أم يأتى ذلك النغم المتصل فى القصة من هذه اللوحات الرائعة التى يرسمها المؤلف للأشخاص ولمجموعات الناس . هذه لوحة منها نرى فيها نسوة قد اجتمعن فى دار على بقاعة التنور وقد جلست أم رضوان أمام الفرن لتنضج الخبز ، ترقصه على مطرحتها حينا ثم تدفعه إلى التنور دفعاً ، ثم لا تلبث أن تخرجه بغصنها ذاك اليابس من سعف النخل ، وما تزال ترقص رغيفاً وتخرج رغيفاً حتى يرتفع الضحى .. والنساء من حولها يداعبنها ويتلاغطن بأحاديث مختلفة . وتقص عليهن أم رضوان حديثاً عجباً من أحاديث خرافة ، وإن كانت تحلف أنها رأت ما رأت بعينيها .. امرأة من الجن كانت تعيش فى بيت زوجها

الأنسى الذى تزوجته بعد أن تراءت له على أنها إنسية . وكانت أم رضوان تخبز لها كما تخبز الآن فى دار على ، ثم يقبل بعض النساء فيحكين أنهن كن يملأن الجرار فى آخر الليل فسمعن غناء لم يتبين مصدره وهو :

يا ساريات فى السحر　　يسعين فى ضـوء القمر
إذا بدا الصبح الأغر　　فقلن يا نشر الزهر
إن أبا يحي عمر　　أصابه سهم القدر
فهـو صريع محتضر　　هل لك فيه من وطر

وما تسمع أم عثمان (الجنية الزوجة) هذا الشعر حتى تثور ذولولة . فنشر الزهر اسمها الأصلى عند أهلها الجن ، وأبو يحي عمر هو أخوها .. نقضت شعرها ولطمت وجهها ومزقت ثيابها ثم قذفت نفسها فى التنور ، ولم يظهر لها أثر ، فقد ذهبت لتدرك أخاها أبا يحي عمر .. وما سمعت نفيسة (زوجة خالد الأولى) حديث أم رضوان هذا حتى ثارت كالجنية وصنعت صنيعها وأرادت أن تقذف نفسها فى التنور لتذهب إلى أبويها .

أم ترى يأتى هـذا النغم المتصل من هذا الأسلوب الساحر الذى لا يشغلك جماله وموسيقاه عما يحمله إليك من معان وصور وخواطر ، لأنك تشعر أنه وإياها وحدة واحدة . ولأن الـكلمات تندمج فيما تؤديه كما يندمج الممثل المجيد فى دوره .

وطه حسين كجيله من الأدباء يعنى بجزالة اللغة وقوة التركيب ، ولـكن من عبقريته أن يشعرك أنه يؤدى ما يؤديه أداء طبيعياً لا قصد فيه إلى شىء من ذلك ، وهو فعلا ليس فيه شىء من هذا القصد ، ولعلى أدنو من الحقيقة والدقة إذا قلت إنما هو احتفال للحبك وتهيؤ لموسيقى الـكلام .

إنه دائماً يطول ويردد، ونرى هذا التطويل والترديد يعذب ويسحر في بعض كتاباته، ونراه في بعضها مقبولا لا أكثر ، ونراه في بعضها الآخر يبعث بشيء من الملل، ويكون هذا النوع في بعض المقالات التي تملأ فراغاً كبيراً من صحيفة.

وأسلوب المؤلف في هذه القصة من النوع الأول ، ترديد جميل وتكرير حلو . . واحتفال للتجويد يمتد حتى يشمل الحوار، فلا تفريق بينه وبين الوصف والتحليل، فالمؤلف لا يلقي على لسان أحد اللغة التي هي أقرب إلى طبيعته، وهو مع ذلك يسحرك عما تبغيه للحوار من قرب إلى طبيعة الأشخاص. وأنا ممن يميل إلى واقعية الحوار، وأفضل الملاءمة بينها وبين اللغة الفصيحة. ولكن مؤلفنا ينسيني حيناً بسحره ما أميل إليه، ثم يذكرني إياه حين يجعل أحد الأشخاص يقول لصاحبه : وصلتك رحم. أو يقول لصاحبته: أبغيه منديلا يجفف به هذه الدموع . ثم يكاد يفسد على رأيي حين يبعث جمال أسلوبه إلى نفسي هذا المعنى : وهو أن المؤلف يترجم لغة الأشخاص العادية إلى لغته الجزلة ويحسن هذه الترجمة، ولكني أعود فأمسك على نفسي ما أراه، أذكر أني من الفئة التي أكثرت من تذوق الجزالة ، ولا ينبغي أن يطغى هذا التذوق على ما نريده من أهداف.

ومهما يكن من نقد لهذه القصة فهي نغم متصل مطرب مؤثر، يتعاون على تآلفه وانسجامه ما ذكرته كله، وما يضيق المقام بالحديث عنه كله.

# وراء الستار

## يوسف السباعى

العرض :

هذه قصة مسرحية من ثلاثة فصول ، تدور حوادث الفصل الأول فى حجرة رئيس تحرير مجلة العاصفة ، واسمه الأستاذ عزمى ، ويبدأ الفصل بحوار بين رئيس التحرير وبين صاحب المجلة « سعيد بك » فيشكو هذا من سوء حالة المجلة المالية ، على رغم كثرة توزيعها وانتشارها، لما يصادر من أعدادها وما تفقده من الإعلانات الحكومية ، لأنها تعارض الحكومة ، ولكثرة ما ينفقه على التحرير والطبع والتصوير والحفر . . الخ . ويرد عليه عزمى بأن الوزارة فى النزع الأخير ، وأن الحملات التى تشنها المجلة عليها قد زلزلت الأرض من تحتها ، وأن المقالة التى سينشرها هذا الأسبوع ستكون القاضية عليها .

ثم يطلب صاحب المجلة من رئيس التحرير أن يغير سياسته ويهادن الوزارة ، فيقول له الثانى : أنفعل ذلك بعد أن وصلنا إلى الجولة الأخيرة وماذا يقول عنا الجمهور ؟ يقول : إننا قبضنا وإننا نحن الذين نهاجم الصحف المأجورة قد استؤجرنا .

وسعيد لا يقتنع بهذا الكلام ، فلا يهمه إلا المال ، ولذلك لم يقنعه

إلا انتظار استقالة الوزارة ، فيقول لعزمى : سأعطيك فرصة أسبوع ، فإذا لم ينته أجل الوزارة كما تتوقع فلا بد أن تصلح سياستك وتهادن الحكومة ، وتفعل كما تفعل مجلات دار البهلوان . . ويرد عزمى قائلا : إخص . . أشرف عندى أن تخرجها قصصية أدبية فنية اجتماعية كما تقول من أن نتبع سياسة البهلوان كما تفعل دار البهلوان التى تنقد الوزارة فى صفحة وتقبل أيديها فى الصفحة الأخرى .

ثم يدخل سكرتير التحرير « الأستاذ أمين » وهو يحمل بروفات مقالات وصور ماكيت المجلة ويدور بينهم حديث يعطى فكرة عن طريقة المجلة فى محاربة الوزارة ، فعزمى يقول لأمين : اجعل العنوان « استقالة الوزارة » بخط عريض على عرض الصفحة ، وتحتها بخط صغير : « توقع حدوثها بين لحظة وأخرى » ثم بخط عريض : لارتكابها مخالفات دستورية خطيرة » .

ويهم سعيد بالخروج ، ولكن الآنسة سهام النجمة السينمائية تدخل . . فيعدل عن الخروج ، ثم تبدى سهام غضبها مما نشر عنها فى المجلة بصدد نقد فيلم ظهرت فيه ، إذ قال ناقد الفيلم : إن الآنسة سهام إذا كان لا بد لها من استغلال مواهب جسدها فلتشتغل فى ميدان آخر . . . ويستدعى الناقد فيحضر ويقول : إن صاحب المجلة هو الذى أمر بأن يهاجم الفيلم لأن المجلة حرمت من إعلاناته . . أما الآنسة سهام فإنه سيعوضها خيرا . . بأن ينشر لها حديثاً من أحاديث « جاهزة » عنده ، وموضوعه « كيف بدأت حياتى الفنية » ولما تقول له : لا داعى لهذا الموضوع ، يطمئنها بأنه مكتوب كما يجب وأنه يشرح جيداً كيف هويت الفن

وهربت من المير دى دييه . . رغم أنف أبيها عبد السميع باشا . .

وبعد ذلك يدخل سكرتير التحرير ويطلب منه رئيس التحرير أن ينشر أخبارا لفقها بحيث تدل على تغيير وزارى وشيك الوقوع وتوحى بأن صالح باشا رئيس حزب الشعلة الذى تناصره المجلة هو الذى سيتولى الوزارة القادمة ويشمل الحديث الذى يتناول مواد العدد وترتيبها مهازل كثيرة مما تزاوله الصحافة ، فهذا موضوع عنوانه « الزوج يقفز عارياً من نافذة العشيقة والزوجة تطارده بالرصاص على قارعة الطريق » وهو يتضمن حادثة مشينة وقعت بين رجل معروف وفنانة معروفة وقد أطلق فيه الكاتب العنان للخيال والتلفيق . . والكاتب هو الأستاذ خالد المحرر الناشىء الذى حاول أن يكتب ويقدم للمجلة شيئاً ذا قيمة ، ولكن كل ما كتبه كان مآله سلة المهملات ، فاضطر إلى أن يجارى الطريقة الصحفية المعروفة التى تعتمد على الغرابة وإثارة القراء . .

ثم يدخل عبد الحميد بك سكرتير حزب الشعلة ، ويجرى الحديث بينه وبين عزمى — بعد خروج الجميع — عن الموقف السياسى ، وينهى عبد الحميد إلى عزمى أن لديه فضيحة سياسية هى أن بعض الوزراء مشتركون فى شركة كبرى للمقاولات رسا عليها العطاء فى القيام بإحدى العمليات الكبيرة : وأنه حصل على صورة العقد المبرم مع الشركة ، ولكن المسألة تحتاج إلى التروى . . لأن العقد يضم غير الوزراء الحاليين وزراء سابقين من حزب الشعلة ويهون عزمى الأمر بأن يحذف أسماء أعضاء الحزب وينشر فقط أسماء الوزراء وكل ما سيحدث أن تصدر الوزارة والشركة تكذيباً شاملا . . والناس لن يصدقوا التكذيب . .

ثم يدق التليفون ويتحدث صالح باشا رئيس حزب الشعلة بأن الوزارة سقطت وأنه دعى لتأليف الوزارة الجديدة ويخرج عبد الحميد وعزمى قاصدين إلى دار الحزب ، وتدخل الآنسة علية ، وهى محررة بالمجلة ، فيدور الحوار بين خالد وعلية اللذين خلا لهما الجو . . ويحدثها عن آلامه فى العمل الصحفى من حيث عدم تقدير كتابته وموضوعاته الجيدة ، واضطراره إلى مجاراتهم فى السخف والتفاهة والإثارة ، التى يقولون : إنها تعجب القراء ، وذلك ليكسب ما يعيش به . فتهون عليه الأمر وتحثه على المثابرة وتطرى كتابته وتتوقع له مستقبلا ناجحاً ، وينتهز الفرصة فيقول لها : إن من آماله أن تكون هى شريكة لحياته لأنه يحبها ، ولكنه مجرد أمل من الآمال التى تداعب نفسه ، ومع ذلك يجده مطلباً مستعصيا والحصول عليه أمرا متعذرا ويسترسل معها فى هذا الحديث بلباقة ، إذ يمزج كلامه عن آلامه وآماله بشىء من الغزل ويعرب لها عن حبه الصادق ، ويستدرجها حتى تلمح على أنها تبادله الحب . وأخيرا يتفقان على أن ينشر مايكتبه باسمها ، وخاصة لأن الأستاذ عزمى يرحب بكتابتها ويسارع إلى نشره ، وهنا يقول خالد :

ــ لأنه يحبك . .

ــ دعنا من مسألة الحب الآن .. المهم أنه يقرأ لى بسهولة .. وينشر لى بسهولة . ثم تقول له : إن كل ماسأفعله هو أن أتيح لكتابتك الظهور وبعد ذلك أتخلى وأجعلها تتقدم وفى الوقت المناسب أفصح عن الحقيقة .

ويقع الفصل الثانى فى دار حزب الشعلة ، حيث نرى عبد الحميد بك سكرتير الحزب يتلقى الأحاديث بالتليفون من الأعضاء الذين يبدون

رغباتهم فى تولى وزارات معينة فعلى باشا يطلب وزارة المواصلات لأجل التصريح المجانى بركوب القطارات مدى الحياة .. وصالح باشا رئيس الحزب يطلب تعيين أبو سالم باشا لوزارة الحربية لأن « الست صديقة الست ! » و . . . و . . . ألخ

وعزمى يناقش عبد الحميد فى برنامج للوزارة ، يرى وضعه وإذاعته على الشعب ، يتضمن إصدار قانون تحديد الملكية .. فيقول له :

— لا يا سى عزمى أرجوك ، لا داعى لهذا التوريط .

— أهذا توريط ؟ أنت نفسك كتبت مقالا عندى منذ أسبوع مناديا بهذا .

— مقالات الشارع شيء وأفعال الحكام شيء آخر ، الأولى للاستهلاك الشعبي إذا كتبتها المعارضة ارتفعت إلى الحكم وإذا فعلها الحكام هبطوا إلى الشارع .

ويقبل رئيس الحزب ، وتزدحم الدار بالصحفيين والمصورين والأتباع ويبايع العمال « دولة الباشا » بالزعامة مدى الحياة . . . ولما كانوا قد بايعوا من قبله كذلك مدى الحياة ، فالمقصود بالحياة حياة الوزارة :

وعند المناقشة فى تشكيل الوزارة يقول رئيس الحزب : إن الذى سيتولى وزارة المالية دكتور فى الاقتصاد اسمه الدكتور زعتر « أخبرونى أنه وحده الذى يستطيع إنقاذ ميزانية البلد » .

عبد الحميد : من الذى أخبرك ؟

صالح : الست . . إنه متزوج من بنت خالة أمها !

ويبحثون فى دفتر التليفون عن رقم الدكتور زعتر، ويتصلون بطبيب ولادة بهذا الاسم ، ويقال له : « إن الجماعة سقطوا وإنه مطلوب على وجه السرعة » فيحضر ويقابل صالح باشا . . ثم يتضح أمر الالتباس فيرجع الطبيب لحاله .

ثم يصدر مرسوم تأليف الوزارة وفيه الدكتور زعتر وزيرا للمالية وعلى الأثر يتوفى الدكتور زعتر « الأصلى » زوج قريبة الست . . . فيحتارون ماذا يفعلون وهم يرون أن الظروف لا تلائم تعديل الوزارة وخاصة فى أول تشكيلها ، فتطرأ لصالح باشا فكرة لحل الموقف . . . . يستدعى الدكتور زعتر طبيب الولادة وتسند إليه وزارة المالية على أنه المقصود فى المرسوم . . وبذلك ينقذ الوزارة فى حال ولادتها !

ويتساءل عزمى : ولكن ماذا سيفعل طبيب الولادة فى المالية ؟

فيرد عليه صالح : يفعل كما فعل غيره .. يلخبط كما نلخبط .. لاتحمل همه . . ستكتب عنه الصحف أنه أكفأ وزير تولى المالية حتى الآن !

أما الفصل الثالث فيقع بعد ستة أشهر من تأليف الوزارة بمكتب الأستاذ عزمى رئيس تحرير مجلة العاصفة ، حيث نرى هذا مع « رزق » رسام المجلة ، يتناقشان فى موضوعات لصور العدد ، ونفهم من هذه الموضوعات أن المجلة اتخذت موقف المعارضة من الوزارة ، ثم يثنى عزمى على الصورة التى رسمها رزق لقصة العدد الماضى ، فيقول له رزق : الحقيقة أنى رسمتها بقلبى لأن القصة نفسها كانت رائعة .

والقصة الرائعة هى من القصص التى يكتبها خالد وتنشر باسم علية ، ومن حديث عزمى ورزق نعلم أن هذه القصص والموضوعات الأخرى التى تنشر باسم علية نالت الإعجاب وأحدثت ضجة كبيرة ورفعت توزيع المجلة ثم تدخل علية ، ويجرى بين الثلاثة حديث عن كتابتها ، ثم يخرج رزق ويدور بين عزمى وعلية حوار شبه عاطفى ينتهى بأن يبدى هو رغبته فى زواجها ، فتبدى هى دهشتها لهذه الرغبة وتطلب منه فرصة للتفكير ، فيمهلها أسبوعاً ويدخل خالد ، ثم يخرج عزمى ، ويسأل خالد علية عما كانا يتحدثان فيه ، فتجيبه بالحقيقة ، فيقول لها :

— وعلام التفكير . . إن كفته راجحة .

— راجحة عن ماذا ؟

— عن أية كفة أخرى ؟

— المسألة تتوقف على طبيعة المقاييس .

— بكل المقاييس هو الراجح .

— من أدراك ؟

ويستمر الحديث حتى يبدى خالد غضبه ويأسه من العمل بالصحافة ، وينتهى المشهد بخروجه غاضباً إلى غرفة سكرتير التحرير وخروجها وراءه . ويدخل عزمى ويدور بينه وبين بعض المحررين حديث فى مواد العدد وترتيبها بالصفحات ، وحديث فى نقد الأفلام بمناسبة دخول سهام ودعوتها عزمى إلى مشاهدة العرض الأول لفيلمها الجديد .

ثم يأتى سعيد بك صاحب المجلة ، وينفرد بالأستاذ عزمى رئيس

التحرير ويقول الأول للثانى : إن عبد الحميد بك سكرتير حزب الشعلة وأحد الوزراء اتصل به تليفونياً ، ثم زاره فى منزله وقال له : إنك تسخر صحيفتك لأغراض عزمى ، وأنه يعرض نفسه وصحيفته لسخط الحكومة بلا أى مبرر ، ثم طلب منه أن يوقف حملات المجلة ويكبح جماح عزمى ، فإذا لم يوافق عزمى فإن لسعيد أن يختار أى كاتب آخر من كبار الكتاب يحل محله ويدفعون هم أجره ، بل ينفقون على المجلة جميعها . هذا غير الإعلانات الحكومية وزيادة حصة الورق .. الخ . وأخيراً قال عبدالحميد لسعيد : إن هناك تفكيراً فى إصدار تشريع جديد لتعطيل الصحف أو إغلاقها نهائياً . .

ولكن عزمى لا يوافق ، بل يثور ويبدى عزمه على الاستمرار فى الهجوم على الوزارة وتسديد الضربات إليها حتى يقضى عليها . ويهبط عزمى إلى المطبعة ، ويظل سعيد فى المكتب قلقاً مفكراً ، ثم ينتهى إلى أن يكتب خطاباً لعزمى بالاستغناء عن خدماته . . . ثم يدق التليفون ويطلب عزمى فيستدعى عزمى من المطبعة ويرد على التليفون ، فإذا المتكلم ، مظهر باشا ، وإذا هو ينهى إلى عزمى أن الوزارة سقطت وأنه كلف بتأليف وزارة مستقلة ، وأنه يختار عزمى وزيراً للتجارة ، فيذهل سعيد ويمزق خطاب الاستغناء بسرعة ويقول :

- مبروك يا عزمى بك . . مبروك يا معالى الوزير . . نهنىء أنفسنا . . هذا فوز لنا جميعاً . . هذه فرصة لتنفيذ مشروعاتك التى طالما ناديت بها . . إلى أن يقول له : أما عن رئيس التحرير فمينه ، أنت بمعرفتك ، اختر من تشاء .

ويدخل المحررون وفى جملتهم خالد وعلية ، ويهنئون عزمى ، ويقول عزمى لعلية : إنه لا يزال فى انتظار الرد . . فتقول :

علية : لا داعى للانتظار . .

عزمى : هل عقدت النية سريعاً ؟

خالد فى ( مرارة ) : الظروف الجديدة قد رجحت الكفة ، ولم يعد هناك داع للتفكير أو الانتظار . .

علية : ( كأنها لم تسمع كلام خالد ) أجل قد عقدت النية . .

عزمى : على الموافقة ؟

علية : لا . . على الرفض .

وتبدو الدهشة على عزمى ، ويشعر بالخيبة ، ولكنه يتمالك وينظر إلى خالد قائلا لعلية : إنه يستحق اختيارك . . ولقد خـــلا مكانى فى الجريدة ولست أجد من يملؤه غير خالد ، ويستطيع أن يكتب من اليوم باسمه . . إلى أن يقول : إنه كان يعرف كل شىء . . .

وعندما يأخذ خالد مكانه إلى مكتب رئيس التحرير تقبل عليه علية باسمة مهنئة ، وتسأله عما سيكون موقفه من آرائه التى سبق أن حدثها بها والتى تتلخص فى ضرورة العناية بالإصلاح الداخلى ، وترك الكلمات التى يتجر بها الوزراء والصحفيون ، من مثل « الجلاء والوحدة والمطالب القومية » فيرد عليها بأنه سيسير مع الركب ويصيح مع الصائحين ويهتف مع الهاتفين ، ويقول : لا بد أن أكون حمارا مع الحمير حتى لا أتهم بالخيانة أو الجنون . . .

ثم يسدل الستار على الحبيبين وهما فى قبلة الختام .

النقد :

ليست هذه القصة « وراء الستار » أحسن قصة أعجبتني للأستاذ يوسف السباعي ، فقصة « السقا مات » قصة إنسانية نابضة بلغ فيها الغاية في تصوير الأشخاص وبيئاتهم ، وفي قصة « أرض النفاق » نقد صريح جرىء للمجتمع في هيكل خيالي طريف ، وفيها ينطلق المؤلف على سجيته الخالصة من النفاق . .

والانطلاق على السجية أبرز ما يلاحظ في كتابة يوسف السباعي على وجه العموم ، وأعتقد أنه عندما يكتب ينطلق في الكتابة كأنه يحدث صديقاً لا كلفة بينه وبينه ، فهو يتحرر من القيود التي يتقيد بها كثير من الكتاب كأن القلم في أيديهم حاجز بينهم وبين الحياة الطبيعية المتحررة .

وذلك الانطلاق الملحوظ في كتابة يوسف يؤدي حتما إلى النقد الصريح والشديد ، ولست أدري كيف غفل عنه زبانية العهود الماضية وأقطابها وقد سلقهم في رواياته سلقا ؟ أغلب الظن أنهم لا يقرأون قصصا ، ولو أن شيئاً من ذلك كتب في مقالات بالصحف لنال صاحبنا منه شر وأذى ، ولكن الله سلم .

آثرت « وراء الستار » بالتقديم في هذه السلسلة دون غيرها مما أعجبني من قصص يوسف لأنني انفعلت بموضوعها انفعالا شديدا ، وهو موضوع الصحافة والصحفيين في بلادنا ، وقد سلط المؤلف الضوء على من يرسلون أو من يفترض أنهم يرسلون الضوء على الأشياء ، ولست أدري هنا أيضاً لماذا سلم من ثورة الصحفيين عليه ، ولكنني أدرى أنهم كذلك

لا يقرأون قصصاً ولا كتباً على العموم ، والدليل على هذا أنهم ثاروا على الأستاذ محمود تيمور عندما مثلت مسرحيته « المزيفون » التى تناولهم فيها بالنقد ، لأنهم دعوا إلى مشاهدة المسرحية ، ولو أنها لم تمثل ما علموا بها كما لم يعلموا بأخت لها من قبل هى « وراء الستار » .

انفعلت بهذا الموضوع انفعالا شديداً ، لأننى لابستجوه ، وبلوت المر من ثمره ، فعرفت ما وراء كواليس الصحافة ، ولم أستطع أن أوفق بينها وبين أى اتجاه موضوعى أقصد إليه ، كنت مثل خالد من بعض الوجوه .

وضع المؤلف الصحافة على مشرحة قصته هذه ، وسلط الضوء على مواطن الداء فيها ، وقدم لنا من الصحفيين نماذج لاتزال بيننا حية ترزق .

ويحدثنا على لسان سكرتير التحرير قائلا :

نحن لا ننشر ما يحدث ولكن ننشر ما يرضى .. يرضى القارىء أو الكاتب أو الحكومة أو المعارضة . يرضى أى شىء غير الحقيقة .. الصحافة الحديثة .. صحافة المانشت الأحمر .. وعناوين الحائط ..

ويقول خالد : « لقد كتبت الواقعة على حقيقتها ولكنها دشتت ولم تلق أى عناية .. لم يجدوا فيها شيئاً يثير .. قالوا لى : إنها أشياء عادية تحدث دائماً .. وإن عنصر الإثارة والتجديد غير متوفر .. فلم يسعنى إلا أن أكتبها كما سمعتموها .. وقد حازت القبول فعلا .. فإما أن تكتب الحق فلا ينشر .. وإما أن تكتب ما يرضى الجمهور والصحافة من التهريج والاختلاق والافتراء » .

وفى حديث خالد مع علية عن متاعبه فى الصحافة يقول : إنه سلك

الطريق الصحيح وكتب آراءه الحرة فى مختلف النواحى ، ولكنهم لم يلتفتوا إليه ولم يعنوا بقراءة ما كتبه ، فحاول أن يسلك سبيلهم وأمعن فى الريبورتاجات المصورة .. أو التفاهات المصورة .. قالوا له : سنحاسبك بالقطعة .. فوجد أن من الغباء أن يضيع وقته فى ريبورتاج نظيف دسم لا يعجب أى حمار من المتحكمين فى المجلة .. ولم يجد بداً من أن ينتج لهم ما يريدون من التفاهات والمبالغات والتلفيقات ..

والمؤلف يصور شخصية صاحب المجلة على أنه رجل مالى فقط لا يهمه مبدأ ولا مصلحة عامة ، وهذا النوع من الصحفيين أمره واضح صريح . ولكن الأخطر من هذا هو ذلك الطراز الذى تعبر عنه شخصية عزمى رئيس التحرير ، لأنه الموجه إلى التفاهات والمثيرات ، فهو المسئول عن إفساد الأذواق ، وصنع القارىء التافه ، ومن خطورته أنه يبدو كأنه صاحب رسالة وطنية ، وما هو فى الحقيقة إلا هاوى مصارعة سياسية ، يهوى الحملات وإسقاط الوزارات ، ويتخذ لذلك وسائل شتى من التهريج والتمويه وتدبير الفضائح وتأليف الأخبار الوهمية الموهمة .. فهو مثلا يكتب النبأ الآتى : تحت عنوان « لقاء هام » .

« التقى صالح باشا رئيس حزب الشعلة بكبير فى نادى محمد على ودامت بين الاثنين مشاورات هامة تتعلق بالموقف الراهن .. وسيتمخض اللقاء عن تطورات خطيرة فى الحالة السياسية » .

يكتب ذلك الذى لم يحدث ليوهم الناس أن الرجل الذى يناصره سيكلف بتأليف الوزارة ...

كان ذلك يحدث فى صحافتنا ، ولا تزال صحافتنا هى هى ، ولا يزال فيها

« عزميون » كثيرون . . . ولم يتغير إلا ما اقتضاه التغيير فى الحكم من نفاق . . والفضيلة الفذة . . هى القدرة الخارقة على منافسة الحرباء فى التقلب . . وما حدث فى أوائل سنة ١٩٥٤ حين أعلن العزم على إنهاء فترة الانتقال ، يعطينا فكرة عن ما ـ لا من ـ عندنا من صحفيين قديرين على أشياء كثيرة . .

ولا تزال الصحف ـ إلا القليل ـ فى تفاهاتها وإثاراتها وسخافاتها ، كما كشف عنها يوسف السباعى فأظهر ما وراء الستار . . . ولا يزالون يقولون : إن القراء يريدون . . . وهناك أشياء كثيرة يريدها كثير من الناس ، كالحشيش ومباءات الفجور ، ويقبلون على ما يتاح لهم منها كما يقبل القراء على تلك الصحف . . سواء بسواء . .

وقد تناول المؤلف بالنقد ـ عدا الصحافة ـ الأحزاب السياسية ، وبقدر ما نأسف لاستمرار تفاهات الصحافة وبهلوانياتها التى كشف عنها المؤلف الستار ، نشعر بالارتياح الشديد لزوال الأحزاب وانتهاء مهازلها . . .

وتناول نقده نواحى أخرى كالأفلام والإذاعة وغيرها ، وساق كل ذلك مساقا فنياً يتوافر فيه الإمتاع الأدبى والتشويق المسرحى إلى جانب ما التزمه وانطلق إليه من أهداف واتجاه نحو المجتمع . فهذه المسرحية من النوادر التى تجمع بين الموضوع الملتزم ، والتصوير الفنى الذى تمس ريشته أصلب الأشياء فتحيله إلى شىء لا أجد له اسما أدق من « الفن » . والموضع الوحيد الذى رأيته يستعصى على هذه الريشة هو المناقشة

السياسية الإصلاحية الطويلة التى دارت بين خالد وعلية حول الجلاء والوحدة والإصلاح الداخلى .

فنحن لا نرى الحبيبين كما تقتضى أصول الحب ينتهزان الخلوة فيتبادلان الأحاديث العاطفية ، ولكننا نسمعهما فى مناظرة سياسية خشنة تطول حتى تمل . وأنا لا أمانع فى أن يجىء شىء قليـــل من السياسة أو غيرها فى حـديث محبين ، ولكننا نرى المؤلف فى هذا الموقف قد اعتدى على وقتهما الثمين وتقمص شخصية خالد ، وراح يلقى آراءه على لسانه فى السياسة والإصلاح .

صور المؤلف شخصية عزمى ، كصحفى سياسى مصارع ، تصويراً دقيقاً موفقاً . ولكن هذا التوفيق لم يصاحبه فى تصوير علاقة عزمى بعلية ، فهو يقول أولا : إنه يحبها ، ثم نرى المحب فى النهاية يسلم حبيبته إلى غيره فى غاية البساطة كأنها شىء عادى يهديه إليـه . . والمفروض أنه فاتحها برغبته فى زواجها بعد أن تعلقت بها مشاعره ، فكيف ينزل عنها لغيره هكذا كما ينزل عن قلم أو كتاب . . ؟

ونرى علية — فى حديث بينها وبين عزمى — تمد له الحبل بطريقة يفهم منها القارىء أو السامع أن الحديث سيؤدى إلى أن تبادله الحب . . وهو حديث طويل فيه رقة وحسن تصوير ، ولكنه لا يتفق مع النتيجة ، ومع تعلق علية وارتباطها بحب خالد .

تناولت القصة كثيراً من دقائق العمل الصحفى تناولا يدل على دراية المؤلف بهذه الدقائق ، ولكن الموضوع الذى كتبه خالد عن الزوج الذى طاردته زوجته بالمسدس ، بدأ الحديث عنه على أنه من حوادث البوليس

والمحاكم ، ثم تبين أن بطل الحادث هو صاحب المجلة وأن كل ما حدث هو أنه كان فى زيارة سهام بمنزلها فعلمت زوجته ، فأسرعت إلى المنزل ، فلما أحس بها تسلل هابطاً من سلم الخدم ثم عادت الزوجة مطمئنة بعد أن فهمت أن ما بلغها غير صحيح ، فلم يصل الأمر إلى البوليس والمحاكم . والمعروف أن الحوادث التى تنشر هى التى تبلغ أو تضبط ، ثم نراهم يتحدثون عن الموضوع نفســـه على أنه مقالة من المقالات التى يكتبها خالد ، فالموضوع لا هو من الحوادث ولا هو يصح أن يسمى مقالة ، فما هو إذن ؟

قلت : إن أبرز ما يلاحظ فى كتابة يوسف السباعى « الانطلاق على السجية » وهو بذلك ينطلق متدفقاً فى أسلوبه ولغته ، كما يتدفق فى صوره وخواطره وأفكاره ، وله فى هذه كثير مما ينطبق عليه القول المأثور « عفو الرأى خير من استكراه الفكرة » .

وهو بذلك ينتج كثيرا ، وقد أخذ عليه بعض النقاد هذا الإكثار ، ذاهبين إلى أنه لو تمهل لكان إنتاجه أحسن ، وأنا أرى أن تمهله لا يحسن النوع ، وإنما يقلل الكمية فقط ، بل قد تقل بالتمهل درجة النوع .. لأنه هو هكذا خلق .. وهل يمشى القطار أحسن إذا كف عن الإسراع .. ؟

وهو بذلك أيضاً ينطلق فى أسلوبه ولغته كما ذكرت . إنه يكتب بقريحة متدفقة فيأتى أســـلوبه طبيعياً مرحا منطلقاً فيه عذوبة المرح والانطلاق ، ومن مقتضيات ذلك ألا يقف عند كلمة ليعرف هل هى صحيحة أو غير صحيحة من جهة اللغه والقواعد ، ولهذا تكثر فى كتاباته

المخالفات . . وينظر إليه « قلم مرور اللغة » شزرا وهو مغيظ محنق . .

ولا شك أن لغة يوسف فى كتابته عربية عذبة فصيحة ، وإن كانت غير سليمة لوقوع تلك المخالفات التى يصر عليها وتأبى صراحته وطبيعته أن يعهد إلى المصحح فى إزالتها كما يصنع بعض الكتاب ، لأنه يريد أن يبدو كما هو ، ولا حيلة ولا قدرة لأحد على أن يغيره ، بل هو يريد أن يغير اللغة لتكون كما يكتب ، وأنا وإن كنت أوافقه فى دعوته إلى الإصلاح اللغوى إلا أنى أرى أن نكتب جميعاً وفقا لقواعد موحدة فلا تغير كتابتنا إلا على أسس جديدة متفق عليها .

# عودة الروح
## توفيق الحكيم

العرض :

البطل الأول لقصة «عودة الروح» فتى فى الخامسة عشرة من عمره طالب فى السنة الثانية الثانوية التى يمتحن فى نهايتها للحصول على شهادة «الكفاءة» إذ كان ذلك فى الفترة التى قبل ثورة سنة ١٩١٩ ، ويقيم هذا الفتى ، واسمه محسن ، مع أعمامه وعمته بالقاهرة ، وأصلهم جميعا من دمنهور . ومحسن أصغر أفراد هذا «الشعب» كما أطلقوا على أنفسهم ، وأكبرهم عمه حنفى أفندى المدرس بمدرسة خليل أغا ، والباقون عبده أخو حنفى وهو طالب بمدرسة الهندسة العليا ، واليوزباشى سليم ابن عم حنفى وعبده ، وهو ضابط بوليس موقوف عن العمل لاقتحامه منزل سيدة كان يغازلها ، وزنوبة أخت حنفى وعبده وعمة محسن وهى تقوم بإدارة المنزل ، ثم مبروك الخادم الذى كانوا يعتبرونه فى منزلة فوق الخدم لنشأته معهم .

كان الشعب يسكن فى شقة بشارع سلامة بحى السيدة زينب ، وكانوا — ما عدا زنوبة — ينامون فى حجرة واحدة ، اصطفت فيها خمسة أسرة ، أربعة منها «عيار بوصة وربع» والخامس مائدة خشبية توضع نهارا فى الصالة للطعام ، وتدخل حجرة النوم ليلا لينام عليها مبروك .

وهم يعيشون عيشة متقشفة يسودها المرح ، تخفف دعاباتهم وما بينهم من مودة وتضامن ، شظف عيشهم ومأكلهم الخشن ، بل إن تلك الروح تحيل هذا الشظف إلى ما يشبه النعيم والسعادة . ومحسن يحب الحياة مع « الشعب » على تقشفها ، وإن كانت ظروفه المالية تختلف عن أعمامه ، إذ كان أبوه غنياً من جهة أمه لأنه أخو حنفى وعبده وزنوبة من الأب فقط .

وذات يوم يقبل مبروك على الشعب وهو « يغمز » بعينيه مشيرا إلى حجرة زنوبة قائلا : إن عندها ضيوفا ، وفيهن « ضيفة » .. فهرع الشعب إلى باب الحجرة يتضاحكون بصوت خفيض ويتدافعون بالمناكب على ثقب الباب . . وبهتوا إذ رأوا فتاة رائعة الجمال ، هى سنية الطالبة بمدرسة البنات الثانوية وابنة الدكتور حلمى قاطن المنزل المجاور لمنزلهم ، ثم كان لكل منهم معها شأن ، وكان شأن حنفى « رئيس الشرف » أيسر من شئونهم جميعاً ، فهو رجل فارغ القلب لا يهمه إلا النوم العميق ، فاكتفى بمشاركتهم الدعابات ، يفرح لفوزهم فيما قاموا به من مغامرات ، ويأسى لأساهم ، ويليه فى أهمية الشأن أو ضآلته مبروك الخادم الذى كان يتأنق ويلبس « قفطان الطلعة » عندما ترسله زنوبة لأى أمر إلى منزل سنية ، ولم يزد على ذلك إلا أن اشترى نظارة لما قالت له سنية : إنه يشبه عمدة بلدهم بهذا القفطان غير أن العمدة كان يلبس نظارة . .

أما الذين وقعوا فى حب الفتاة حقا، فهم محسن وعبده وسليم . وكان لكل من الثلاثة دور مع سنية ، بعد تكرر التطلع إليها من ثقب الباب بحجرة زنوبة كلما أتت لزيارتها .

وكان أقصر الأدوار دور عبده ، وذلك عندما انقطع سلك الكهرباء في منزل الدكتور حلمى فاقترحت زنوبة أن يذهب عبده لإصلاحه بصفته مهندساً ولا حاجة إلى عامل من عمال الشركة وإحداث ضجة من أجل شيء « بسيط » فذهب عبده مسرعاً مبتهجاً متأنقاً ما وسعه التأنق ، ورئيس الشرف حنفى أفندى يودعه ممازحا قائلا . . مش لازم لك صبى . .

وتخايلت سنية لعبده من وراء باب موارب والتقت أعينهما ، ونفذت سهام عينيها إلى صميم فؤاده .

ولجأ اليوزباشى سليم فى أول الأمر إلى قهوة الحاج شحاتة المواجهة لشرفة سنية ، وعبثا حاول رؤيتها من الشرفة الخشبية المغلقة ، وكان يجلس على كرسى أمام القهوة متظاهراً بالعظمة والسلطة العسكرية عساه أن يسترعى انتباهها . ثم جاءت فرصته عندما قالت زنوبة : إن بيانو الجيران به بعض الخلل وإنها وعدت سنية أن تسأل لها سليم عن محل لإصلاح البيانو ، باعتبار أن سليم يملك آلة موسيقية تشبه البيانو وهى الهارمونيكا. ونهض سليم واقفاً مصراً على معاينة البيانو . . وذهب إليه ، ورئيس الشرف يتنحنح قائلا له :

— مبارك !

— نعم ياسى حنفى . . . !

— ولا حاجة . . بس . . مش لازم لك صبى ! دا بيانو مش حتة سلك . !

وعاين سليم البيانو ، واستدرج سنية ملحا حتى حملها على أن تعزف أمامه ليعرف موضع الخلل . وراح يتأملها وهى تعزف . . واقتضى الأمر

أو أن سليم جهله يقتضى ، أن يتردد على منزل الجيران لتفقد البيانو .
وبعد أن تم إصلاح البيانو لم يجد وسيلة للاتصال ، فكتب لسنية رسالة غرامية وقعت فى يد والدها فردها إليه فى ظرف بعنوانه دون تعليق .

أما محسن ، البطل الأول للقصة ، فقد كانت قصته مع سنية هى محور القصة ، وقد بينت فى كتاب « غرام الأدباء » أن محسن هو المؤلف صغيراً . .

بدأ اتصال محسن بسنية قبل إصلاح السلك وإصلاح البيانو ، إذ ذهب إلى منزل الجيران مع عمته زنوبة ، وشفع له الصغر عند والدتها فى أن تقابله . وكان يحسن الغناء على طريقة عبده الحامولى أخذا عن أستاذته الأولى فى الموسيقى والطرب « لبيبة شخلع العالمة » وأعجبت سنية ووالدتها بغنائه . وتم الاتفاق على أن تعلمه العزف على البيانو ويعلمها الغناء . وراح يتردد عليهم لهذا الغرض فى الظاهر ، وكان فى الباطن قد غرق «لشوشته» فى حب سنية.وما كان أشد امتعاضه وتضايقه عندما ذهب عبده لإصلاح السلك ، وسليم لإصلاح البيانو.وكدر التنافس بين الثلاثة صفو المودة بينهم بعض الوقت .

وجاءت أجازة نصف السنة ، واضطر محسن على رغمه أن يسافر لقضائها عند أهله فى دمنهور . وقبل السفر أراد أن يودع سنية وأن يفصح لها عن عاطفته ولم يكن قد فعل لشدة حيائه . وكل ما استطاع أن يقوله لها هو : إنه حزين لأنه مسافر . وسألته سنية : لماذا ! فلم يجب إلا بالدموع التى مسحتها له بمنديلها الحريرى ، وانتهى الموقف وهو

يرتجف ويحاول أن يخرج عن جموده وحيائه عندما عادت أم سنية من الخارج ، فسلم وودع .

وسافر محسن إلى بلده وهو مفعم النفس بشتى الانفعالات والخواطر . وكان يتعزى بأنه سيتلقى من عمته خطاباً تكتبه لها سنية بخطها كما قالت العمة التي لا تعرف القراءة والكتابة . وانتظر هذا الخطاب قلقا مشتاقاً حتى ورد إليه في أسلوب ركيك مبتذل ، ولكنه فرح به وفسر ركاكته بأن سنية كتبته مناسبا لحال المرسلة الأمية . واحتفظ بهذا الخطاب وجعل يعيد قراءته مراراً منتشيا به على اعتبار أن سنية تخاطبه من وراء ستار زنوبة . .

ثم رجع إلى القاهرة محملاً بالهدايا الريفية وقد زادها في هذا العام ليهدى منها إلى سنية . ولكن القلق يداخله عندما يرى وجوم «الشعب» ويرى شمس استقبالهم له تكافح سحابا في الجو ، ولا يلبث أن يعلم نبأ الانقلاب الكبير الذى حدث . .

يسكن فى الشقة التي تحت شقتهم شاب عزب وسيم كانت زنوبة تعمل على جذب نظره إليها بمختلف الوسائل عساه أن يكون ابن الحلال الذى ينقذها من العنوسة . . ولكن عاطفة حبه اتجهت إلى سنية . وثارت ثائرة زنوبة فتشاجرت مع سنية وذهبت إلى « عرضحالجى » فى ميدان السيدة زينب ، فكتب لها خطابين : الأول إلى الدكتور حلمى توجه نظره إلى علاقة ابنته بمصطفى ، وهو ذلك الشاب ، ويحدث هذا الخطاب زوبعة فى منزل الدكتور حلمى تنتهى بتفطنهم إلى أنه خطاب كيدى من

زنوبة الشريرة . أما الخطاب الثانى فقد كتبه « العرضحالجى » إلى محسن متضمنا شوق عمته فقط . .

يئس الشعب من حب سنية التى ذهبت مع مصطفى إلى آخر شوط الحب وهو الزواج . وتحول التنافس على الفتاة بين محسن وسليم وعبده إلى شعور بالمشاركة فى البلوى وتضامن وتعاطف بينهم .

ثم قامت ثورة سنة ١٩١٩ وأضرب طلبة المدارس ، وخرجت مظاهرة من مدرسة محسن فالتقت بمظاهرة الهندسة التى يقودها عبده ، فيضع محسن ذراعه تحت إبط عمه ويسيران معاً يهتفان . وشمل الحماس الوطنى سليم . ووجد الثلاثة المفجوعون فى الحب متنفسهم فى الثورة ، فما كادت تنفجر حتى انفجروا معها وانهمكوا فى حوادثها المتجددة المثيرة ، وحل الكفاح والتحمس فى نفوسهم محل الوحدة والانقباض .

واقتحمت قوة من الجيش الإنجليزى منزل « الشعب » وضبطت به منشورات ، وسيق أفراد الشعب — ما عدا زنوبة — إلى السجن ، ثم جاء والد محسن على أثر علمه بالنبأ وسعى بوساطة صديقه مفتش الرى الإنجليزى ، حتى أمكن نقلهم إلى مستشفى السجن على أن يطلق سراحهم بعد أن تهدأ الحالة . وزارتهم زنوبة فى المستشفى ، دخلت عليهم فى « عنبر » النوم ، فأدهشها المنظر . . أسرة خمسة مصطفة ، كل منهم على سرير منها كأنهم فى حجرة النوم « العمومية » بمنزل شارع سلامة . . لا يختلف المنظر إلا فى الفرش البيضاء الناصعة النظيفة الجديدة التى لم يستثن منها سرير مبروك . . وزادت دهشة زنوبة حين وقع نظرها على مبروك فصاحت صيحة خفيفة فى استغراب :

« جاتك نيلة يا مبروك ! صبرت ونلت ونمت على آخر الزمن فى سرير بحق وحقيق » .

فنظر إليها مبروك وقال باسماً :

« أنت واخده بالك ! » ثم نهض نهضــــة فى سريره متكئا على مرفقه وقال :

« بقا أما أقول لك : أنا خلاص جتتى خدت على نوم السراير ، وشرفك وشرف أمى ما أنام بعد النهارده على الطرابيزة الخشب إياها ؟ أنتم بلا قافية استغفلتونى وحسبتوها على سرير ! » .

وتنتهى القصة بدخول طبيب المستشفى عليهم ودهشته . . إذ تأمل وجوههم وهيأتهم وعرفهم . كان قد زارهم فى منزلهم لعلاجهم من حمى أصيبوا بها جميعاً ، وكانوا فى أسرتهم المرصوصة بحجرة النوم «العمومية» فلما رآهم هنا دهش ثم صاح بهم مبتسما :

« هو أنتم ..! وبرده هنا كمان جنب بعضكم .. الواحد جنب أخوه ؟! » .

٭ ٭ ٭

**النقد :**

هذا هو هيكل قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ولم آت من لحمها ودمها إلا بالقليل ، ففيها تصوير واع لخلية من خلايا المجتمع المصرى فى أوائل هذا القرن ، وهى من بواكير الأدب المصرى الذى عنى بطبقات الشعب ، ولعلى لا أخطىء الدقة التاريخية إذا قلت : إنها أول قصة مكتملة تامة النضج فى الأدب العربى ، فقد كتبها الأستاذ توفيق الحكيم سنة ١٩٢٧ وإن كانت نشرت بعد ذلك بنحو خمسة أعوام .

كانت هذه القصة « أستاذاً » لما ظهر بعدها بنحو عشرين سنة من حيث العناية بالأحياء الشعبية والشعبيين . كقصص نجيب محفوظ ويوسف السباعى وعبد الحميد السحار ومحمد عبد الحليم . ولا شك أن بعض هذه القصص أوغل فى هذا الاتجاه أكثر من إيغال عودة الروح ، وهذا طبيعى بحكم التطور .

والعجيب أننا نرى أن هذا الاتجاه الواقعى الذى تطور على أقلام الشبان لم يأخذ مجراه على قلم توفيق الحكيم نفسه. فإنه لم يتطور فى إنتاجه بعد عودة الروح ، بل تأخر عنه . . حتى وصل إلى تمثيليته الأخيرة « صاحبة الجلالة » . ولم يكن عجيبا أن يبدأ بمثل هذه التمثيلية أول ما يبدأ ثم يتطور ويأخذ فى النضج حتى يكتب عودة الروح !

وقد شاع بين الناس تعظيم شأن عودة الروح كقصة وطنية حافزة ، إذ حول المؤلف عواطف أبطالها من حب امرأة والتنافس عليها إلى حب الوطن والكفاح والتضامن من أجله ، وأشاد بقوة الأمة الكامنة التى تعود إليها الروح على رغم ما يظن بها من خمود . ولم يكن هذا الذى شاع مقصوراً على جماهير القراء ، وإنما كتبه النقاد فى مصر وفى أوربا لما ترجمت القصة إلى بعض اللغات الأوربية .

ولعلك تعجب أول الأمر إذا صارحتك بأن هذه الناحية هى أبرز ما لم يعجبنى فى عودة الروح . . لا لأنى لا أحب العمل الوطنى فى ذاته . وما ينبغى أن أكون كذلك ، وإنما أنا أقيس العمل الأدبى نفسه وأنظر فى قيمته الفنية ، وأنظر فى أهدافه الاجتماعية والقومية وما إليها ، وهل كان أداؤه لها عن طريق التصوير الطبيعى أو الافتعالى .

لقد جعل المؤلف يحدثنا عن أفراد « الشعب » ومن اتصلوا بهم وأحداثهم العاطفية والاجتماعية ، ويصور انفعالاتهم ومشاعرهم فى هذه القصة الطويلة التى تقع فى جزأين كل منهما فى مجلد خاص . ثم جاء فى الآخر وأنهى القصة بمظاهرة صاخبة ومقالة وطنية فياضة .وأنت تشعر بالافتعال « المحكم » عندما ينقل جو الحب والخيبة فيه إلى جو الحماسة الوطنية . تشعر بالافتعال لأن الجو الثانى مغاير لجو القصة كلها لا يربطه بأحداثها خيط ما . كل ما هنالك مقالة وطنية أخرى تأتى عندما ذهب محسن فى أجازة نصف السنة إلى عزبتهم القريبة من دمنهور حيث أقام والده «عزومة» لمفتش الرى الإنجليزى وأحد كبار موظفى الآثار الفرنسيين، فقد أجرى المؤلف بينهما حوارا دافع فيه الفرنسى عن الشعب المصرى وقال للإنجليزى : إن رواسب آلاف السنين التى هى ماضى مصر لم تضيع هباء ، بل هى كامنة فيه تدفعه فى الوقت المناسب . والحق أن هذا الحوار اشتمل على أفكار عميقة صائبة . ولكنه كان إلى المحاضرة والخطابة أقرب منه إلى الجو الواقعى . استخدم المؤلف هذا الموقف فى الوصول إلى النهاية الوطنية ، وكان بارعاً فى ذلك ، ولكنها البراعة التى تحول المجرى الطبيعى فى الحياة إلى ما يريد لها المؤلف من جو اصطناعى . .

أعجبتنى القصة إذن لغير ذلك ، أعجبتنى هى نفسها . . بما فيها من الصدق والصراحة والدقة فى التصوير والتحليل .

أعجبنى فيها تصويره لتأثير الحب فى تغيير النفوس ونوع العواطف ، فسليم ضابط البوليس الذى أوقف عن عمله لمغامراته النسائية ، هذا الرجل الجسدى الحب يتحول إلى محب من نوع آخر ، يرى سنية فتاة أخرى غير

الفتيات اللائى كان يجالسهن ويشرب معهن فى قهوة ( الشيشة ) حتى إذا ما ذهب إلى هناك فى أثناء أزمته العاطفية ليتسلى مع أولئك الفتيات ويجلس مع إحداهن ، نراه يشعر بالاشمئزاز من هذا النوع من النساء ويعجب كيف كان يألفهن من قبل .

ومصطفى الشاب الغنى الذى جاء إلى القاهرة من المحلة الكبرى بعد وفاة أبيه التاجر الكبير ، واعتزم أن يهجر التجارة ويبحث عن وظيفة فى الحكومة ، والذى كان يشعر بجدب حياته ونضوب الأمل فى نفسه ، يجعله الحب رجلا آخر سعيداً متطلعاً طامحاً ، فيعود إلى المحلة ليستأنف عمله فى التجارة ورعاية المحل الكبير الذى كاد يفلس .

وكان كل من محسن وعبده وسليم عندما يعود من منزل سنية منتشياً بخمر الهوى ، يحس بالاشمئزاز من اشتراك خمسة فى غرفة واحدة ، فهو لا يريد معه إلا من يحب أن يتحدث إليه ويفهم لغته الجديدة .

وقد بلغ المؤلف الغاية فى تصوير شخصية زنوبة . . امرأة جاهلة أمية عانس ، إذ بلغت الأربعين ولم تتزوج ، وهى مع ذلك ، كأكثر بنات جنسها ، مغرورة . . ترى أنها جميلة وحلوة ، ولكنها ( قليلة البخت ) أو عمى « العرسان » .

توجه زنوبة همها إلى اجتذاب مصطفى ، بوسائل أهمها السحر . . . وهنا يحدثنا المؤلف أحاديث طريفة ممتعة وفى الوقت نفسه يرسل فيها الضوء على تلك النواحى فى حياة النساء الجاهلات ، ويصور لنا مدى تأثير المشعوذين فيها حتى نرى زنوبة تجد فى البحث عن هدهد « يتيم » لاستعمال قلبه فى الحجاب الذى يجعل « إللى فى بالها » تحت رجليها . . !

ويبحث مبروك عن الهدهد فى جميع أنحاء البلد ، فلا يجد إلا واحدا ، ولكنه لا يعرف هل هو يتيم .. أو أن والده على قيد الحياة .. وكيف يعرف !؟ .. إلى آخر ما هناك من حديث غاية فى الظرف والإمتاع .

والروح الجماعية مبثوثة فى القصة ، فالمؤلف يصور أفراد « الشعب » متعاونين متحابين برغم ما يطرأ بينهم من أسباب النزاع الظاهر والخفى ، وقد مر بهم النوعان : كان النزاع الظاهر حين تلقى سليم خطابه معاداً إليه من والد سنية ووجده مفتوحاً ، فلم يخف عليه أن غريميه فى الحب ، عبده وحسن، فضا غلافه وقرآه ثم ألصقاه، فلجأ سليم إلى «رئيس الشرف» حنفى أفندى ، وكاد ييأس منه عندما ذهب إليه فى المدرسة وسمع التلاميذ يطلقون عليه « أبو زعيزع » فقال فى نفسه : كيف أنتظر حزماً من « أبو زعيزع » هذا ! ولكنه استراح واطمأن بعد أن شكا إليه وسمع منه قوله : « معاك حق ، إزاى يفتحوا الجواب .. لازم استعمل سطوتى» فلما رجعوا إلى البيت وتناقشوا فى الموضوع صاح عبده فى وجه سليم وحنفى قائلا : إنه ليس مسئولا عن خطابات أحد ولا يسمح لإنسان أن يتهمه هذه التهمة ، وقال لكبير الأسرة: «وأنت كان ما كانش لازم تنحشر فى مسألة فارغة زى دى » فقال له رئيس الشرف : « معاك حق » ، وتكلم سليم ، فقال له الرئيس : « معاك حق » ! وقلب الموضوع إلى مزاح فقال : « هو حد طايل فى الأيام دى ربع جواب حب يا سلام ! يا بختك يا سليم ! دا أنت كان واجب عليك تفتحه علنا وتقرأه علينا كانا .. علشان نفرح بك ونحتفل بحسن الوفاق » .

واحتدت المناقشة بين عبده وسليم ولكن الأزمة انتهت بفضل ما يسودهم من روح جماعية ودية .

ويتمثل النزاع الخفى فى تنافس الثلاثة على الحب ، وقد حسم هذا بالتضامن مرتين ، الأولى عندما أحبت سنية مصطفى وشعروا هم بالمشاركة فى الخيبة ، ويصور المؤلف هذا الشعور والجو الذى ساده تصويرا دقيقاً رائعاً . وكان التضامن فى المرة الثانية بتحمسهم للثورة الوطنية .

والحجرة « العمومية » هى محور تصوير تلك الروح الجماعية بما أضفاه عليها المؤلف من وصف بالغ لارتياحهم إلى التجمع فيها ووحشتهم لغياب محسن فى الأجازة ، وحزنه لمفارقتهم حتى إنه وهو جالس إلى المائدة فى منزلهم بدمنهور وعليها الأطعمة اللذيذة والألوان المتعددة ، كان فاقد الشهية وسرح به خياله إلى قصعة الفول النابت و « الشعب » يلتف حولها كأنها الكعبة ، فاشتاق إليها وإلى حياة « الشعب » الجماعية الهانئة حتى فى متاعبها ولحظاتها الشقية .

ولكن المؤلف يبالغ أحياناً فى تصوير الروح الجماعية إلى درجة غير مقبولة وإلى حد يقلب فيه السىء إلى حسن . . فالطبيب عندما يرى أفراد الشعب مرصوصين جميعاً ومعهم الخادم فى حجرة واحدة — يقول لهم : « يظهر أنكم من الأرياف ! » وهو يقول فى نفسه : إن الفلاح وحده هو الذى ينام مع امرأته وعياله وعجله وجحشه فى حجرة واحدة ! ويذهب محسن إلى العزبة ويدخل بيت فلاح هناك فيرى قاعة ينام فيها أصحاب الدار مع مواشيهم . ويرى بقرة يتزاحم على ضرعها ولدها العجل

وابن صاحب الدار الرضيع . ويكتب المؤلف فى هذا الموقف نحو ثلاث صفحات يمجد فيها حرص الفلاح على النوم مع الحيوان . . ويرجع إلى تاريخ مصر القديم إذ كان أهلها يقدسون الحيوان إلى أن يقول : « إن مصر ورثت على ممر الأجيال عاطفة الاتحاد بدون أن تعلم » .

أى اتحاد هذا ؟ إذا كان يحسن اجتماع الإنسان والحيوان فى مكان واحد فلتترح نفسها وزارة الصحة ووزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الشئون القروية ولا تعمل كل منها على تحسين معيشة الفلاح . . إبقاء على هذا الاتحاد وذلك المجد الموروث !

والمبالغة كثيرة فى القصة ، وهى من خصائص توفيق الحكيم فى بعض كتاباته ، يلجأ إليها لإحكام الموقف والبلوغ به إلى القمة فتأتى غير متسقة مع الواقع . ومن أمثلة ذلك أن الضيفين الفرنسى والإنجليزى ، بعد أن أكلا على مائدة والد محسن الخروف المحشى بالزبيب والبندق والصنوبر والفراخ والحمام .. الخ ، طلبا جبناً ولم يكن أهل البيت يتوقعون هذا الطلب ، فحاروا وبحثوا حتى وجدوا قطعة جبن رومى قذرة فى مصيدة الفيران فأخذوها ليغسلوها ويقدموها . . فتسقط فى « البلاعة » . . إلى آخر تصوير طويل مبالغ فيه ينتهى بانقضاض الخدم على « البلاعة » وإخراج قطعة الجبن وغسلها بالليف والصابون . .

والمؤلف يعنى عناية ظاهرة بتمجيد شعب مصر ، ويأتى من ذلك بصور فنية ولفتات بارعة ، ففى القطار يفسح الراكبون للقادم الجديد ويقولون له : « تفضل ياحضرة كلنا مسلمين نساع بعضنا » ويجرى الحديث بين الركاب فى الديوان عن عواطف الارتباط بين أهل مصر ، ويقول

أحدهم : إنه شاهد الناس فى أوربا يجلسون بالقطار لا يكلم بعضهم بعضاً فيعلق آخر قائلا : « بلاد مافيهاش إسلام ! » وهنا ينبرى رجل ذكى لبق فيفسر ذلك بأنها بلاد ليس فيها قلوب ، وإن كلمة «إسلام» الشائع استعمالها فى مثل هذا الحديث ليس لها أى صبغة دينية أو طائفية ، وإنما معناها ومغزاها عاطفة الرحمة وطيبة القلب وارتباط الأفئدة ، وينتهى الحديث بأن الشعب المصرى شعب اجتماعى بالفطرة .

ويدافع المؤلف ، فى حوار بينه وبين شيخ العزبة وبينه وبين أمه التركية ، عن الفلاح المصرى ، دفاعاً واعياً حاراً ، فينتصف له من البدو الذين ينالون خيره ويتنكرون له ، ومن الأتراك المتعالين عليه ، ولكن توفيق الحكيم يندفع فى تمجيد الفلاح حتى يبلغ فيه قمة المبالغة المعهودة ويقلب السيء إلى حسن ، فهو يشيد بالفلاحين لأنهم يجتمعون على الألم شاعرين بالسرور ولذة الاتحاد فى الألم ، على خلاف العمال فى أوربا الذين إذا اجتمعوا أحسوا جراثيم الثورة وعدم الرضا بما هم فيه . وأنا شخصياً أفضل الشعور بالثورة على الظلم ، على لذة الألم والرضا بالمذلة والخنوع .

وقصة « عودة الروح » واقعية فى جملتها ، وهى من بواكير الأدب المصرى القصصى الناضج ، وقد كتبت فى وقت كان فيه أكثر أدبائنا يرون القصص حكايات و « حواديت » لاقيمة لها ، ولم تكن العناية بالطبقات الفقيرة على هذا النحو من التصوير والتحليل لهذا تعد هذه القصة ثورة أدبية واعية دافعة .

ومع واقعية القصة لم يتخلص المؤلف من الرومانسية والأفكار

التجريدية . فهو يقدس الألم ويتحدث عن لذة الفناء فيه فى صور تجعل كلا من الفرد والجماعة يدور حول نفسه لا يتقدم إن لم يتأخر ، فقدماء المصريين كانوا يشقون فى بناء الأهرام ويستعذبون الألم فى سبيل « خوفو » يمثل المعبود ورمز الغاية . . وكذلك أحفادهم الفلاحون . . يستعذبون العناء والألم فى سبيل « المحصول » معبودهم المرتفع أكواماً فوق أكوام . . وكذلك محسن وسليم وعبده ، صارت سنية ، بعد أن يئسوا من حبها ، رمزاً لمعبود يتألمون من أجله . .

وكما يجنح المؤلف إلى هذا العكوف على الألم والتلذذ به تجده كذلك يصطنع الإبهام فى بعض المواضع ، فمبروك الخادم حينما ينظر إلى بدلة محسن الجديدة يداخله إحساس بشىء لا يفهمه . . ومحسن يخالجه الإحساس المبهم حين يلمح من سنية بعض الاهتمام بعبده أو بسليم . والإبهام والعكوف على الألم واجتراره من مخلفات الأدب الخيالى التى لاحقت أساتذتنا — على اختلاف حظوظهم منها — بتأثير أساتذتهم من أدباء الغرب الذين أغرقوا فى الخيال .

وذلك شىء قليل جداً فى عودة الروح ، وفيها إلى جانبه ومع سياقها الواقعى بعض الأفكار التجريدية يسوقها المؤلف فى شبه محاضرات ، فمحسن عند ما يرى حجرة نوم الفلاحين يختلط فيها الإنسان والحيوان يتطور إحساسه — على لسان المؤلف — إلى فلسفة عميقة مستفيضة ، ويحاول المؤلف ببراعته أن يحبك الموقف بأن يترجم شعور محسن المبهم ترجمة عقلية ، وذلك ليريحه ويتولى هو عنه التفكير فى الوحدة الكونية التى كان يدركها قدماء المصريين بجمعهم بين الحيوان والإنسان

فى مثال واحد ، وكذلك يجتمع الفلاحون مع الحيوان فى حجرة نوم واحدة . . وهو كلام كثير استراح منه محسن فى سياق القصة حتى أشبع المؤلف حاجته الفكرية . وهذا الجنوح إلى الفكر قليل فى قصتنا هذه ، وقد أمعن فيه توفيق الحكيم بقصته « عصفور من الشرق » حتى صار نصفها الثانى أشبه بكتاب فى تفضيل الروحانية الشرقية على المادية الغربية منه بقصة ذات وقائع وسياق قصصى .

وبعد فإنى أشعر بأن المآخذ فى القصة قد أخذت من حيز هذا الموضوع كثيرا ، وكانت روائع القصة جديرة بهذا ، ولكن يظهر أن الإنسان أقدر على ذكر المآخذ منه على إبراز المحاسن . .

إن هذه القصة تنساب فيها روح مشوقة تستأثر بالقارىء ، لا أجد فى التعبير عنها أكثر من أنى أحسست بها ولا أستطيع أن أصفها ، ولعلها آتية من صدق الأداء وانطلاق المؤلف على سجيته الفنية واعتماده على جو عاش فيه ووقائع مارسها أو ألم بها . وهو ما لم أجده متوافرا فى قصصه الأخرى بنسبة ما فى هذه القصة .

# شمس الخريف

## عبد الحليم عبد الله

العرض :

تزوج « أبو مختار » من « أم مختار » إذ كان هو شاباً تاجرا يقيم بالإسكندرية وأصله من دمنهور ، وكانت هى من المنصورة ، بنت أحد عملائه التجار هناك ، وتحاب الزوجان وعاشا أول الحياة الزوجية فى سعادة . ثم جعلت المرأة تُدل على الرجل بجمالها ، وتسلط عليها طبعها الحامى ، وهو يقابلها بطبعه الهادىء ، وألحت عليه بذلك حتى أخرجته عن طوره وبادلها الشجار . وتعاون كساد التجارة وزوابع الزوجة على الزوج المسكين ، فحطمته ثم قضت عليه .

وفى أثناء ذلك ، وبعد ثلاث سنوات من الزواج ، ولد الزوجان بطلنا «مختار» . وهاهو ذا مختار فى الثالثة عشرة من عمره وهو يعيد السنة الأولى الثانوية ( نظام قديم طبعاً ) وأمه ضائقة بإخفاقه فى الدراسة ، إلى ضيق عيشهما ، إذ لم يترك لهما العائل الراحل مالا يمكن أن يدبروا به حياتهما عاماً أو عامين . وكان أحرى بمختار أن يكون أملا لأمه الأرمل بدلا من أن تراه أمامها رمزاً للخيبة واليأس .

كانت المرأة تستهلك أعصابها وصحتها بقلقها الدائم وطبعها النارى

الذى اصطلى به مختار بعد أبيه ، وكلما هم أن يثور عليها تذكر أنه راسب فاشل وأنها تكافح . . وهى مع ذلك امرأة طيبة مستقيمة ، يعترف بهذا مختار ولكنه يطمع فى عطف الأمومة الذى لم ينل منه إلا قليلا .

رسب مختار فى الدور الأول وتلقى توبيخ أمه . وفى الخريف هب على الأسرة نسيمان : أحدهما نجاح مختار فى الدور الثانى ، والآخر انقلاب فى حياة الأم ، طرأ عليها من صديقة جديدة هى « الست زينب » وهى امرأة ذات شخصية آسرة ، تجيد الحديث وأنغام الكلام ، كثيرة الحركة والمرح . لاحظت حالة أم مختار من حيث اكتئابها وحدادها وسقمها وما اصطلح عليها من كسل الكبد ونشاط المرارة . . إلى آخر ما لم تجد فيه الأدوية الكثيرة المرصوصة على الرف .

قالت زينب لأم مختار : « مسكينة أيتها الأخت ، تمرضين بمحض إرادتك وتهزلين بمطلق مشيئتك » ثم فسرت لها ذلك بأن قصة مرضها قديمة قدم الأطباء والأمراض ، وأن الذى يتخلص منها هو من لا يريد أن يكون مريضاً . . إلى أن قالت لها : «أنت حزينة ولست سقيمة ، وزهرة تحت ناقوس من الزجاج محرومة من الندى والنسيم ، فهلمى نجرب تحطيم الحواجز ونخرج معاً إلى حضن الحياة مندفعتين نحو ذراعيها المفتوحتين . . »

ولشد ما فرقعت ضحكة الست زينب حينما عادت إلى أم مختار وعلمت أنها جمعت كل زجاجات الأدوية وحطمتها على بلاط المطبخ . . وهنأتها بهذه العزيمة وهى تقبلها طويلا . . وظهرت بعد حين بوادر النضرة فى خدى أم مختار ، وتلونت ملابسها بعد السواد ، وبدأ مختار يلمح فى بيت

أبيه الغائب مخايل المرأة التى كانت تتثنى فى كل خطوة أيام كان أبوه تاجرا ميسورا .. وكره مختار الست زينب وود لو كان بحيث يستطيع قفل الباب فى وجهها .

وتوثقت الصداقة بين المرأتين ، وذابت شخصية أم مختار فى شخصية زينب حتى صارت لا تعمل إلا بما تشير به ، ولم يكن هناك مشكلة إلا كان عند زينب حلها .. ولما شكت إليها أم مختار ما تتوقعه من أزمة مالية ، أرسلت شهقة وضحكت ضحكة .. حتى أقنعتها بأن تؤجر غرفتين من الشقة فى موسم الاصطياف .

نشطت أم مختار ، وطرأ عليها مرح جديد ، وعراها نوع من التفاؤل والثقة وضاق بذلك مختار ، وعراه شك غامض لم يتبين فيه إلا كراهة للست زينب ونفورا من أمه يكاد يبلغ البغضاء ، وفى يوم من أيام الربيع أحس بالحاجة إلى أن يخرج من هذا الجو القابض ، فامتطى دراجته القديمة وتجاوز بها المدينة حتى بلغ « عزبة خورشيد » وهناك أحس بالراحة والاطمئنان للمنظر الريفى الجميل ، فوقف إلى جانب مصلى على ترعة تظلله شجرة صفصاف بجانبها عدة أحجار بمثابة سلم بين الماء والمصلى . وإذا هو يرى فتاة قادمة من جهة كوخ فى وسط حقل على مرمى النظر تحمل جرة فارغة ، وتتهادى فى مشيتها . فلما دنت منه تفحصها وأخذ بمحاسنها ثم عاود الفحص حين أدبرت تتأود تحت الجرة بعد أن ملأتها من الترعة .. وغابت عن نظره فوقف محملقاً نحو الكوخ حتى عادت ، وفى هذه المرة استطاع أن ينفذ خطة غزلية وفق فيها ، فكان هذا أول توفيق فى حياته الحافلة بالخيبة والإخفاق . ولا بد من الإشارة

بهذه المناسبة إلى أن مختار كان وسيم الوجه فاره الجسم ، ومما يذكر أيضاً أن أمه كانت تقول له إذ تعيره بفشله فى المدرسة : ليتك كنت بنتاً فكانت تجدى عليك هذه الوسامة ، أما الذكور فإنهم يحتاجون إلى شيء آخر . .

وفى هذا الربيع شغلت الأم عن تعيير ابنها وتوبيخه ، بالوقوف أمام المرآة . . وكان يلمحها تتأود فى تكسر كأنها تنسى أنه يراها . واشتد به الضيق فخرج بدراجته يلتمس الفرج فى عزبة خورشيد . وكان الشوط الثانى فى الهوى الجديد أكثر توفيقاً ، إذ جرى الحديث بينه وبينها ، وعرف منها أن اسمها سكينة وأن أسرتها تتكون من أبيها وأمها وأخ صغير يذهب إلى مدرسة القرية البعيدة . وقالت له وهى تنصرف عنه : إن عمك خليل « أباها » سيحضر بعد قليل لصلاة العصر بالمصلى . وحضر « عم خليل » وتعارفا ، ودعاه الرجل إلى الكوخ لشرب الشاى فلبى الدعوة . . ولاحظ مختار أن العم خليل متصوف وقد أطلق على ابنه الصغير لقب الشيخ الكبير « البسطامى » فتذرع إلى قلب الرجل بمعلومات صوفية ، كان يسمعها من مدرس متصوف .

وتوثقت العلاقة بين مختار وبين أسرة حبيبته الريفية ، فكان يتردد عليهم فى فترات مختلفة ، إذ يقفز من فوق سور المدرسة بعد الحصة الثانية ويأخذ دراجته المنهوكة أو تأخذه هى إلى هناك ، وكان يحمل إليهم شيئاً من حلوى المدينة ، كما كان يعين البسطامى فى دراسته الأولية ، وترك عندهم بنطلوناً قصيراً من التيل ليلبسه أثناء العمل معهم فى الحقل . وشاركهم الأعباء فيما نزل بهم من بعض الأحداث . وكان حبه للفتاة

عذرياً بريئاً ، وفى خلال ذلك كانت أم مختار مشغولة بما بثته زينب فى نفسها وفى أحوالها من حياة جديدة مغايرة لما كانت عليه من سقم وحداد و « كسر للشباب » – كانت مشغولة بذلك عن مختار ، كما كان هو مشغولا عنها بهواه الجديد ، ولم يكن مختار مشغولا عن « خصوصيات » أمه فقط بل شغل أيضاً عن المدرسة ، فأضاف الإهمال إلى بلادة العقل ، ورسب فى السنة الثانية . وتمخضت خصوصيات أم مختار ، حينما زارهم فى الشتاء « عباس أفندى » ولعباس أفندى قصة نعود إلى أولها فى موسم الصيف إذ جاء بعائلته ليصطاف بالإسكندرية ، ونزلوا بشقة أم مختار حيث أجروا فيها غرفتين ، وقضوا هناك شهرين نبتت فيهما نبتة غرسها فى نفس عباس أفندى تأود أم مختار وحركات زينب وضحكاتها ، التى كأنها كانت تقول له : عندنا بضاعة أيها المحروم ! وكان هو محروماً حقاً ، فدمامة امرأته جعلته يعتاض عن المرأة وعن زيه وهندامه بالإغراق فى الطعام حتى تكرش . .

جاء عباس أفندى فى الشتاء يخطب أم مختار ، ثم تزوجها وعاش معها فى الشقة ، ومعهما مختار والخادمة بهية التى كانت من قبل عند عباس أفندى ، وكان على مختار أن يخضع للأمر الواقع الذى لا يغير منه شيئاً رضاه أو سخطه . وليلة انتقل الزوج الجديد إلى الشقة لم يعد إليها مختار إلا قبيل منتصف الليل ، وأرق من التفكير فى همومه ، وتمنى فى أرقه أن يتخاصم كل زوجين على رقعة الأرض . . وفى الصباح قدم له فطور سخى ، ولكنه لم يأكل منه غير الجبن والفول ، إذ عاف الألوان التى جاءت للمناسبة السعيدة . .

وكانت الخادمة بهية ذات جاذبية وإن لم تكن جميلة، وكان فى نفسها حنان صبته ممزوجاً بالحب على مختار فتقبل الحنان، ولم يكن بقلبه مكان لغير سكينة. ومضت شهور كان مختار يتلظى فيها من الغيرة على أمه وشعوره بفقد حنانها إلى الأبد وكراهيته لزوجها، وإن كان يتعزى بحنان فى عزبة خورشيد وحنان بهية. وكان لا بد أن يحدث احتكاك بين الفتى وزوج أمه، تفاقم مرة فحذرت الأم ابنها من أن يتعرض مرة أخرى للرجل «الذى اتخذنا منه سدا يقف بيننا وبين الجوع!».

وذكره ذلك بموقفه ومصيره وقد رسب فى «الكفاءة» وكان قد انتقل فى العام الماضى إلى السنة الثالثة. ففكر فى الهرب، ثم أعد له العدة: احتجز قسط المصروفات فلم يدفعه إلى المدرسة، وباع عجلته القديمة بعد أن ذهب بها آخر مرة إلى عزبة خورشيد حيث ودع سكينة وأهلها قائلا لهم: إنه مسافر إلى القاهرة. وأجاب بنعم عن سؤالهم: ألوظيفة؟ فدعوا له بالتوفيق ورجوه مواصلة الكتابة إليهم. ودبر خلوة مع سكينة كان الوداع فيها على أحر ما يكون بين الأحباب.

ولم يعلم بهربه قبل وقوعه غير بهية الخادمة، إذ أسر إليها بالأمر وعاونته فى جمع ثيابه ومتاعه القليل وخروجه عند الفجر بعد قبلة وداع كافأها بها.

ركب القطار إلى القاهرة، ونزل بلوكاندة السيدة زينب. ولما اقترب نفاد ما معه من نقود لجأ إلى مسجد وغافل خادمه العجوز ضعيف البصر وتخلف به بعد صلاة العشاء ونام فيه أو على الأصح قضى فيه ليلة قارسة جعلته يفضل الجوع على الحرمان من المأوى.

وظل شهوراً على هذه الحال كان فى خلالها يبحث عن عمل ، حتى اشتغل كاتباً بلوكاندة السيدة . ثم قال له صاحب تعرف به على القهوة : لماذا تشغل هذا العمل التافه ومعك هذه الشهادة المحترمة ( الابتدائية )؟! فقدم طلباً إلى مصلحة البريد ، وكان أحد النواب قد أوصى بتعيين شخص ساعى بريد اسمه «مختار على» وهو نفس الاسم الذى يحمله صاحبنا ، فوقع الغلط وعين صاحبنا — بدل الموصى عليه — موزعاً للبريد فى مكتب باب الخلق .

وقد هيأت له هذه الوظيفة أسباب مغامرة عاطفية جديدة مع السيدة ( ف ) ويحسن قبل ذكر هذه المغامرة أن أذكر أن مختاراً التقى فى أحد شوارع القاهرة بالخادمة بهية التى كانت تعمل عند أسرة كبيرة بالزمالك ، وعرف منها ما حدث فى منزلهم بالإسكندرية عقب رحيله ، وهو يتلخص فى صخب الأم الخالى من الحزن الصادق ، وولادتها غلاماً سمى « عباس » .

ولا بد من الإشارة إلى موقف « مختار » من سكينة وأهلها ، كتب إليهم وردوا عليه ، واستمر تبادل الرسائل فى فترات متقاربة ، ثم متباعدة ، ثم انقطعت . وفى إحدى رسائلهم أخبروه بأن شاباً يطلب يد سكينة ، ولكنه أسقط من حسابه مسألة الزواج ، فحسبه هم نفسه ، وتمثل الحب أخيرا بينه وبين الحبيبة القديمة فى صورة من ظل واقفاً يمد ذراعيه للاستقبال والاحتضان ، فلما طالت وقفته تعب واسترخت يداه فعادتا إلى وضعهما الأول . . وأخذت سكينة مكانها لا فى زاوية الإهمال ولكن فى ركن الذكريات . .

استرعت السيدة ( ف ) انتباه مختار حينما رآها لأول مرة تخرج إليه لتتسلم رسالة بريدية ، أثر فيه صوتها الناعم المستميت وقدها الممشوق وخصرها الناحل ، ثم عيناها الساجيتان اللتان تبعثان فى الجسم خدرا ونشوة . رآها فى طراز غير سكان الحى الذى تسكن فيه واستدل بعدة قرائن على أنها موظفة وأنها تحيا حياة عقلية ، ذلك أنه شاهدها خارجة من دار الكتب .

ولا بد أن نتجاوز المقدمات وبعض التفصيلات ، وإن كنا نحتاج إلى أن نعرف أنها طلبت منه أن يحتفظ برسائلها حتى يحضرها إليها فى وقت فراغه لأنها لا تكون بالمنزل ، فى النصف الأول من النهار . وها هو ذا يتأنق فى ملبسه بعد الظهر ويطيل النظر فى المرآة ، ثم يأخذ طريقه إليها ، ويدق الباب فلا يسمع مجيباً ، ولكنه يعاود الطرق حتى تخرج إليه فى حالة تدل على أنها مريضة . ويستدعى لها طبيباً ، ويحضر لها الدواء ، ويضعه بجوارها مع رسالتين بريديتين لها ، وتشكره ، وينصرف عنها محموماً مثلها وإن كانت حماه من الحب . . ثم يسأل عن صحتها ويزورها ثم يلتقيان فى الخارج . وفى خلال ذلك كله يتناقشان فى مسائل عاطفية يتفلسفان فيها ، فقد صار التلميذ الخائب فى المدرسة قارئاً يتردد على دار الكتب ليتزود منها بما يعامل به « حبيبته الجديدة » معاملة عقلية . . ويتناقشان يوماً فى مسألة أثارتها قصة استعارها منها ليقرأها ، تلك المسألة هى خطيئة المرأة التى غلبت على أمرها وموقف المجتمع منها ، دافعت هى عن المخطئة وقالت : إن المجتمع بازدرائه لها يقطع عليها الطريق إلى التوبة ، وإن ذلك إهلاك للناقص بدلا من معالجته ليصير كاملا ،

وأبدى هو إعجابه بهذا الدفاع . وتعرف بعد ذلك من رسائل كتبتها إليه وأفضت له فيها بسرها ، أنها كانت هى تلك المخطئة ، كانت زوجة لرجل لا تحبه ، وأغراها شاب ، وأنبها ضميرها ، فانفصلت من زوجها ، وتحرى هو فى غيابها حتى وصل إلى سمعه ما رددته الألسن حولها ، فبعث إليها بوثيقة الطلاق ، وعادت مدرسة كما كانت قبل الزواج .

قضى مختار بعد ذلك فترة تبلبلت فيها أفكاره ، إذ كان يسخط على السيدة ( ف ) ، ثم يعود فيعرض قضيتها على نفسه وتتدخل عاطفته للدفاع .. ولكن الحكم يؤجل .. يقرر إرسال الرسائل إليها ولكنه يستبقيها .. ويريد أن يسرى عن نفسه فيأخذ إجازة ويسافر إلى الإسكندرية ، ويذهب أولا إلى عزبة خورشيد فيعلم أن سكينة تزوجت وأباها مات وبقية الأسرة رحلت إلى القرية التى تزوجت فيها سكينة . ثم يذهب إلى منزلهم بالإسكندرية ، ويقف حياله ، وقد كبر وتغير شكله ، فيرى أمه تطل من النافذة وتكلم « عباس الصغير » فى الشارع .. ثم يعود أدراجه دون أن يعلم به أحد ..

ويجد مختار نفسه يوماً ذاهباً إلى منزل السيدة ( ف ) حاملا رسائلها ، ويحاول أن يضع الرسائل فى الصندوق المثبت بالباب ، ولكن يده تقرع الباب .. فتخرج إليه ويدخل إليها ، ويكون اللقاء والغفران ، ثم الزواج ..

ويدخل الزوجان فى حياة جديدة يسودها الحب ويطبعها الجد والعمل على تكوين أسرة سعيدة ، وتبذل الزوجة فى سبيل ذلك من راحتها وصحتها ، تؤثر زوجها على نفسها وتسهر عليه وهو يذاكر لدخول

امتحان الكفاءة ، حتى يحصل عليها ، ويرقى إلى كاتب يجلس على مكتب في المصلحة ، ثم يحصل على البكالوريا ويتقدم فى وظيفته . ويرزقان غلاماً يسميه أبوه « وحيد » ويصبح إيثار الأم وتضحيتها من أجل اثنين بدلا من واحد . ويؤدى بها الإرهاق والحرمان فى آخر الأمر إلى مصحة الأمراض الصدرية ، وتظل بها حتى المصير المحتوم .. ويعكف مختار على تربية ولده وحيد ، فيكون له أماً وأباً ، ويكون الابن لأبيه عزاء وأملا ، حتى يكبر ويصير طبيباً مختصاً بالأمراض الصدرية ، ويثأر لأمه من المرض ، إذ يهزمه فى صدور المرضى . وتقر عين الوالد بولده . ويفرح يوماً بدخول « الدكتور » عليه ومعه صورة زيتية له : للوالد الذي يطلب من ولده أن يعلقها إلى جوار صورة أبيه التى حملها معه يوم هرب به من الإسكندرية ، وظل محتفظاً بها . ويقول الرجل لابنه : سيفعل ابنك مثل هذا ، وتعلق صورته بجوار الصورتين . ويرتاح خياله إلى منظر صور الأسرة المتسلسلة فى صف طويل .. وهو مستلق فى فراشه يهب عليه النسيم وينظر من النافذة إلى شمس الخريف .

* * *

**النقد :**

تلك هى قضية الحنان يعرضها الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله فى قصته هذه « شمس الخريف » . يعرضها فى ذلك الإطار من الحوادث ، ويتولى فيها الهجوم والدفاع والحكم . وأصل الجريمة هو الأم التى حرمت ولدها الحنان فشعر بالحرمان ، وتحولت عنه إلى رجل ، فشعر بالغيرة والألم ، وراح يكافح ، ينهزم وينتصر ، حتى تبلور انتصاره آخر الأمر فى ولده الذى سهر عليه وعمل على أن يجنبه ما قاساه هو ، وعلى إمداده

بما كان يشعر فى مراحل كفاحه أنه فى حاجة إليه . وتظهر براعة المؤلف أو صدق فنه فى الجزء الأول خاصة ، وكلمة « الجزء الأول » من عندى ، فهو لم يجعل لروايته أجزاء . إنما أقصد الحرمان من عطف الأمومة مصوراً فى القسم الأول من حياة مختار الذى قضاه فى الإسكندرية وما لابس هذا الحرمان من الغيرة والألم ، بل أخص هذه الغيرة التى جسمها الكاتب فى صورة كائن حى له لحم ودم وعظام تنتظمها روح .

وسر توفيق الكاتب فى ذلك — كما يبدو لى — هو الوقائع والتحركات التى اتخذها واستخدمها فى تكوين ذلك الكائن الحى . فهو مثلا يجسم نفور مختار وحزنه من زواج أمه وكراهيته لزوجها وتحول اهتمامها وعنايتها إلى الزوج — يجسم كل ذلك بوقائع وصور معبرة ، فمختار يأنف ألوان الطعام التى قدمت إليه للمناسبة السعيدة « فلا يتناول إلا ما اعتاده على خشونته . . وأم مختار لا يكفيها أن زوجها مكب على الطعام من نفسه فتختار له أطيب الأصناف على مرأى من مختار وتقسم عليه قائلة : « لاهضمها من أكلها غيرك » فيقول مختار فى نفسه « ولا هو يارب » أو تقول أم مختار : « فقدتنى الليلة وأغمضت عينى بيدك إغماضة الموت إن رددت يدى » فيقول مختار فى نفسه : « اللهم استجب على أى حال » .

وقد استخدم المؤلف فى التعبير عن عواطف مختار فى تلك الفترة صورة أبيه وتحركاتها أو تحريكهم لها بين حجرات الشقة ، فقد كانت أولا فى حجرة النوم التى كان ينام فيها مختار وأمه قبل الزواج ، ثم أجليت عنها إلى حجرة الاستقبال يوم استقبال الزوج الجديد ، ثم

تراجعت إلى الصالة ، ثم أسرت فى المخزن بجانب السمن والبصل ، حتى استنقذها مختار ليلة هروبه ، وكانت فى كل ذلك مثاراً لخواطر مختار وأحزانه . ويوم نقلت من حجرة الاستقبال سأل أمه عن السبب ، فنظرت إليه نظرة قاسية وقالت بلهجة جافة : انقطع خيطها فسقطت على الكرسى فنقلتها إلى الصالة ، أليس ذلك أكرم ؟ ! وخطر له خاطر شعرى فعلل انقطاع الخيط — إن صح — بأن الهموم ثقلت على الصورة فسقطت تحتها لاهثة بسبب أم مختار ، كما قد حدث لصاحبها . .

وتصوير الغيرة على الأم ، وغصة الألم لزواجها ، أقوى ما فى القصة ، وقد بلغ فيه المؤلف الذروة ، وكان فى تصويره وتحليله طبيعياً يستمد من معين الحياة ، ولكن يظهر أنه أراد أن يذهب مع « فرويد » إلى « عقدة أوديب » إذ جعل إحساس مختار نحو أمه يشبه إحساس الزوج المحب فقال على لسان مختار : « ولكننى كنت قادرا على أن أصف لك — لما رأيته من صدوف أمى عنى — إحساس زوج محب يرضيه القليل التافه ، لكنها أبت إلا أن تدير إليه ظهرها من أجل رجل آخر !! هذا هو الذى وقع وتلك حقيقة إحساسى فى ذلك الحين » .

وأنا أشك فى حقيقة ذلك الإحساس ، وأشعر أن المؤلف خرج — بالإشارة إلى نظرية علمية هى موضع الخلاف والنظر — عن الخط الطبيعى الذى يسير فيه بقدرة فنية تأخذ القارىء وتجذبه نحو الاندماج .

وقد شعرت بخروج المؤلف عن المجرى الطبيعى للحياة ، بعد ما انتهى من القسم الأول ، ودخل فى مغامرة مختار مع السيدة ( ف ) . ثم عاد إلى ذلك المجرى بعد زواجه بها ووصف حياتهما الزوجية السعيدة المكافحة ،

الحلوة المرة .. ثم وصف مرارة كفاح مختار وحده بعد وفاة شريكته، وحلاوة هذا الكفاح فى قرة عينه بولده ، وبما بلغه هذا الولد من نجاح وتوفيق .

أما السيدة ( ف ) التى وصفها المؤلف فى فترة الجولة العاطفية الأولى بينها وبين مختار ، وفى مغامراتها التى كتبتها فى رسائلها إليه ، فهى تذكرنى بشخصية « الشيخ الشاب » الذى ابتدعته السيدة جاذبية صدقى فى قصتها « مملكة الله » — ابتدعته على غير مثال واقع فى الحياة ، وإن كان لشخصية السيدة ( ف ) أسباب فى الأرض ، أما ذلك الشيخ فأسبابه كلها فى السماء .

السيدة ( ف ) هى أولا — كما يصفها لنا المؤلف — قد جمعت بين عقل أرسطو وجمال فينوس .. وقد استطاع مختار ، بتردده على دار الكتب عدة مرات مجاراة لها ، أن يشارك فى الأفكار العالية ويخوض فى ميدان عز عليه بل استحال فى حياته المدرسية ، وقد بهرها بذلك حتى سألته : هل تقرأ كثيراً ياسيد مختار ؟ فأجابها : بل قليلا ومنذ وقت قريب . وألغى المؤلف الوجدان والعاطفة فى السيدة ( ف ) وفى مختار ، وجعل العلاقة بينهما عقلية فلسفية ثقيلة الظل ! !

ولست أنكر قدرة المؤلف ومهارته فى تصوير عواطف السيدة(ف) فى زلتها وموقفها من زوجها الأول ، ولكنها « مهارة على الفاضى ! » فليس يقع عادة أن تسقط زوجة فيسكت ضميرها مع الذى أسقطها وينشط للعمل عند اقتراب زوجها منها ! ويبرع المؤلف فى توجيه ذلك وفى تعليله ، ولكنك تشعر أنه فى عالم آخر غير سطح الأرض .

وفى هذا الجزء الخاص بالسيدة ( ف ) قبل زواجها بالسيد مختار ، لا نجد ما وجدناه فيما قبله وما سنجده فيما بعده من التعبير بوساطة الصور والوقائع ، فالمؤلف هنا يلجأ إلى التعليقات وتوليد الأفكار وإلى الإغراق فى النظرات الشعرية . ونجد هذا مبثوثاً فى نواحى القصة كلها ، ولكنه فى أكثرها مقبول عذب لأنه يأتى طبيعياً وبقدر .. أما حين يقصد المؤلف إلى التفلسف والخيال المكره ، فإنه يكون كمن يكثر الملح فى الطعام أو كمن يضعه فى الحلوى ..

والأستاذ محمد عبد الحليم شاعر فى قصصه ما فى ذلك شك . فى نفسه طاقة شعرية كبيرة أعرضت عن الأوزان والقوافى لأنها ألفت مجالها فى القصص . وقد وجد قصاصنا الشاعر فى عزبة خورشيد خاصة مجالا خصباً للخطرات والجولات الشعرية ، فشمس الربيع هناك ناقهة من ضعف الشتاء ، وهناك فى الحقول نشيد خفيف خافت تنشده الطبيعة للمكدودين من أبنائها وللذين تخلى عنهم الآباء أو قست عليهم الأمهات .. ويتمثل هذا النشيد فى زقزقة عصفور أو غطيط طنبور أو أنين ساقية ، أو بكاء طائر ، أو غناء فلاح . وشجرة الصفصاف منكبة على الماء تاركة شعرها لتياره يعابثه فى رفق ناعم .

وعبد الحليم الشاعر يستعمل الطبيعة « فى الميدان » فهو يستخدمها فى الإيماء والتصوير للحالة الإنسانية التى هو بصددها ، فيوائم بين مظاهر الطبيعة والموقف النفسى . هذا هو مختار يرى شمس الربيع ناقهة وهو قادم من جو عابس كاد يطبق عليه فى المدينة ، فلما جاء هنا شعر بانفراج أزمته النفسية ، فهو إذن فى نقاهة نفسية . ونشيد الطبيعة يتسرب حنانه

إلى مشاعره التى جفت من انقطاع ماء الحنان عنها . ثم هو قد دخل فى تجربة حب ويود أن تستجيب لحبه تلك الفتاة التى رآها وفتنته فتترك له شعرها يعابثه فى رفق ناعم كما تفعل شجرة الصفصاف . .

وقصاصنا عبد الحليم عبد الله يغوص فى الأعماق فيوفق فى أكثر الأحيان إلى الدرر ، وأحياناً يأتى بالصدف ، وهذا تعبير تقليدى من تلك التعبيرات التى لا تزال تسيطر على أقلامنا ، وهو غير دقيق لأن الصدف له منافع ، وما يأتى به غواصنا أحياناً يعييني أن أعثر فيه على شىء .

من غوصه الموفق المتصل بخيط الهدف من القصة ، تصويره لركود عقلية مختار ثم نشاطها ، وإخفاقه المدرسى ثم التخلص منه بنيل الكفاءة والبكالوريا أخيراً ، فقد كانت معاملة أمه له من أسباب الركود والإخفاق ، إذ كونت فى نفسه بالتوبيخ والتقريع والقسوة عقدة الخيبة والفشل ، تلك العقدة التى استطاعت « السيدة ف » أن تحلها ، إذ ألقت فى نفسه أنه أعظم مما يتصور وأذكى مما يظن ، وبذلك التأم الصدع الذى أحدثته أو وسعته فيما مضى أمه . وقد عنى المؤلف عناية موفقة بتصوير المرأة التى تخلق الرجل . . بتحليل الحياة الزوجية السعيدة المنتجة بين مختار و « السيدة ف » وأبرز أثر الزوجة فى دفع زوجها .

وهو يحسن الإيماء إلى مسائل الجماعة العامة دون تعمد الخروج إليها بما يخل بالسياق الفنى . فمختار ينظر إلى ولده الذى تركته له أمه ويتمنى أن يكون له شأن فى خدمة بلاده . فسيخرج الإنجليز من مصر حتما ، وقد يكون هذا الوليد هو الذى يخرجهم أو يكون على رأس من يتولون إجلاءهم . وبيوت كثيرة فى القرية توقد النار يوم السوق لمدة طويلة كى

تنضج لحوم البقر والجمال التي تكون عادة أكبر سنا مما يساق إلى المدينة ، لأن أصحابها يبعثون إلى المدينة بأطيب الخيرات ويستبقون لأنفسهم النفاية . ومأساة البقرة التي فقدها العم خليل وأسرته ، صورها الكاتب مأساة إنسانية قام فيها مختار بدور إنساني جليل ، إذ حمل « البسطامى الصغير » إلى « خيام الصحة » لمرضه بالتيفوس وتعهده هناك حتى شفى وعاد به . صور المؤلف ذلك تصويراً رائعا هادفا معا ، ويبلغ هذا التصوير قمته الإنسانية عندما يحلل حب مختار لأخى حبيبته ويقول : ليتنا نحب ولو لغرض !

ويعتذر المؤلف للقارىء عن اهتمامه بالحديث عن بهية الخادمة فى أكثر من موضوع ، لأنها ليست شخصية تافهة ، لقد وضعت فى حقيبته عند هربه — دون أن يعلم — كل ما كانت تملكه ، وهو قرطها الذهبى ، ليستعين به فى شدته .. وكان لها معه مواقف مماثلة جعلته يكبرها ويجيب من عسى أن يتساءل عن انفراده بها فى مسكنه بالقاهرة قبل أن يتزوج ، فيقول : « أكبرتها بينى وبين نفسى أن أراها فى وضع غير كريم ! » .

والمؤلف يحرص فى مواقف الحب الحامية « الحرجة » على أن يقول : إن المحب لم ينل من شجرة التفاح غير هز أغصانها وشم أزهارها .. يحمى الموقف كما يحمى التنور ، ولكنه لا ينضج غير العاطفة المتأججة ، وقد أكثر من ذلك فى مقابلات مختار وسكينة وخلواته بها ، يصف محاسن الفتاة ويبرز مواطن الإغراء فيها ، كما يعرب عن تأثر مختار بتلك المحاسن وافتتانه بها ، ثم يجعله — وهو الفتى الممتلىء جسمه ، الفارغ عقله ، الفائر شبابه ، المستسلمة له حبيبته — يحجم عن قطف

الثمرة المحرمة .. والذى أقصد إليه أن الإيغال فى وصف الجو المثير لا يتفق مع النتيجة السليمة التى يحرص الكاتب على تأكيدها . وقد استعان على تأكيد البراءة من ذلك بمهارته فى تصوير الفتاة الريفية المتعففة المتمسكة .. ولكنك تعجب إذ ترى هذه الفتاة نفسها تتصرف كما يصور الكاتب .

قلت : إن عبد الحليم قصاص شاعر مفكر ، يعنى بتوليد الأفكار وتسجيل الخواطر والتأملات ، وهو يجيد فى ذلك ، ولكنه أحيانا يفرط فيتأبى عليه التسلسل الفكرى ويعصيه التعبير الواضح . يقول على لسان مختار : « فلجأت إلى دراجتى وجعلت أقطع بها أرض الله يتعاون باطنها مع ظاهرها تعاون المقدمة والمؤخرة فى الجيش ، قصدت من هذا أن أقول : إن باطن الأرض فى كثير من الأحيان يكون أولى بنا من ظاهرها . وبرغم محاولة تفسير ما يقوله لم يوضح ، فإذا فهمنا أن باطن الأرض أولى بنا من ظاهرها حينما نيأس ونرد الموت فما معنى التعاون بين هذا الظاهر والباطن ، وما ارتباط سير العجلة بهذا كله ؟ (ص ٤١)

ولم أفهم الارتباط بين انفصال عواطف أم مختار عن مساءاته ومسراته ، وبين الذى لا يفرح لشخص كسب فى «اليانصيب» ولكنه يتألم لرجل أفضت به الغيرة إلى أن يلوث يديه بدماء امرأة طالما مزج الحب بين أنفاسهما .

سأل سكينة أول مرة عن اسمها فلما أجابته بأن لها اسمين سألها عن «الذى توافقين على أن أحب صاحبته » (ص ٥٥ ) يعنى أنه يحب صاحبة أحد الاسمين ولا يحب صاحبة الاسم الآخر ، فهل يحب نصفها ويترك نصفها ..؟

ثم يعيد هذا التساؤل ويقول لنا : « فعدت إلى اللجاج الجميل قائلا لها .. إلخ والواقع أن اللجاج الجميل ليس جميلا ! والميزة الكبرى للمؤلف هي دقة الوصف وبراعة التحليل واللمحات المعبرة ، أما الحوار فأظنه يأنس من نفسه ، ويسخط منها ، عدم القدرة على إجادته فنراه يقلل منه فيحسن بهذا التقليل .

ولغة الحوار متسقة مع لغة الحكاية والتحليل ، وكل منهما تتجه إلى الجزالة دائما وإلى الإغراب أحيانا ، ولكن لغة الحوار غير واقعية ، فالكاتب لا يبذل أي جهد للتقريب بين اللغة الدارجة والفصيحة ، وأرى هذا لازما في الحوار ، فإن الجزالة إن حسنت في الحكاية والتحليل فإنها لا تناسب الحوار ، عدا أنها لا تعين على استحضار الجو الطبيعي كما تعين عليه اللغة الفصيحة الميسرة الدانية إلى الواقع .

وأنا لا أطالب بالعامية في الحوار ولا أرفضها ، فكل كاتب يختار الأداة التي يرى أنه يحسن استعمالها ، ولهذا لا أوافق الذين نقدوا عبدالحليم بأنه لا يصطنع اللغة العامية في الحوار . . ولست أدري كيف يكون هذا عيبا . . إلا أن يكون الناقد العائب ممن لا يحسنون اللغة الفصيحة فهو يرمي إلى التقليل من شأن مالا يحسنه . إن الكاتب الذي عاش « اللغة » وتشربها حتى صار قلمه يجري بها ، ليس من الواقعية في شيء أن نطالبه بأن يكتب لغة لم يشغل نفسه بالتفكير والعمل في الكتابة بها ؛ لأنه إن زاولها خرج عن طبعه وتكلف ماليس في واقعه الأدبي .

إنما أريد البساطة والسهولة في اللغة الفصيحة ، وأحب إيثار الكلمة الحية التي تجري على الألسنة والأقلام ، لهذا لا يعجبني في قصتنا هذه

أن يقول المؤلف مثلا : «اعتامتها الأمراض» بدلا من أصابتها . وعبد الحليم يقع فى الاضطراب اللغوى الذى يعانيه كثير من كتاب الجيل ، فهو مرة يحرص على أن يأتى باسم عربى للشىء ، فيسمى مثلا قبقاب التزحلق « النعل ذات العجلة » ومرة أخرى ينساق مع الطبيعة الجارية فيكتب « وابور الجاز » و « لوكاندة السيدة زينب » .

# سلوى في مهب الريح

## محمود تيمور

**العرض :**

« سلوى » فتاة فى العاشرة من عمرها ، تعيش مع جدها لأبيها فى منزلهم العتيق بحى محرم بك فى الإسكندرية ، وقد أخلد الجد إلى العزلة بعد وفاة ولده ( أبى سلوى ) وليس معهما فى المنزل غير خادمين : أم يونس والحاج سرور. وتحدثها أم يونس حديثا خاطفا عن أبويها اللذين لم ترهما ، فالأب كان ضابط بوليس قوى الشكيمة ، وكان يحب أمها ولكنه كان يشتبك معها فى مشاحنات كثيرة ، وكاد يقتلها فى إحدى المرات . وتلتصق سلوى بأم يونس قائلة :

— كيف ؟

— لقد باغتها مع . .

وصمتت المرأة فجأة ، وتشاغلت بالبحث عن سلة الخضر . .

ثم تنتهز سلوى فرصة أخرى فتسأل أم يونس :

— أخبرينى عن أمى ، أين هى الآن ؟

— ألا تعدينى أمك ياسلوى ؟

— ولكنى أريد أن أعرف أين هى !

– إنها فى القاهرة . . .

– ولماذا لا تأتى لترانى ؟

ولكن أم يونس لا تجيبها إلا بهذا التحذير :

– إياك أن تخبرى جدك بما سمعته منى . . .

– لن أقول شيئاً يا أم يونس أبدا !

وتعرفت سلوى بفتاة فى مثل سنها اسمها « سنية » من أسرة ذات جاه ومال ، كانت تصطاف بالإسكندرية فى قصرها الفخم المشرف على البحر . وتوثقت علاقة الصداقة بين الصغيرتين ، فكانت سلوى تقضى كثيراً من الأوقات مع سنية فى قصر أبيها « الزهيرى باشا » الذى كانت تشعر برغبة فى مراقبته خفية . . . وهو رجل طويل القامة ممتلىء الجسم ، له عينان حادتان يظللهما حاجبان غزيران ، وله شارب يحكم فتله . ماتت زوجته ( أم سنية ) وتدير المنزل امرأة فرنسية ، وتساعدها « الدادة شيرين » .

وكانت سلوى ترى عند سنية غلامين يكبرانها قليلا ، الأول « شريف » من ذوى قرباها ، وهو فتى جرىء ذلق اللسان ، أسرت سنية إلى سلوى أنها مخطوبة له من الآن ، والثانى « حمدى » وكانوا يسمونه « أبو فصادة » لأنه كان طويلا نحيفا يقفز أثناء اللعب قفزات بعيدة . يؤثر الصمت ويعزف على البيان . وهو من أسرة فقيرة ، مات أبوه الذى كان وثيق الصلة بوالد شريف ، فكان هذا كثير العناية به ، ألحقه بالمدرسة مع ابنه فنشأ الرفيقان معا صديقين متحابين . وكان حمدى يقدم مع أسرة شريف إلى الإسكندرية فى الصيف .

ثم توفى الجد . وقضت سلوى أياما عند صـــديقتها سنية فى قصرها . وعادت إلى المنزل فى سيارة الزهيرى باشا . وهناك رأت أم يونس ومعها سيدة قالت لها : « تعالى ياسلوى . . أنا أمك ! » .

كانت السيدة فى أبهى زينة ، وضحكت ضحكة لم ترق لسلوى ، ولم تشعر الابنة نحو أمها بأية عاطفة .

وعاشت سلوى مع أمها فى منزلها بحى السيدة بالقاهرة ، وانتقلت معها أم يونس ، عيشة رتيبة مملولة ، شعرت فى أول الأمر بشـذوذ أمها الغريب ، ولـكنه أصبح أمرا مألوفا لها بحكم العادة . تستيقظ سلوى فى الصباح وتسأل عن أمها ! فتضع أم يونس أصبعها على فمها هامسـة : « صه . . لا تعلى من صوتك . إنها نائمة ! » . . وتنام الأم حتى الظهر ، وقد تخرج فلا تراها سلوى ، وتعود ليلا وهى نائمة . . فإذا وقع بصرها عليها يوما ، بين حجرة النوم والحمام ، ابتسمت لها ابتسامة عابرة قائلة : « سلوى .. أهلا ياسلوى ! » ثم تقبلها قبلة سريعة . وكانت أحيانا تجلس معها ، وغالبا يكون حديث الأم عن ثروتها البائدة التى أضاع والدها أكثرها فى المضاربات ، ولـكنها مازالت تملك بضعة منازل وفدادين يأتى منها بعض الريع .. ثم تردف ذلك بأنها تضطر إلى التغيب عن المنزل لتقصد إلى المحامى أو إلى وكلاء أعمالها .

وكانت سلوى لا تخرج من المنزل إلا إلى الجيزة حيث تسكن سنية . فتقضى معها يوما ثم تعود . وكانت هناك ترى الوجوه إزاءها حذرة عابسة وتسمع همسا تتبين فيه اسم أمها .. وإذا رآها الباشا تجهم وحياها تحية فاترة .

وأهدت سنية مرة إلى سلوى ثوبا فاخرا ، وما رأته أمها حتى قالت لها :

ـ هل فى عزمك أن تلبسى هذا الثوب ؟

ـ وماذا على فى ذلك ؟

ـ وهذه الفتحة التى تكشف شطر الصدر . . ؟

وبعد أيام وجدت سلوى أمها قد ارتدت الثوب . .

وسافر شريف إلى فرنسا لإتمام تعليمه ، وكانت سنية تطلع صديقتها سلوى على رسائله إليها ، ولا تخفى فرحتها . . بل نشوتها بما يضمنها من قبلات . . وكانت تعبر عن هذه النشوة بضم سلوى وتقبيلها فى مرح صبيانى . .

وكانت سلوى تلقى حمدى أحيانا فى منزل سنية ، وتبادله أحاديث ودية يقول لها فيها : ثقى بإخلاصى . وكانت تلاحظ ارتباكه وسوء حاله وازدياد نحافته . وسألته مرة عما يعمله ، فأجابها بأنه يعطى دروسا فى الموسيقى والرسم لبعض الطلبة .

وذات ليلة قلقت سلوى فقامت إلى النافذة وجعلت تنظر فى الحارة .. ثم سمعت حوافر خيل تقترب ، ورأت أشعة مصباحين تنفذ فى ظلام الحارة ، ووقفت المركبة بالباب ، فقفزت منها أمها فى زى يجانب الاحتشام ، ورأت رجلا فى المركبة يعود بها بعد أن دخلت أمها .

وفى الصباح لقيت أمها ، ودار بينهما حديث عبرت فيه سلوى عن ضيقها ، ثم صارحت أمها بأنها رأتها وهى عائدة بالليل ، وسألتها عن

الرجل الذى جاءت بصحبته . فغضبت الأم وقالت : إن الرجل ما هو إلا وكيل من وكلاء أعمالى ، وأنصح لك ألا تهتمى إلا بشئونك الخاصة .

جعلت سلوى بعد ذلك تفكر فى هذا الجو الذى يحيط بأمها، وتحاول أن تفهم نوع العلاقة بينها وبين وكلاء الأعمال . . وجاء أحدهم بالليل ، وكانت سلوى قلقة ، ورأت أمها تنزل لاستقباله فى غلالة منزلية حريرية . . ورأى الرجل سلوى فحياها والتفت إلى أمها يقول : تبارك الله . . إنها عروس ! . . قالت الأم : ما برحت طفلة فى الثانية عشرة . . فأسرعت سلوى تقول : بل فى السادسة عشرة !

ثم قالت الأم فى مناقشة حادة مع ابنتها : إنه الأستاذ رجائى المحامى الذى يتولى قضاياى . .

وجاء الأستاذ رجائى مرة أخرى ورأى جمال « العروس » فى وضح النهار ، ودعا المرأتين إلى فيلم بالسينما ، وصحبهما فى سيارته الجديدة الأنيقة . وكانت الأم تبدى تبرمها بعناية الرجل بسلوى . وفى دار السينما رأى الأستاذ رجائى صديقاً له هو الدكتور فهيم الطبيب الشاب المتزن ، فقدمه إلى صاحبتيه ، ودعاه وإياهما إلى العشاء فى مطعم راقص . وشربوا بعض الكؤوس ، وشربت سلوى شراب الليمون . . وقامت الأم مع الأستاذ رجائى يترنحان إلى حلبة الرقص . وظلت سلوى مع الدكتور فهيم الذى كان يحدثها بلباقة وأدب وفى الحديث سألها : من قال لك : إن الأستاذ رجائى محام ؟ . . فأجابت : إنه يتولى قضايا أمى ! . .

ثم ينصرف الجميع ، الأم وصاحبها مخموران ، وسلوى متأففة من حال أمها مستريحة إلى أدب الدكتور فهيم . . وقد نشأت بينهما صداقة

امتدت قليلا بالمراسلة ، إذ سافر عقب ذلك إلى انجلترا لإتمام دراسته .

وحاول الأستاذ رجائى التردد إلى سلوى ، وقدم لها خاتما ثميناً ولكنها صدته ورفضت الهدية ، ثم رأت الخاتم نفسه فى إصبع أمها التى تعلم أنه قدم أولا إلى سلوى .

كبرت سلوى وصار جمالها فاتنا . هذا ما تبينه الزهيرى باشا عندما رآها تسير فى الردهة إلى حجرة سنية ، حيث ابتسم لها وحياها فى رقة . ثم دعاها مع ابنته إلى الغداء معه ، وجعل يلاطفها ويتبسط فى الحديث والدعابة . ثم أهـــدى إليها علبة حلوى فاخرة ، وقال لابنته : صحتك لا تعجبنى ، إنك تحتاجين إلى أسبوع فى الضيعة ، وتصحبك سلوى ، فتتنزهان فى الحقول وتركبان الحمير وتصطادان السمك . وقضتا يومين فى الضيعة ، وفى الثالث فاجأهما الباشا ، ولم ينس أن يأخذ معه هدية لسلوى ، وأغرقها فى الإكرام والإيناس ، وألح فى المداعبة . .

أوت سنية إلى غرفتها مبكرة متعبة ، واقترح الباشا على سلوى أن يتمشيا بالحديقـة فى ضوء القمر ، ونظر إلى القمر وحدق فى وجهها ، وأحاط خصرها بذراعه ، وتخلصت منه وهى تصيح : لا . . لا . .

وأسرعت سلوى بالعودة متعللة بأن أمها مريضة ، ولم تسمح لها إلا بقضاء يومين ، وعمل الباشا على أن يزيل أثر ما حدث بتلطفه فى الاعتذار .

وأفضت سلوى إلى أمها بما وقع لها مع الباشا وما كان من صدها له وترضيته إياها واعتذاره لها ، فأظهرت الأم استحسانها لتصرف ابنتها وحذرتها من مثل ذلك !

وفى اليوم التالى وصلت إلى سلوى وأمها صفائح من السمن والجبن والعسل وأقفاص من الدجاج . . . هدايا من الباشا . وفرحت المرأة ، وتحدثت إلى ابنتها ، فكان مما قالته :

— أحسنى لقياه . . . ابتسامة لطيفة . . كلمة ظريفة .. أهلا وسهلا بسعادة الباشا !

— ماذا تقصدين ؟

— أقصد أن نلهو به يا غبية فنستفيد منه دون أن ينال منا منالا . فشرفنا مصون لا يمس !

وتوالت زيارات الباشا وهداياه التى كان منها سيارة فخمة أرادت الأم أن تستأثر بها فى تنقلاتها الخاصة ، فنازعتها سلوى ، فقضى بينهما الباشا بأن تستعمل الأم إحدى سياراته وتترك الجديدة لسلوى .

وكان الباشا يعامل سلوى برقة ولطف بالغين ، حتى اطمأنت إليه ، ووجدت نفسها تشعر بارتفاع الكلفة بينها وبينه ، واستطاع الباشا بذلك الإغداق وببراعته وقوة شخصيته أن يستميل قلب سلوى ويخضعها لرغباته الآثمة .. ووضحت فى نظرها العلاقة بينها وبين الباشا ، بعد أن كانت تفكر فى مرماها ويقلقها غموضها .

وكان حمدى قد أبدى لسلوى رغبته فى الزواج منها ، ولم ترفض هى ، بل استمهلته ، وكان يلاحظ أحياناً نفاسة ثيابها وحليها ويبدى عدم ارتياحه إلى مسلكها مع الباشا ، فكانت ترد عليه فى جفاء واحتجاج مفسرة هذه العلاقة بأنها عطف أبوى ، إذ يعتبرها الباشا مثل سنية . . .

وكان حمدى ضعيف الشخصية ، فلم يكن يسعه إلا أن يعتذر لسلوى ويسترضيها .

وداخلت سلوى رغبة فى أن يتزوجها الباشا ، ولكنه أفهمها بلباقة أن مسألة زواجه غير ممكنة . ولما سألته رأيه فى الزواج من حمدى شجعها عليه ووعدها بمساعدته والعمل على تحسين حالته المالية بترقيته فى وظيفته الصغيرة بوزارة المعارف . ويوم الزواج بذل الباشا كرما وجهدا عظيمين ، وساعد حمـــدى على ارتداء البدلة السوداء وربط له الكرافتة .. وقال حمدى لسلوى : إنه كان يظلم الباشا بشكه فيه . والواقع أنه رجل نبيل ..

ثم مرض حمدى مرضا ألزمه الفراش بمصحة حلوان للأمراض الصدرية ، وقام الباشا بنفقات المصحة ، وكانت سلوى تزوره حاملة له الهدايا من حلوى وفاكهة وغيرها .

وشعرت سلوى بوحشة الانفراد فى بيت زوجها ، ولم تجد أنسا فى بيت أمها ، فدعاها الباشا إلى قصره وخصص لها الجناح الذى كانت تسكنه ابنته سنية التى تزوجت بشريف . ثم مات الباشا ، وتسللت سلوى من القصر بثيابها وحليها ، وساعدتها الدادة شيرين على النجاة بالثياب والحلى .

وعادت إلى بيت أمها ، وباعت السيارة ، ونفد ثمنها .. وأقامت سنية وزوجها بالقصر ، وكانت سلوى تقصد إلى صديقتها ولكنها كانت تضيق بسخفها فى الحداد والحزن المفرط ، كما كان يضيق بذلك أيضا زوجها شريف . ودعت سنية سلوى إلى الإقامة معهما بضعة أيام . ومرضت سنية ، وكانت أكثر وقتها فى الفراش فكان شريف وسلوى يقضيان

أكثر الوقت معا ، وكثيراً ما كانت سنية تنام مبكرة ، فيطول بينهما السمر فى جلسة المساء .

وتبسط شريف فحدث سلوى عن مغامراته فى فرنسا ، وذكرتها لباقته وقوة شخصيته بالباشا . . وارتفعت الكلفة بينهما ، وحل شريف محل الباشا فى قلب سلوى وسلك معها مسلكه . وعاد الرخاء إلى بيت سلوى وأمها . واستأنفت سلوى زيارة حمدى بالمصحة وكانت قد فترت عن هذه الزيارة لضيق ذات اليد .

وشعرت سلوى بقوة عاطفة شريف نحوها ، فأكثرت من مطالبها إليه ، ولم يرد لها مطلبا . ولكن هذه المطالب أبهظته فلعب القمار ليكسب ، وأغراه أول الكسب ، ثم توالت عليه الخسارات وتراكمت الديون فأفرط فى الشراب . وكان قد اتخذ لسلوى شقة فى شارع سليمان باشا يتردد عليها فيها . وعلمت سنية بالأمر ، وانقطعت الصلة بينها وبين سلوى . وساءت حال شريف حتى جعل يرهن ما تملكه من حلى . وتلقت سلوى من مصحة حلوان أن حمدى نقل إلى الدرجة الثالثة ليعالج مجانا لوجه الله. ورأى شريف أن ينهى شقاءه بإطلاق الرصاص على نفسه فى حجرته بشقة سلوى .

وتركت سلوى الشقة ، وسارت هائمة . . ذهبت إلى المصحة فأخبروها بأن حمدى قد انتقل إلى رحمة الله . وفى فترة علاقتها بشريف ماتت أمها وباعت منزلها .

ولم تدر سلوى إلى أين تذهب وكيف تعيش ؟ . . تذكرت الدادة شيرين ، وأنها كانت تحتفظ لنفسها دائما بشقة صغيرة تزورها فيها بين

حين وآخر ، فذهبت إليها ، وآوتها المرأة الطيبة ، ثم دبرت لها عملا عند « الست إنصاف » الخياطة . . وبدأت سلوى حياة كفاح شريف تائبة إلى الله مما اقترفت من آثام .

ثم شعرت بأعراض الحمل فجزعت ، ولكن الدادة شيرين هونت عليها ، ثم أحست بأن الجنين يؤنسها فى وحدتها عندما يتحرك . . وانتظرته فى شوق حتى جاء الموعد ، فذهبت إلى مستشفى الولادة بإرشاد الدادة . وأنقذ الأطباء حياتها من الولادة العسرة ومات الطفل . وجاءوا إليها بطفل جائع لا تدر أمه لبنا فأرضعته وتعلقت به .

وعرضت عليها الدادة شيرين أن تعرفها بأم الطفل قائلة لها : إنها من أسرة كبيرة ، ويسرها أن تعيش معها وترضع طفلها . وقصدتا إلى حجرة أم الطفل بالمستشفى ، فراع سلوى أنها . . سنية !

كانت الدادة قد دبرت الأمر لالتقاء الصديقتين . ومدت سنية يدها لسلوى . . فأسرعت إليها وأخذت يديها بين راحتيها تغمرهما بالقبلات والدمع يسح من عينيها .

٭ ٭ ٭

**النقد :**

ليست هذه أحسن قصة أعجبتنى للأستاذ محمود تيمور ، بل هى تالية لقصة « شباب وغانيات » التى لم أقرأ له أحسن منها ولا مثلها ، ولكنى لم أكتب عنها هنا لأنى كتبت عنها فى كتاب «غرام الأدباء» وقد أشرت هناك إلى ما فى القصة من واقع حياة المؤلف وعواطفه فى صدر شبابه ، ولا شك فى أن التجربة الشخصية والشعور بالانطباعات الأولى فى حياة الكاتب من عوامل الصدق والنبض فى « شباب وغانيات » .

وتيمور يجيد أكثر في قصصه التي تتصل بحياته وطبقته الاجتماعية العالية، لأنه يصور فيها من الداخل. أما القصص التي تناول فيها شخصيات من الطبقات الأخرى فتصويره فيها من الخارج، وما فيها من إبداع إنما هو قوة تمثيل واندماج. وكثيرا ما نراه في غير ما أبدع فيه يتسلى ويتفرج بعرض شخصيات لا يشاركها الإحساس.. يأتيك في هذا العرض بالمتعة المشوقة، ولكن النبض الإنساني يكاد فيه أن يقف. وأذكر ما قاله في ذلك صديق من أدباء الشباب، قال: إن بعض شخصيات تيمور الفقيرة تلبس « السموكن الممزق » !

وقصة «سلوى في مهب الريح» من النوع الأول ذي التصوير الداخلي. فسلوى وإن لم تكن من الطبقة الأرستقراطية في أصلها ومنبتها، إلا أنها عاشت واضطربت في جو من الأرستقراطيين، وارتبطت حياتها بحياتهم.. وباقي الشخصيات إما أرستقراطيون وإما لاصقون بهم.

وسلوى تتحدث عن القصة بلسانها، وقد أتيت بالملخص على نسق الروايه عن الغائب لما رأيت عملية التلخيص تقتضي ذلك، وأنت حين تقرأ القصة تشعر أنها تتحدث من داخل نفسها في صراحة وصدق، فتصور نفسها وتصور من معها تصويراً دقيقاً صادقا حيا.. طفلة تلهو كما يلهو الأطفال ولكنها تتأمل فيما يحيط بها وتحاول أن تفهم ما يغمض عليها، وتختزنه ثم تربط به أحداث المستقبل.. وثمرة نضجت في بستان لاحارس، له أو قل: إن الحارس — وهو الأم — لم يحرس نفسه... ثم جاء هذا الحارس يتواطأ مع السارق، وسارق بارع يسرق بالمال ما لا يقدر بمال. وصاحب حق غافل متخاذل يتهذب بين الألم والحب

ثم تصرعه العلة . وأخيراً تسقط الثمرة وتصرعها الرياح ثم تحاول النهوض .. ويجرى كل ذلك فى تيار مندفع من الغرائز والعواطف ، فيبدو لنا خطر هذه الغرائز والعواطف عندما تنطلق لا يحد من انطلاقها سياج .

وتحدثنا سلوى بصراحة ، وتنفض دخائل نفسها ، فنراها فى بعض جوانبها إنسانة فى طبعها خير ووفاء ، ويتجلى هذا فى وفائها لحمدى وحرصها على زيارته بالمصحة والإنفاق عليه فيها وحمل الهدايا إليه ، لم تتوان عن ذلك إلا فى حالات الشدة القاهرة . وكانت الريح تعصف بها من الجانبين ، من جانب الرجل وإغرائه ، ومن جانب إحساسها نحو صديقتها المخلصة الوفية ، فقد كانت تتألم لموقفها منها إذ خانتها فى زوجها وخربت بيتها وهى لا تخفى عنا ما داخلها من شعور الزهو الذى تشعر به الأنثى لأنها ظفرت دونها بالرجل .

إن القصة فى أهدافها البعيدة ترمى إلى تصوير مأساة الفتاة وتبيين الظروف والأسباب التى أدت إليها . وقد سلك المؤلف فى ذلك طريق الواقع والطبيعة ، فعرض النوازع والعواطف كما تقع للناس وبين الناس ، حيث تدفع الدوافع والمثيرات إلى غايتها . وتجر المقدمات إلى النتائج دون كلمة واحدة من وعظ أو إشارة إلى عبرة ، والحد الفاصل بين الفن وغير الفن — عندما يقصد الكاتب إلى أهداف الحياة — أن الفن يعرض التجربة كما تقع للإنسان ، إذ ينقلها إلى القارىء أو ينقل القارىء إليها ويجعله يشارك فيها ، وغير الفن يعنى بسرد نتائج التجربة فيفسدها بتدخله المباشر ، فالإنسان بطبعه لا يأخذ بالنصيحة ، ولا يحب أن يستفيد من تجارب غيره ، ومهمة الفن الصحيح أن يصور التجربة للقارىء بحيث

يشعر أنها تجربته ويبعد فى تصويره عما يخرج القارىء عن جو الاندماج فيها .

وقد سارت القصة فى المجرى الطبيعى للحياة حتى قاربت نهايتها ، وقرب النهاية اصطنع لها المؤلف حبكة ومفاجأة بعيدتين عن طبيعة ما يقع عادة ، ولعله فعل هذا ليرضى القارىء العادى الذى لا يعنيه الفن الصحيح بقدر ما تستأثر به المفاجأة وما يسبقها من إثارة ، وذلك أنه جعل سنية وسلوى تلدان فى وقت واحد وفى مستشفى واحد . . . تمهيداً للقاء المفاجىء ، ويا له من لقاء عجيب ! لقد قالت لنا حوادث القصة : إن سلوى خانت صديقتها وقوضت سعادتها الزوجية على الرغم من إحسانها إليها واتخاذها لها أختا كالأخت الشقيقة ، فكان مقتضى تلك الخيانة العظمى أن تخجل سلوى إلى درجة تحملها على أن تبعد عن سنية مدى الحياة ، وأن يظل جرح سنية ينز ، ويثير آلامه مجرد ذكر سلوى ، فلا تجمع بين احتمال الأذى ورؤية جانيه . .

وكنت أود أن يطلعنا المؤلف — فى شخصية سلوى — على جانب من مصارعة الضمير لقوى الشر والإغراء التى أحاطت بها ، فيستكمل بذلك تصوير مأساة الفتاة التى كانت ضحية للبيئة الفاسدة المنحلة التى أوجدتها فيها ظروف اجتماعية لا يد لها فيها .

وقد صنع شيئاً من ذلك فى أول حياة البنت مع أمها ، إذ جعل سلوى — فى تصوير إيحائى — تستنكر سلوك أمها وتشمئز من الجو المنكر الذى تعيش فيه . ولكنه فى أثناء سقوط سلوى ، وحتى فى محنتها الأخيرة ، لم يحاول أن يجعل القارىء يقف فى صفها باعتبارها إنسانة كريمة تستيقظ فى نفسها روح المقاومة لما سلط عليها من الإغراء ولم تستطع مقاومته .

وكان أمام المؤلف فرصة لذلك فى أثناء كفاحهما من أجل العيش الشريف . كنا نود أن يصنع لها فترة أو فترات صحو تعادل فترات الضعف التى غلبت فيها على أمرها .

لمحمود تيمور ريشة بارعة فى تصوير الشخصيات ، سواء تصويره من الداخل فيما يتصل ببيئته ، أو من الخارج فى الصور الشعبية ، وإن كان فى هذه يستثير شوقك ويطرفك ، وقلما يثير فى نفسك مع ذلك عطفاً ونبضاً إنسانيا .. وهو فى هذه القصة مصور داخلى بالغ الدقة والبراعة ، وقد عرض فيها نماذج بشرية كاملة التكوين . مثل « الدادة شيرين » تلك المرأة الطيبة المخلصة فى خدمة سادتها المنطوية نفسها على الطيبة والخير ، وقد استخدمها المؤلف فى انعكاس خيانة سلوى لصديقتها أحسن استخدام ، إذ جعلها تزْورُّ عنها بعد ما كانت تقبل عليها ، وبرغم هذا دفعتها إنسانيتها الخيرة إلى مساعدتها فى عدة مواقف وخاصة فى محنتها الأخيرة . والدادة شيرين نموذج لنوع من الناس يعيش فى القصور بطبيعة راضية شاكرة وفية ، شكران الكلاب ووفاءها .. وهى طبيعة تظل الصفات الطيبة كامنة فيها منيعة لا يؤثر فيها بعض ما يجرى فى القصور . .

و « الأم » نموذج بشرى للمرأة المنحلة التى تعمل جاهدة على أن يكون لحياتها جانب يبدو مستقيما ليخفى الجانب الآخر ، وتحاول هذه الأم أن تجنب ابنتها أخطاءها ولكنها تغلب على أمرها ، من جانب طبيعتها المنحلة ، ومن جانب إغراء المال .

ولتيمور طريقة ثاقبة فى الإيحاء إلى صفات فى الشخصيات ، والإيحاء إلى معان تتصل بهذه الشخصيات ، فسلوى تدخل القصر يوماً قبيل اهتمام

صاحبة « الزهيرى باشا » بها فترى بالحائط لوحة تصور لصوصا بحريين يهجمون على جزيرة وعلى رأسهم كبيرهم ، يمسك بإحدى بنات الجزيرة ، وراعها الشبه بين الزهيرى باشا وكبير اللصوص البحريين .. ثم كانت فى بعض الأحيان يذكرها منظر الباشا بذلك اللص الكبير . . وهذا رمز معبر عن موقف الباشا من سلوى وعن توجسها منه .. استخدمه المؤلف استخداما موحيا جميلا .. وأنا عندما أصف شيئاً من الأدب بالجمال أعنى « المتعة » الفنية التى لا يمكن أن نستغنى عنها فى الأدب مهما ألزمناه بالتبعات ..

وعلى ما يبدع تيمور فى تصوير الأشخاص بهذه القصة فإنه يحصرهم فى دوائر خاصة محددة ليس فيها نوافذ تطل على الجماعة ومسائلها العامة . كان يمكنه أن يستغل شخصية حمدى الذى يصارع الفقر والضعف والمرض فى فتح نافذة على ميدان الحياة العامة ، وكانت الفرصة سانحة لذلك فى ضيعة الباشا حيث الفلاحون وما يتصل بهم ، ولكنه جعل أصحاب الضيعة ومن معهم يتسلون بمناظر الفلاحين وحركاتهم ، واقتصر على توجيه عطف سلوى نحو ثور هزيل يجر النورج وينظر إليها بعينيه المحمرتين .. وذلك كله على رغم ما للأستاذ تيمور من جولات موفقة فى مشكلات المجتمع فى قصص أخرى منها « المزيفون » .

وقد عرض المؤلف لمسألة القدر وموقف الإنسان منه . فجعل « شريف » عندما ساءت حاله وانحدر إلى هاوية الإفلاس ، يثور على الاستسلام للأقدار ويقول : إن الإنسان ينسب إخفاقه وسفهه إلى القدر لعجزه ، وإنه يستطيع أن يتغلب على ما يعترضه إذا ما واجهه بعزيمة . وكنت أحس فى هذا الموضع بضرورة تحقيق هذه الفكرة وأتوقع أن

يكافح شريف ويتغلب ، ولكن إحساسى صدم عندما رأيته يدخل حجرته ويطلق الرصاص على نفسه . .

وعرض لمسألة الحب والزواج عندما كانت سلوى تعمل عند الخياطة مع بنات متشوقات إلى الحب والزواج ، فجعل سلوى تزرى بآمالهن فى هذا المضمار وتقول : « لو استطعت أن أنفض لهن بنات قلبى ، وأكشف لهن سريرة نفسى ، لأجفلن مذعورات ولرأين فى صحبة « الست بهية » التافهة وخضوعهن « للست إنصاف » البدينة المتغطرسة خير ما فى الحياة من مغنم . ونحن نعلم أن مسلك سلوى فى الحب والزواج كان منحرفا ، وليس الحب والزواج المنشودان كما جربت حتى تفضل عليهما العمل عند الخياطة والخضوع لغطرستها . . وسلوى تحكى لنا الأحداث بعد تقادم زمنها ، وتحللها وتعللها بعقل يقدر ويفهم ، ومن ورائها رقابة الكاتب . .

وقد خانت المؤلف ذاكرته عندما جعل سلوى تحدثنا عن حديقة القصر فى الضيعة بأنه « قد أثقلت أشجارها ثمار المانجو والبرقوق وتدلت من عرائشها عناقيد العنب » إذ نسى أنها كانت قبيل ذلك ، بيوم أو يومين فى قصر الباشا بالقاهرة وحدثتنا قائلة « وتابعنا سيرنا فى الحديقة فمررنا بشجرة برتقال محملة بالثمر ، وأنا لا أعرف وقتا من العام فى بلادنا يجتمع فيه إثمار البرتقال مع إثمار العنب والبرقوق والمانجو » .

والأستاذ تيمور يستعمل كلمات غير مأنوسة الاستعمال فى العصر الحاضر مثل « حق الذرور » بدلا من علبة البودرة وأعتقد أن هذا الجهد الذى يبذل فى محاولة إحياء كلمات ميتة وإطلاقها على أشياء حية ، إنما هو عناء باطل ، لأن الألسنة والأقلام لن تفضله على المألوف ، ولأن اللغة

# قلوب خالية

عبد الرحمن الشرقاوى

العرض :

كانوا عائدين إلى القرية بعد انتهاء العام الدراسى . . . إبراهيم الذى يروى القصة ، وهو طالب فى السنة النهائية بكلية الحقوق، والست منيرة زوجة محمود أفندى عزب الذى يكبرها بعشرين عاماً وقد قارب الإحالة على المعاش ، وهى برغم سن الأربعين لاتزال فى صباها وجمالها وفتنتها ، وابنتها يسرية الطالبة فى نهاية التعليم الثانوى ، وابنها شكرى الطالب بالابتدائية ، ثم محجوب أفندى الذى كان يعمل طباخاً عند أحد الأغنياء العزاب فى القاهرة وتزوج من بنت تعمل فى قصر الرجل العازب ورقى حتى أصبح رئيساً للطباخين وكاتبا عند نفس « البك » وزوجته أحياناً تترك حجرته وتنام فوق ، وابنته يعلمها « البيه » فى أرقى مدرسة فرنسية . .

ركب الجميع عربة « الأتوبيس » من شبرا ، ولم يعرف إبراهيم « بلدياته » من أول الأمر ، وقد جاء جلوسه إلى جوار الست منيرة .

واستدار إبراهيم بوجهه ، فلمح البنت تضحك مع أخيها وبريق خاطف يشع من أسنانها وعينيها ، فتمتم : « اللهم صلى على جمال سيدنا النبى » . . وضحكت أمها . .

لن تضيرها المفردات الطارئة ، وإنما سلامتها فى سلامة التركيب ، ولأن الإتيان بكلمات غير مأنوسة الاستعمال يخل بالفصاحة ، ويعتبر أنس الاستعمال بما يستعمله أدباء العصر وكتابه .

وهو كذلك عناء باطل ، لأننا لن نستطيع أن نسمى كل شىء باسم عربى ، فالمؤلف مثلا يسمى علبة الجاتو « علبة الفطائر » فهل يستطيع أن يدلنا على أسماء للتورتة والبودنج والبيتى فور . . إلخ ؟

والمؤلف لا يلقى أى بال إلى واقعية الحوار . فهو عنده مثل الرواية والتحليل من حيث اللغة ، ولا يجنح إلى تقريب الفصيحة من اللغة الدارجة ، بل هو يبعدها عنها كل البعد ، فأم يونس مثلا تقول لسلوى : « صه لا تعلى من صوتك » وسلوى تقول : « أفصل ثيابى وأحوكها » فيقول لها صاحبها : « إذ أنت التى فصلت هذا الثوب وحكته » ولو قيل «اسكتى» «وأخيطها» بدلا من « صه » و « أحوكها » لكان ذلك أقرب إلى الواقع ، وما ضر اللغة شيئاً .

وتيمور فى هذا المجال مثل طه حسين وسائر جيلهما من الأدباء ، ماعدا المازنى الذى كان يقصد فى حواره إلى التوفيق بين العامية والفصيحة . وقد سار على أثر المازنى بعض أدباء الجيل التالى فوفقوا فى دوائر أوسع من دوائر المازنى بمقدار ما أوسعوا من خطواتهم فى ميدان القصص .

وحيا إبراهيم محجوب أفندى لما رآه يحدث منيرة ، فبادره محجوب قائلا :

— الله . . . إبراهيم ابن عم الشيخ عبد التواب . . إزيك يا سى إبراهيم ، دا مشوار مبارك ده اللى جمع الأحبة .

والتفتت السيدة منيرة ضاحكة وقالت بصوت ناعم :

— الله . . . هو أنت إبراهيم . . إزيك يا برهومة .. إزى نينتك . . إزى باباك . . إخص عليك . . بقى قاعدين جنب بعض من الصبح وما تسلمش عليه . . ثم قالت وهى تنظر خلفها : مش تسلم على أختك يسرية ! نسيتها ؟ مش كنت خاطبها زمان وبتغير عليها موت من العيال التانيين !

وانهالت الذكريات على إبراهيم . . كان وهو فى المدرسة الابتدائية يلعب مع يسرية فى كل أجازة . . كما كان يلعب مع أختها الأصغر منها « كوثر » هو ومرسى بن فتح الله أفندى مدرس اللغة العربية فى طنطا الابتدائية . ومرسى الآن فى السنة الثانية آداب .

وسأل إبراهيم الست منيرة .

— أمال فين عم محمود أفندى .. وكوثر ..

— والنبى دا عمك محمود أفندى غلبان ! قاعد يا عينى لوحده فى عز الغارات . . لسه حياخد أجازته بعد أسبوعين ، وكوثر مع عمتها فى البلد من يوم ما خلصت امتحانها ، واحنا نقعد الصيفية دى فى البيت الجديد عقبال ما تبنى . .

وترتفع الأصوات من جهة الدرجة الثانية فى العربة ، ويعلو صوت يعرفه إبراهيم . . هو صوت « غانم » شقيق صديقه « أبو زيد » الطالب بكلية الهندسة ، وكان غانم يتنازع مع الكمسارى على بقية « البريزة » التى دفعها إليه ليقطع له تذكرة إلى « كفر الأشوح » وبذلك صار فى العربة ستة من كفر الأشوح .. وسلم غانم على إبراهيم وقال له : إنه كان فى مصر يبحث عن دواء لوالده وأنه لم يجده لأنه « مقطوع من أول الحرب . . دوا ألمانى يا سيدى . . وأخويا الباشمهندس أبو زيد راح إسكندرية يدور من ناحية تانية . . . على الله يلاقيه » .

ورأى غانم ، بين المستقبلات لمنيرة هانم ، فتاة قال لها : « إزيك يا بت يا سكينة » فاحمر وجهها ولم تجب ! وسأله إبراهيم عنها فقال : « بكرة أبو زيد يحكى لك .. عقبالكم ! » .

وتجرى حوادث القصة بعد ذلك فى القرية ، فيبدأ محجوب أفندى عمله . . إنه يأخذ البنات من القرية ، ثم لا يرجعن أبدا . . وواحدة منهن فقط رجعت فى الصيف الماضى تلبس الذهب على صدرها وذراعيها ، والأحمر على شفتيها وهى تلوى لسانها . . جاءت تشترى فدانين فى البلد ! وها هو ذا قد اتفق مع عطوة على أن يأخذه هو وابنته سكينة إلى « السراية اللى بيطبخ فيها » ويدفع له « البيه » أربعة جنيهات فى الشهر . .

ويثور لذلك غانم ، ويساعده الجميع . . الشيخ عبد التواب وابنه إبراهيم ، وأبو زيد أخو غانم وأبوهما الشيخ متولى المأذون ، ورضوان أفندى المدرس بمدرسة البلد وخاطب أخت إبراهيم . . كلهم يغضبون لفكرة سفر البنت سكينة مع محجوب أفندى .. وقد قاوموا هذه الفكرة

فى نفس أبيها عطوة الذى جسم مشكلته فى أنه لا يجد عملا . وكان الحل أن ذهب إبراهيم وأبو زيد إلى منزل محمود أفندى عزب وكلماه فى شأن إعادة عطوة إلى عمله عنده فى زراعة أرضه المحيطة بمنزله الجديد الذى بناه على الزراعية ، فقبل محمود أفندى .

وكان ذلك حلا لمشكلة أخرى .. هى مشكلة الشوق إلى رؤية منيرة هانم ويسرية وكوثر .. مشكلة القلوب الخالية المتعطشة .. قلوب إبراهيم وأبو زيد ومرسى .. شباب الجامعة العائد إلى القرية فى الصيف .

وصار منزل محمود أفنــــدى ندوة لأولئك الشباب يضاف إليهم رضوان أفندى وفتح الله أفندى ومحجوب أفندى حيث يقعدون تحت تكعيبة العنب ويقرأون الصحف ويعلقون على أنباء « الحرب » ونجد فى هذه التعليقات تيارات مختلفة. فمرسى من أنصار المحور ويحمل على حكومة الوفد الموالية للحلفاء ، وأبو زيد على العكس .. يناقش الفكرة الشائعة التى ترحب بانتصار المحور لأنه عدو الإنجليز ، وإبراهيم يميل إلى رأى أبو زيد ، وله اهتمامات أخرى ... تبدو فى سروره عند رؤية منيرة هانم ويسرية أو كوثر ومحادثتهن ، كما تبدو فى ضيقه بمرسى حين يراه كثيراً فى داخل المنزل بحجة إعطاء درس لشكرى الذى له ملحق فى الحساب .

ويظهر فى الندوة تيار قوى يثير محجوب أفندى .. إذ يعرض موضوع التبن .. تبن القرية وما يجاورها من حيث شراؤه وبيعه لجيوش الحلفاء فى مصر بثمن كبير ، ويستطيع محجوب أن يؤثر بهذه الفكرة فى محمود

أفندى وأسرته ، ويأخذون فى التنفيذ .. ويتجمع التبن فى حراسة عطوة ثم يشحن فى السفن إلى ساحل روض الفرج .

وقبل أن نذهب إلى القاهرة مع التبن ومع أبناء كفر الأشوح بعد انتهاء الأجازة الصيفية ، نتأنى قليلا فى الكفر لنرى بعض ما يجرى فيه .

العمدة المرتشى الجشع يستغل ظروف الحرب فيرسل إلى الطور من لا يدفع ، ويبقى من يدفع ، ويتستر على « بنايوتى » الإيطالى وكيل عزبة الخواجاية المجاورة للكفر ، ويشتبك غانم مع بنايوتى ويضربه ، وحين يجد الحرج فى الاشتباك مع امرأة وهى الخواجاية نفسها .. يرى فتاة من الكفر تقتحم المعركة وتمسك بشعر الخواجاية وترميها إلى الأرض وتضربها . . والفتاة هى فهيمة التى تحب غانم رغم أنه لم يخطبها وخطب سكينة بنت عطوة ، ويتحول حب غانم إلى فهيمة ويخطبها ويعقد زواجه بها بعد أن يعلن عدوله عن زواج سكينة التى ستذهب إلى مصر فى خدمة أسرة محمود أفندى حسب « اتفاقية التبن » التى اشترك فيها عطوة .

ويصدر قرار باعتقال غانم وترحيله إلى الطور ، ويعلم الجميع أن المدبر لهذا الأمر العمدة وبنايوتى والخواجاية ، ويختفى غانم ، ولا يعلم مكان اختفائه إلا بضعة أشخاص منهم أسرة محمود أفندى لأن اختفاءه كان فى منزلهم بالقاهرة ، ويتحد الكفر كله مع الجبهة المطالبة بإلغاء قرار اعتقال غانم حتى خصوم غانم . . ويوقع الجميع حتى النساء على عريضة لرئيس الحكومة يأخذها أبو زيد ويذهب بها إلى أصدقائه زعماء الطلبة الوفديين ، فيلغى قرار الاعتقال .

وفى خلال تلك الحوادث يجرى الحب فى دم إبراهيم . . نراه أولا فى شكل أحاسيس مراهقة نحو منيرة هانم وابنتيها ، ثم يتطور متركزاً نحو يسرية متخذا شكل عاطفة حادة وخاصة عندما يسافر محمود أفندى إلى القاهرة لعقد صفقات التبن تاركا أسرته بالكفر ، ويجفل إبراهيم من زيارة الأسرة لأن الرجل ليس هناك ، ولكنه لا تحلو له النزهة إلا على الزراعية عسى أن يلمح إحداهن أو عسى أن تراه منيرة هانم وتدعوه . .

ثم تنتقل الحوادث إلى القاهرة بعد أن انتهت الأجازة الصيفية ، فيتردد إبراهيم على منزل محمود أفندى عزب بشبرا ، ويكون من نصيبه أن يعطى ليسرية دروساً فى اللغة الفرنسية ، ونلاحظ أنه إلى الآن لم يفاتحها بحبه ولم يبد منه نحوها غير النظرات . كان فى البلد يعطيها كتبا تقرؤها ثم يناقشها فيها ، واستمرت العلاقة فى القاهرة « علمية » . . حتى إنه عندما أراد أن يتزحزح عن التحفظ حدثها عن جمعية الثقافة الحرة التى انضم إليها أبو زيد وعما يلقى فيها من محاضرات ومناقشات ، ثم اقترح عليها أن تذهب معه إلى الجمعية . . فاضطربت وأظلم وجهها ورفعت يدها فى وجهه محذرة :

ــ من فضلك . . الحاجات دى تروح تعملها مع واحدة تانية ! لازم تعرف إنت بتكلم مين ! وأنا كمان مخطوبة لمدرس الفلسفة بتاعنا . . إنت حاتعمل لنا زى مرسى . . إيه قلة الأدب دى . . دم !

واختلطت الوعود فى رأسه بأصوات تنذر بغارة جوية . . ودوت المدافع والقنابل . . وشق الظلام لهب حريق على الساحل ، راح ضحيته التبن . . وفى طياته عطوة المسكين .

النقد :

كتب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى رواية « الأرض » وصور فيها - كما صور فى هذه القصة « قلوب خالية » - البيئة الريفية وشخصيات فيها تصويراً جعلنا نعيش فى نفس البيئة ونشم هواء الريف ونعاشر نفس الأشخاص . ولا أتردد فى القول بأن الحوار العامى كان من أهم الألوان فى رسم الشخصيات ، وكثير من العبارات الواردة فيه تدل على دراسة دقيقة وملاحظة واعية لأنماط الناس هناك . ويظهر وميض الملامح من احتكاك لغة المدينة بلغة القرية ، فإبراهيم ابن القرية يشعر بالخجل من كلمتى « نينه وبابا » عندما تقول له منيرة هانم بلهجة القاهرة « إزى نينتك . . إزى باباك . . » لأن الدم الريفى لا يزال يجرى فى عروقه برغم السنين التى قضاها فى القاهرة . . وكذلك تحتك الألفاظ العربية الفصيحة بلغة القرية فيدل هذا الاحتكاك على تأثير معالم القاهرة وثقافتها فى أبناء الريف ويكون مثاراً للدعابة فى جو القرية ، فالطالب الجامعى يقول للفلاح : لماذا ترفع الأتربة ؟ فيجيبه : لأضع الأسبخة . . وعندما يفزع مدرس اللغة العربية من الذئب يصيح : هذا ذئب ! وعامل التليفون عندما يريد أن يتفاصح على رجال البوليس فى المركز يكلمهم « بالنحوى » فيقول لهم : « الهواء غربل فلطشنى ونمت » لكى يبرر موقفه من عدم تبليغ العمدة الإشارات التليفونية التى تقضى بالقبض على غانم .

لقد كتب كثير من الكتاب كثيراً من القصص عن الريف ، ولكنى لم أشعر بالريف على حقيقته فى كتابة مثلما شعرت به فى قصتى الأرض

وقلوب خالية ، فقد أحسست — وأنا ريفى الأصل — أننى أعود إلى البلد فى أجازة الصيف ، كما فعل البطل أو الراوى فى كلتا القصتين ، وأصاحب ناساً كالذين عرفتهم وأشم هواء طالما تنفسته . .

والجو فى « الأرض » كله ريفى ، يتشبث أهله بأرضهم ويدافعون عنها لا يبغون بها بديلا ، ولكن الجو فى « قلوب خالية » تهب عليه نسمات من القاهرة تتمثل فى العائدين منها فى الاجازة الصيفية يحملون إلى البلد جمالا ، وإن كان أصله من القرية ، إلا أنه اكتسب من العاصمة دلالها ورقتها وترفها ، كما يحملون ثقافة تتمثل فى هؤلاء الشباب الجامعيين وما حملوه معهم من كتب الفلسفة وعلم النفس والسياسة وما يتناقشون فيه هناك حول الاتجاهات العالمية ودوافع الحرب ، ويحملون إليها عبارات اللغة الفصيحة ، ويحملون إليها الإغراء بالغنى فى شخص محجوب أفندى الذى لا يشغله شىء قدر ما تشغله الرغبة فى المال من أى طريق . . طريق التبن . . طريق البنات اللائى يأخذهن من القرية ولا يرجعن . . ويدعى أنهن يعملن « دادات » عند أسر الضباط الإنجليز والأمريكان !

ولكن « كفر الأشوح » لا يعجبه أكثر تلك الأشياء القاهرية وإن كان يستروح نسماتها . . لا يعجبه أن أهل بيت محمود أفندى عزب تمتلىء بهن عيون المارين بالمنزل على طريق الزراعية ويقعدن دائما فى الفراندة تصرخ ألوان الثياب على أبدانهن البضة . . ويسخر كفر الأشوح من التواء ألسنة العائدين من القاهرة بمثل الأتربة . . وهذا ذنب . . ولا يستريح الكفر إلى محجوب الذى يقود البنات إلى المصير المجهول . . ولا يلبث محجوب أن يلفظه الكفر فى ازدراء ، ويشفق أهل الكفر

إشفاقاً ممزوجاً بالسخرية . . على الذين فتنوا بمشروع التبن .

ويظل كفر الأشوح قائما معتزا بخصائصه وملامحه الريفية الأصيلة كما صورها المؤلف .

ولعبد الرحمن الشرقاوى طريقة فى القص يستخرج بها دخائل النفوس ودفائن المشاعر ، وهى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، فهو يحكى عن الأشخاص ، وفجأة يلتفت إلى الشخص الذى يحكى عنه ليخاطبه فى سره كأنه يريد مجابهته بما يحاول إخفاءه .. وكثيرا مايستعمل هذه الطريقة فى «التريقة الفلاحى» ومن هذا التفاته إلى منيرة هانم وهى تتحدث عن المأذون بقولها : « هو الشيخ متولى عيان ؟ ربنا يشفيه . . دا أنا بحبه لله فى لله . . دا خليفة أبويا . . خليفة بابا . . . »

قال الراوى يعلق على ذلك بينه وبين نفسه : خليفة بابا ؟ المرحوم المأذون السابق كان « بابا » ؟ والله إنه لم يسمع هذه الكلمة طول عمره . وماذا كان بابا هذا ياست منيرة حتى يكون له خليفة . . يعنى خليفة على العرش ! !

ومن «التصوير الفلاحى» الظريف وصف أحد الأشخاص لما حدث من العراك بين غانم وبين بنايوتى وكيل عزبة الخواجاية ، قال وهو يزهو بشجاعته : « ده سفخ الواد الخواجه كف ، وكان يوقعه من طوله على التبن يرطن بالسبعة ألسن » .

ويطول بنا الكلام إذا ذهبنا فى تتبع الدلائل على الروح الريفية النابضة فى القصة ، ولكن لا بد من الإشارة إلى مايسودها من روح المحافظة وصيانة المرأة حتى من الحلال . فإن الراوى يعبر عن شعوره الريفى

الحقيقى نحو زواج أختـه فيقول : « لست أعرف حقيقة هذا الشعور الذى يختلط فيـه الفرح بالخجل عنـد ما نتحدث عن زواج الأخت ولا هذا الإحساس المبهم الذى يغمرنا عند ما نرى الطفلة الصغيرة التى خالطناها تصبح فجأة فتاة لها صـدر ناهد ، ثم تحمل إلى بيت رجـل ما لتـكون أما لأطفاله !! ما حقيقة موقفنا من هذا الرجـل الذى يستولد أخواتنا الأطفال . . ؟ »

وتشيع روح المحافظة الريفية فى كل حديث عن المرأة فى القصة ، وتبدو فيها قسوة الـكلام فى الريف على المتـبرجات وأكل لحومهن بالألسنة وبالنظرات . .

والبناء الفنى لقصة « قلوب خالية » كما هو فى سائر كتابة الشرقاوى القصصية ، محكم وممتع ، وهو يستخدم فيه طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب التى سبقت الإشارة إليها ، وهى تشـبه طريقة المناجاة عنـد نجيب محفوظ التى يضعها بين الأقواس ويطلق فيها العنان للبطل كى يقول لنفسه ما يتحرج منه أمام الآخرين ، وكلتا الطريقتين يتسلل بها الكاتب إلى الـكوامن والدخائل فتحقق الإحكام والإمتاع القصصى الفنى .

وقد بلغ مؤلفنا الشرقاوى فى قصتنا هذه بتلك الطريقة التسللية ، القمة فى الإحكام والإمتاع عندما جعل ابراهيم يجلس أمام أبيه صامتا وهو يوبخه . . كان صامتاً ولـكن صمته كان حقيقة أبلغ من الكلام . . فقد قال لنا كل شىء عن أسباب التوبيخ بل أكثر من الأسباب التى يعرفها أبوه ، يقول له : « يعنى عاوز تخيب نفسك على آخر سنة ! هو أنت صغير ؟ ! بس يعنى أعمل لك إيه بس ! » ولم يصرح له بما يريد أن يخيب

نفسه به ، لأن الموضوع كان محرجا . . وكان المفهوم أنه يقصد كثرة تردده على بيت منيرة هانم .

وهو يميل أحيانا فى طريقة الالتفات إلى استعمال العامية كما ترى فى « اتفضحنا » ، لأنها وسط بين السرد والحوار — أما الحوار فهو عامى بحت ، وأ كاد أقول إن عاميته « فصيحة » ! وهذا الحوار الريفى المتلون بألوان الشخصيات المختلفة يدل إما على جهد كبير فى البحث اللغوى ، وإما على قوة ملاحظة وقدرة على الاختزان فى الذاكرة . . وهو فى ذلك مثل حوار توفيق الحكيم فى « عودة الروح » الذى يمثل البيئة القاهرية البلدية . فكل منهما بليغ فى تمثيل بيئته .

ويخيل إلى أن البطل الرئيسى فى القصة ، عدا ابراهيم الذى يرويها لنا هو أسرة محمود أفندى عزب ، والموضوع الرئيسى كذلك هو موضوعها . . موضوع الريف النامى المتطلع إلى أطماع وآمال فى المدينة . . كان الناس فى رواية « الأرض » تنحصر آمالهم فى الأرض وكانت مشاعرهم مركزة حولها يفرحون بامتلاكها ويحاربون من أجلها الإقطاعيين والحكومة الظالمة . ولكن القرية فى « قلوب خالية » تطورت أو كبرت مع الراوى ، ولا شك أن فى الراوى كثيراً من ملامح المؤلف ، فصار أهلها يتطلعون إلى حياة أوسع وأفضل فى خارجها . والشباك مختلفات ، فهناك شبان يتخذون شباكهم من العلم والمعرفة ، وهناك فتيات يتخذن شباكهن من « محجوب » الذى يقودهن إلى بيوت القاهرة ويتسرب بعضهن إلى الإنجليز والأمريكان ، وهناك محجوب نفسه الذى يتخذ شباكه من البنات أنفسهن . . ثم يرمى الشبكة أخيراً على محمود أفندى عزب وأسرته ، فتتبلور الأطماع

فى التبن الذى يباع فى القاهرة بعشرة أمثاله ، ويروح عطوه المسكين ضحية هذه الأطماع .

وليس هذا هو الموضوع كله ، فهناك الروح الجماعية المعهودة فى الريف ، وقد كانت فى «الأرض» على أشدها وكان فيها كثير من الافتعال وهو افتعال مقبول لأنه مدهوس فى السياق الفنى ، وهو ضرورى لتكوين الهدف ، والافتعال هنا فى « قلوب خالية » ضئيل يسرى فى السياق الفنى بشكل أحسن مما فى «الأرض» والروح الجماعية هنا تظهر وتعلو عند محاولة نفى غانم إلى الطور ، فإن الكفر كله يقف ضد الحكام المحليين ويعمل على إنقاذه من مخالبهم ، الكفر كله حتى النساء وحتى خصوم غانم أنفسهم ..

وفى القصة نظرات جانبية كثيرة ، وهى مزدحمة بالمضامين المدهوسة فى الفن ، ومن الموضوعات الجانبية فيها ما جرى بين أبو زيد وزوجة عامل التليفون ، فقد كانت تحب أبو زيد من قبل الزواج ، وقد انقادت وهى زوجة بدافع الحب القديم ، وأقدم هو عليها بدافع الشباب الخالى ، ولكن ضميره تيقظ وأنبه ، وكانت مسألة العلاقة بالزوجات مثار نقاش بينه وبين صاحبه إبراهيم ، وفيها تصوير منفرد لهذه الجريمة ، ومن ذلك أيضاً سلب النقود من الضابط الإنجليزى ، وقد اشترك فى هذا الحادث غانم عندما كان فى القاهرة أثناء اختفائه ، وكان من الحوار فى ذلك بينه وبين أخيه أبو زيد مسألة خلقية عالية . .

وفى القصة برغم واقعيتها روح رومانسية تسللت إليها عن طريق العواطف المبهمة التى عذبت إبراهيم طول الأجازة ، ونراه يكثر من التمشى على الزراعية سارحا فى أوهامه غارقا فى تخيلاته التى تكسرت فجأة

على يد يسرية عندما أراد أن تصاحبه إلى جمعية الثقافة ، والواقع أن إبراهيم كان خفيف الظل وهو يحدثنا عن إخفاقه فى كل ما حاوله من المغامرات العاطفية .

وقد رأينا عبد الرحمن الشرقاوى فى رواية « الأرض » يتخذ لها موضوعاً وطنياً ، إذ أهل القرية يقفون ضد الحكومة الظالمة ويحاربون أنصارها فى الانتخابات ، ويصور الحكومة وحزبها : حزب الشعب الذى كان يرأسه إسماعيل صدقى ، فى صورة المعتدين على حرية البلاد الممالئين للمستعمرين ، وكذلك رأيناه فى الحلقات التى نشرها من قصة « الشوارع الخلفية » والتى صور فيها ثورة الشعب على أعوان الاستعمار وكان على رأسهم فى هذه المرة توفيق نسيم ، ولكننا لا نراه كذلك فى هذه القصة « قلوب خالية » وكانت أحداثها وقت الحرب العالمية الثانية ، والفرصة القصصية مهيأة ، ولكنه لم يستخدمها ، وكل ما أتى به شىء مما يحكى عن حوادث الجنود والضباط الأجانب فى القاهرة ، وعندما أخذ فى الحديث عن تصرفات رجال الإدارة فى اعتقال من يعاديهم أو من لا يدفع لهم ونفيهم إلى الطور ، وأراد بعض الأشخاص أن يأخذ ذلك على حكومة الوفد الموالية للإنجليز ، دافع عن الحكومة بأن هذه تصرفات رجال الإدارة الصغار . . وقال عن « مرسى » الذى كان يعيب الحكومة إنه متصل برجل من عملاء « المحور » ، كما دافع عن الحكومة بأن مقاومة النازية ليست ارتماء فى أحضان الإنجليز وإنما هى اختيار لأهون الشرين !

ومعنى هذا أنه كان هناك شران : المحور والإنجليز ، اشتركت

الحكومة فى مقاومة الشر الأول وناصرت الشر الثانى . . . وسكت المؤلف عن هذا الشر الثانى وهو الذى يلتزم « عدم السكوت » عن مثله فى كتابته القصصية وغير القصصية .

لم ينظر المؤلف إلى شخصية « منيرة هانم » نظرة ثابتة ، فقد صورها فى أكثر المواقف على أنها امرأة متبرجة تتثنى وتتقصع وتمط الكلام وتنغمه ، وصور أحاسيس البطل الجنسية نحوها ، وجعل القارىء يتشكك فيها من أول الأمر ، ثم نسى هذا وقال عنها بعد ذلك : « لم أنظر أبداً إلى جسدها وليس هو ما يملأ نفسى بالشوق إلى رؤيتها . إن لكلماتها ونظرة عينيها قدرة غريبة ، كيد شجاعة تنتزعنا لتسندنا ونحن نوشك أن نقع فى بئر » وبهذا وذاك لم يرسمها رسما محددا ، إذ ترددت نظرته إليها بين التأثر بجسدها والتأثر بحنان الأمومة ، وتردد تصويره لها بين امرأة لعوب متكسرة وامرأة أخرى لها شخصية لا تتفق مع التكسر واللعب بالإحساس .

وقد وصف يسرية من بعيد برغم الفرص المتعددة التى اجتمع بها فيها فلم يأت بشىء من أعماق نفسها ، وبدا موقفها الأخير من ابراهيم مفاجئا لم يسبق ما يبرره ويمهد له ، فكل ما فعله أن اقترح عليها الذهاب معه إلى جمعية الثقافة ، وكان الموقف ، باعتبار الفتاة من أسرة لا تخرج بناتها مع الشبان ، « لا يقتضى أكثر من عتاب ، ولا يصل إلى الشتائم والثورة و « دم ! » » .

وما أرانى ولا أرى « قلوب خالية » بحاجة إلى العبارة التقليدية : « وهذه المآخذ لا تغض من قدر القصة . . » فقد عرفت قدرها .

# أنا الشعب

محمد فريد أبو حديد

العرض :

« سيد » يحدثنا عن نفسه بأنه كان فى السابعة عشرة من عمره عندما وقع الحادث الأول الذى زلزل وجوده وغير اتجاه حياته ، وهو وفاة والده ، كان يستعد لامتحان شهادة الثقافة العامة ، وكانت نتيجة ذلك الحادث أن بدأ معيشة ضيقة مع أمه التى كانت تحرص على أن يتم تعليمه ، ولهذا لامته عندما فاتحها برغبته فى أن يشتغل بعمل يتكسب منه .

ونجح فى امتحان الثقافة العامة . وقضى العطلة الصيفية مع رفاق من أبناء الحارة ، كانوا أقل منه شأنا ، ولكنه وجد فى صحبتهم فرصاً للمصادمات وإظهار امتيازه ، وقد تغلب على زعيم الصبيان « حمادة الأصفر » وصار هو الزعيم ، وخضع له حمادة .

ولما بدأ العام الدراسى الجديد انقطع عن الدراسة ليبحث عن عمل ، وحزنت أمه ولم يعبأ بحزنها ، فلزمت الصمت ، وأول ما خطر له أن يشتغل بالتحرير فى الصحف ، إذ كان فى المدرسة عضوا بلجنة المجلة معروفا بلقب « الكاتب الصغير » وهو ميال بطبعه إلى الاطلاع ، وكثيرا ما يسجل خواطره فى قطع نثرية وشعرية ، وخيل إليه أنه إذا أرسل مقالا إلى

إحدى الصحف لا يلبث أن يتلق الرد مشتملا على بضعة جنيهات يذهب بها إلى أمه قائلا : « انظرى كيف أكسب ! » .

وكتب ، وأرسل . . ولكنه لم يتلق شيئاً ! كل ماحدث أنه قرأ مقالة باسمه فى جريدة « النبراس » التى تصدر فى دمنهور — وهى مدينته التى يعيش فيها — ففرح بذلك وإن لم يتلق الخطاب المأمول !

ولما يئس من الصحافة لجأ إلى كتابة طلبات إلى المصالح الحكومية كى يشغل بها وظيفة كتابية ، ورأى إعلانا عن وظيفة خالية بمجلس المديرية فتقدم لها ، ولكنه علم أن مفتاح بابها خمسة جنيهات تدفع مقدما للرئيس والباقى بعد القبض ، أفضى إليه بذلك حاجب الرئيس وهو يشير بأصابعه الخمس ، ثم أردف عندما رآه ساكتا : أنت حر ! وعاد سيد ساخطا يائسا من مجلس المديرية يردد فى نفسه: خمسة جنيهات.. والباقى بعد القبض ! وأنى لى ؟ !

ثم فكر مع أمه فى « الواسطة » وكل شىء فى تلك الأيام كان يحتاج إلى وساطة . .

قال لأمه : أظنك تعرفين السيد أحمد جلال ، قالت الأم فى ارتياح : جارنا القديم والله ياسيد ، لامانع أبداً . هو صاحب كلمة مسموعة والست نور الله يحميها ، والله كان من الواجب أن أزورها من زمن .

والسيد أحمد جلال صاحب محلج كبير للقطن ، وكان فى مبدأ أمره تاجراً صغيراً ، وكان قبل أن ينتقل إلى بيته الجديد من جيران أسرة سيد ، وكان سيد يصحب أمه فى زيارة الست نور ويلعب مع ابنتها « منى » ويركبها فوق كتفه كأنه حصان .

دخلت أم سيد عند الست نور، واستقبل السيد أحمد جلال فى حجرة الضيوف «سيد أفندى» الذى أعجبه أن يخاطبه الرجل بهذا اللقب .. أفندى . إذ أحس أنه رجل . وشجعه حديث السيد عن حياته العصامية على مفاتحته فى أنه يريد عملا يتكسب منه ، فزهده السيد فى وظائف الحكومة وعرض عليه أن يعمل عنده فى المحلج .

وبدأ سيد العمل فى المحلج ، يزن بالات القطن ويكتب الأرقام عليها، وكان يشعر أحيانا بضيق من صغر شأن العمل ، وأحيانا يعزيه ويقوى معنويته حسن معاملة صاحب المحلج ومخاطبته باسم « سيد أفندى » ودعوته أحيانا إلى الجلوس معه فى مكتبه . ولهذا ، ولسبب آخر ، لم يكن يجد غضاضة فيما يعهد إليه به من توصيل بعض الفاكهة أو النقود إلى منزله ، ولا شك أن «السبب الآخر» كان أهم .. وهو أن يرى منى التى أوشكت أن تكون فتاة مشرقة .. وكانت منى تقابل سيد صديق الطفولة بشوق وترحيب وتلح عليه فى مشاركتها اللعب . .

وكان فى المحلج شاب من أصحابه صبيان الحارة ،وكانت بينهما وقائع ومصادمات كان ينتصر فيها سيد على مصطفى عجوة — اسم الشاب — ويشعر باحتقاره لصفات خسيسة فيه ، منها الدس والنفاق . وقد دأب مصطفى عجوة على الدس لسيد عند صاحب المحلج ، وفى الوقت نفسه ينافق سيد ويظهر له الود . . . حتى انتهى الأمر إلى يوم قال فيه السيد أحمد جلال : « ياسيد أفندى سلم عهدتك » .

وحزن سيد ، لا لطرده من العمل ، فقد كان يفكر فى الخروج منه ليبدأ حياة حرة يتجر فيها بما ادخره ، ألم يكن السيد أحمد جلال كذلك

فى مبدأ أمره ؟ ولكنه حزن وشعر بالألم فى قلبه لأنه سيقطع علاقته بوالد منى . . . وكان شعوره نحوها قد تطور إلى حب عميق ، وكانت هى يبدو منها ما يدل على أنها تبادله الحب ، وكان هذا وذاك من بعيد .

وكان كل ما ادخره سيد عشرين جنيها ، أخذها فى جيبه وركب القطار من دمنهور قاصدا سوق إحدى القرى ، والتقى به حمادة الأصفر ، وقد ساءت حاله فالتصق به وساعده فى شراء أرطال القطن من الفلاحين ، واستمرا على ذلك طول موسم القطن ، وكسب سيد من هذه التجارة نحو مائتى جنيه عدا ما أعطاه لحمادة ، ولما فرغ من السوق عاد إلى عزلته وأحاديث نفسه التى كانت تدور حول منى ، ثم امتدت إلى الحسرة على الانقطاع عن الدراسة ، وتلافى ذلك بالاستعداد لامتحان الشهادة التوجيهية ، وبعد أن تعب وحصل على الشهادة ساءل نفسه : ماذا يصنع بها وهو لن يستطيع اللحاق بالجامعة ؟ ولم يجد جوابا غير أنها حلية جديدة كوسام يزين صدره ، ثم استأنف مغامرته فى الأسواق ، فربح فى صفقة قطن مائتى جنيه دفعة واحدة ، ففرح بها وإن كان فرحه قد مازجه شىء من السخط على الطريقة التى اتبعها معه السيد أحمد جلال فى شراء هذا القطن ، إذ كانت طريقة تاجر قديم داهية مع تاجر حديث غرير ، وكان من الممكن — لو تنبه للارتفاع المفاجىء فى أسعار القطن — أن يكون ربحه مضاعفاً .

وجاء موسم الانتخابات ، ورشح السيد أحمد جلال نفسه لعضوية مجلس النواب ضد محمد باشا خلف ، وتنافس المتنافسان فى إغداق الأموال على الدعاة وقامت المظاهرات تهتف بحياة هذا وسقوط ذاك ،

وذهب سيد إلى سرادق السيد أحمد جلال بقصد المجاملة ، فاستقبله السيد أحمد مرحباً ، ثم عرض عليه فكرة إنشاء جريدة وأغراه بالمال ، فلما ناقشه سيد فيما ينبغي للجريدة من هدف ساء ظن السيد بسيد ، فساء بينهما التفاهم ، إذ كان السيد يرمى إلى الدعاية له فى الانتخاب ، وسيد يريد العمل لصالح الشعب ، وتطور الأمر بينهما إلى تبادل الشتائم ، وغادر سيد المكان وهو موزع الشعور بين الرضا عن موقفه أمام السيد الكبير وبين الأسف لأنه كان يفضل دوام المودة بينهما .

ورشح « العجمى » نفسه ، وهو زميل قديم لسيد فى المدرسة ، فانضم إليه وعزم على أن يناصره ويجاهد معه لأن العجمى شاب مكافح يختلف عن « الأعيان أعوان الطغيان » فهو جدير بأن ينطق بلسان الذين تطحنهم الحياة ولا يجدون من يهتم بشئونهم ، وتحمس سيد لصاحبه العجمى إيمانا بهذه الفكرة ، وراح يخطب فى المحافل الانتخابية بجرأة عدها بعضهم تطرفا وثورة ، وبعضهم اعتبرها من قبيل الدعوات الإصلاحية ، وفى يوم استدعى سيد إلى مركز البوليس ، ووجهت إليه تهمة العيب فى الذات الملكية وإهانة الحكومة والتفريق بين الطبقات ، وهو « الإكاشيه » الذى كان معدا لكل حر فى تلك الأيام . وقد أعده مصطفى عجوة لسيد بإيعاز السيد أحمد جلال ، وفوجىء سيد بانقلاب فى محاكمته بالقسم على أثر محادثة تليفونية مع الضابط ، عرف بعد ذلك أن سببها تدخل السيد أحمد لإطلاق سراحه بعد أن لجأت إليه أم سيد ، ولهذا انقلب سرور سيد بنجاته من التهمة إلى غيظ وكمد ، وزاد غيظه أن « منى » خطبت لابن محمد باشا خلف ، وأن هذا تخلى عن الترشيح لصهره الجديد السيد أحمد جلال ،

وكانت الثالثة أن العجمى نزل هو أيضاً عن الترشيح لقاء تعويض كبير دفعه السيد أحمد جلال .

ويحدث سيد بهذه الأخبار صديقه عبد الحميد الذى كان زميلا له فى المدرسة وصار مدرسا ، وكان هذا الصديق قد أخذ قصة كتبها سيد وأعجبته فأرسلها إلى صديقه « على مختار » صاحب جريدة « بريد الأحرار » التى تصدر بالقاهرة ، فنشرت الجريده القصة ، وبعد أن يفضى عبد الحميد إلى سيد بتلك الأخبار السيئة يسوق إليه بشرى ، هى خطاب من على مختار يعرض فيه على الأستاذ سيد زهير — وهذا هو الاسم الكامل لبطلنا — أن يعمل محرراً بالجريدة مقابل عشرين جنيها فى الشهر سوى أجر القصص التى يكتبها باعتبار الواحدة بخمسة جنيهات . .

وسافر سيد إلى القاهرة ، وتسلم عمله فى الجريدة ، وراح يتقدم فيه يوما بعد يوم ، حتى صار كاتبا صحفيا معروفا ، واتخذ لنفسه مسكنا فى غرفة فوق سطح منزل ببولاق ، وكانت « فطومة » بنت صاحب المنزل تحمل إليه الفطور كل صباح لقاء ثمن مهين ، وهى فتاه فى الخامسة عشرة ، مرحة متطلعة إلى جو أرحب مما هى فيه ، كانت تداعب الأستاذ سيد بجرأة تخجله أحيانا . . فلا يزيد عن أن يبتسم لها ، وكان ينفحها بمبالغ من القروش تتلقفها منه فرحة .

وذات مرة كلفه رئيس التحرير حضور حفلة يقيمها وجيه معروف لولى عهد مملكة شرقية صديقة ، كى يكتب عنها على طريقته التى نالت الإعجاب من الجميع ، وأعطاه مائة جنيه ليشترى بها ما يلزم من ملابس وغيرها ، وقبيل موعد الحفلة لبس البدلة السوداء التى اشتراها واشترى

معها طائفة من القمصان والكرافتات والمناديل الفاخرة ، فأقبلت عليه فطومة ودهشت لمنظره ، وأرادت أن تعبر عن إعجابها وشكرها لإهدائه إليها أحد تلك المناديل ، فطوقت عنقه بذراعها ورفعت وجهها إلى وجهه ، ولكنه تخلص منها برفق .

وذهب الأستاذ سيد إلى الحفلة ، فهاله ما فيها من ألوان الترف والبذخ ، ولم ترتح نفسه لمنظر الحسان اللائى وقفن صفين فى المدخل وقد لبسن ثياب جوارى ألف ليلة وليلة . . وجلس فى ركن من أركان البهو الكبير ، ورأى حسناء تجلس وحدها فى ركن قريب ، قال له عنها زميل صحفى : حاذر ياصديقى فإنها جبارة ، هى الست هدى العبقرية .. صحفية وسياسية وموردة للجيوش وواسطة خير . . فى كل شىء وغير ذلك . . وصاحبة صالون مدهش يؤمه الكبراء والزعماء . .

وجاء الأمير ، وبدأت الحفلة ، وتأودت أغصان الحسان ، ودارت الكؤوس وعزفت الموسيقى فلباها الراقصون مع الراقصات . وجلس الأستاذ يرقب ويتأمل ، ودهش عندما رأى الست هدى تتأبط ذراع رجل يعرفه هو السيد أحمد جلال الذى أصبح نائب دمنهور ، ثم غادر الأستاذ سيد الحفلة وتعمد أن يمر بالسيد أحمد ويسلم عليه مبديا دهشته من وجوده ، فقام هذا مرتبكا وحياه ودعاه إلى الجلوس معه ، وتركه سيد فى ارتباكه ودهشته ، واعتذر منصرفا إلى مكتبه فى الجريدة حيث كتب الموضوع الذى أعدت له الصفحة الأولى مع الصور التى أخذها المصورون المرافقون له .

وفى اليوم التالى صدر العدد ، وهجم بعض المتظاهرين ، بإيعاز

من الحكومة وحزبها ، على دار «بريد الأحرار» وقذفوها بالحجارة ، ولم يهتم على مختار بهذا ، وإنما أهمته مصادرة الجريدة وما يترتب عليها من خسارة مالية . وقدم الأستاذ سيد مع رئيس التحرير إلى المحاكمة ، فسئل عما جاء في مقاله من عبارات مثل « العهد التعس » وعما يقصد من كلمة « العهد » التي يشار بها إلى الملك . . فأجاب بشدة ودفع التهمة بلباقة ، وأجل التحقيق ، وسر على مختار بالإفراج عن العدد .

ثم قرأ سيد زهير نعى السيد أحمد جلال في الصحف ، فأسرع إلى دمنهور ، وهناك عرف أن السيد توفى على أثر صدمة نفسية أصابته من فضيحة ملخصها : أنه كان يعاشر إحدى النسوة الفاسدات في دمنهور معاشرة سرية بعقد زواج عرفي ، وأنها لما رأت تشاغله عنها في القاهرة وعلمت بعلاقته بالست هدى حنقت عليه ، واستغل صديقها حمادة الأصفر حنقها لابتزاز المال من السيد ، فأذاع هو والمرأة في المدينة هذا الأمر ، وخاصة أنها ولدت منه ولدا ، وهددا باللجوء إلى القضاء .

وذهب سيد إلى دار السيد ، وقام بواجب العزاء ، واستقبلته منى وأمها وشكرتاه على مواساتهما ، وأثارت منى — بكلماتها الحزينة عن سمعة أبيها — نخوة سيد ، فاهتم بالمسألة واتصل بحمادة الأصفر وهدده ، وعرض عليه مائة جنيه لقاء الوثيقة العرفية ، وظل به حتى أخذها منه بعد أن دفع إليه المبلغ ، ثم مزقها وعاد إلى القاهرة دون أن يذهب إلى منى مكتفيا بشعور الرضا في نفسه .

واستأنف عمله بالجريدة ، ولكنه كان يشعر بقلق على رغم توفيقه في العمل واطراد نجاحه ، إذ كان خيال منى يتراءى له دائما ، وكان

يسمع من داخل نفسه صوتين ، يقول أحدهما : إنه يتطلع إلى فتاة تع للزفاف إلى غيره ، والآخر : يتهمه بالتقصير ، وأنه لم يواجه موقفه مع منى بصراحة .

وكذلك استأنف حياته بالقاهرة فى حجرته على سطح المنزل ولم يفكر فى مغادرتها برغم تضاعف أجره . . وقد قاطعته فطومة منذ دفعها عنه عندما تعلقت برقبته ، فكفت عن خدمته وأحس بوحشة من ذلك ، وتبين فى أعماقه أنها سبب بقائه على سطح منزلهم . . ثم لمحها فى ركن من السطح على هيئة الغاضبة ، فبادرها بالحديث ، ولكنها عنفت فى دلال وتدللت فى عنف . . . وتركته — كما قال — واقفا مثل شخص تعرضت له جنية وتركته مخبولا وتسلقت أشعة القمر .

وسافر بعد ذلك إلى دمنهور ، ولقى منى فى منزله ، إذ دعتها أخته إلى حفل شاى عندهم ، وخلا بها فى موقف عاطفى لم تسفر فيه العاطفة عن وجهها ، إذ لم يتعد الأمر التعبير عن الصداقة وذكريات الطفولة ، وعرف منها أن محمد باشا خلف والد خطيبها أخذ من مالها عشرة آلاف جنيه قال : إنه دفعها إلى حمادة الأصفر مقابل السكوت عن الفضيحة ، ولم تكن منى تعلم أن حمادة أخذ من سيد مائة جنيه وأن سيدا أخذ منه الوثيقة ومزقها ، وقد علمت بذلك فيما بعد .

ولما عاد سيد إلى القاهرة قدم عليه حمادة الأصفر فى هيئة تدل على اليسار والنعمة ، مما جعله يعتقد أنه احتال وأخذ ثمن السكوت من الجانبين ، فاستقبله فى جفاء وغلظة ، وأنبه على سفالته فقال له حمادة : قل ما شئت فى سفالتى فأنا وغد سافل لا يهمنى شىء ؛ ولكننى لم أكن يوما لصا ولا

محتالا . . والذى حدث أن محمد باشا خلف استدعانى وطلب أن يوظفنى عنده ليضمن سكوتى عن الفضيحة ، ولكنى رفضت وطلبت منه ألف جنيه أتجر بها ، وقبل وربحت فى التجارة نحو عشرة آلاف جنيه ، ثم رددت إليه الألف التى اقترضتها منه .

وكثرت كتابات سيد الوطنية المتحمسة ، وكثر استدعاؤه للتحقيق وسؤاله عما يقصد بكلمة « العهد » التى تفسر بأنها الملك ، وسجن رهن التحقيق ، ومرض فى السجن وحول إلى المستشفى ، وكان حمادة الأصفر فى خلال ذلك صديقاً وفياً ، إذ دأب على زيارته وحمل الهدايا إليه ونفح الحراس بالنقود ، وأخبر أهله فحضروا من دمنهور وجعلوا يزورونه مع حمادة .

واستمر حبس سيد رهن التحقيق ، وأعيد إلى سجن الاستئناف بعد شفائه ، ووطن نفسه على حياة السجن ، بل عمل على أن يستفيد من تأمل المسجونين وتعمق دخائلهم ، وأتيح له من الفراغ ما استغله فى القراءة والكتابة . وبعد خمسة أشهر حكم عليه بالسجن ستة أشهر . وقضى الشهر السادس وخرج . وكان على مختار قد حوكم هو أيضاً ولكنه خرج من سجنه قبل سيد ، ولما التقى الاثنان فى دار الجريدة صدم سيد الذى مازال على حماسته ، بالتغير الذى طرأ على على مختار من جراء ماقاساه فى السجن ، إذ داخله اليأس والحرص على أن يجنب نفسه العذاب مرة أخرى ، ولهذا لم يلب سيد طلبه فى استئناف العمل بالجريدة وقاطعه مدة كان يغشى فيها المجتمعات الوطنية .

ثم التقى سيد بعلى مختار ، وعزما على استئناف المعركة ، وكان

عنوان المقال الذى شغل صدر الجريدة فى اليوم التالى : الخيانة القومية الكبرى — فضيحة الأسلحة الفاسدة — نقتل أبناءنا بأيدينا ! وتوالت الفضائح والمفاسد ، إذ أعقب ذلك فضيحة القطن وفضيحة البورصة وفضيحة تجار المخدرات . . الخ . ونشط على مختار من الفتور الذى طرأ عليه ، وعاد مكتبه فى كل ليلة منتدى سياسياً يضطرم بالثورة .

وكان سيد يتلقى من أخته خطابات تبلغه فيها سلام منى . . حتى جاءه منها يوما خطاب يفيد أن منى تريد مقابلته ، فسافر إلى دمنهور وتوجه تواً إلى منى فقابلته هى وأمها ، وعلم منهما أن محمد باشا خلف يتلاعب فى ثروتهما ، ويطالب بعقد زواج ابنه من منى ، وأن منى تسوف فى هذا الزواج ، وأن الباشا يعرض عليهما أن ينزلا له عن الأراضى مقابل ما زعمه من تراكم الديون عليها ، وتعرض منى على سيد أن يتولى إدارة المحلج الذى لم يبق لهم غيره ، فيعدها بالتفكير ، ويخرج سيد على تردده وجموده أمام منى فيفاتحها بحبه ، ويجد منها ما يدل على أنها تبادله الحب .

وجعلت أفكار سيد تتنازعه ، بين أن يجيب رغبة منى ، وبين تلبية نداء المعركة التى تناديه ، وقال له صديقه عبد الحميد : « تستطيع أن تكتب ما تشاء وأنت هنا » وعاد إلى القاهرة حيث قضى أسابيع ، ثم انتهت القصة بحادثين وقعا فى وقت واحد ، الأول ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، والثانى ورود برقية إليه هذا نصها :

« تم الاتفاق ، وفى انتظارك اليوم حسب الاتفاق — منى » .

النقد :

اضطررت إلى الإسراع فى تلخيص هذه القصة ، وخاصة عندما حمى وطيس المعركة خشية التورط فى الإطالة ، لأنها قصة طويلة متفرعة الأحداث ، وأرانى بذلك قد جردتها من أكثر اللحم والدم ولم أبق إلا القليل منهما لاصقا بالهيكل العظمى . فالقصة تمثل الكفاح والصراع بين الشعب وبين ما اصطلح عليه من المظالم والمفاسد ، أو من تألبوا عليه من الظالمين والمفسدين ، والمؤلف الأستاذ محمد فريد أبو حديد من أكثر شيوخ الأدب انعطافا نحو طبقات الشعب المكافحة ، وقد اتخذ بطل قصتنا هذه « أنا الشعب » رمزاً للشعب نفسه كما يخيل إلى ، فهى تنطق بلسان الشعب الذى استغله المترفون وسلبوه ما حقق لهم الترف والسيطرة ، ولكنه لم يستكن لهم إلا ريثما تمكن من توجيه الضربة إلى مقاتلهم ، فسيد زهير ، أو هذا الشعب ، يريد أن ينال حقه فى حياة كريمة لائقة به ، ولكن الأوضاع الفاسدة تقف فى سبيله ، فيعمل جاهدا على تحطيمها ، فينال منها ، إذ يكيل لها الضربات ، وتنال منه فتنكل به ، ثم يكون النصر فى آخر الأمر لصاحب الحق .

يسجن سيد فى مركز البوليس بطريقة مهينة قاسية لأنه تجرأ على « الباشجاويش » فيشعر بالألم ويثور قائلا : « افتحوا لى أيها المجرمون ، أنا الشعب . . » ثم يسأل نفسه : هل أنا الشعب الذى يخطب السادة وده فى دعايتهم الانتخابية ومن أجله ينشئون مقالات التمجيد فى الجرائد اليومية ؟ وقد استدعى إلى المركز لتوجيه تهمة العيب فى الذات الملكية

إليه بإيحاء السيد الذى كان بطلنا يناصر منافسه فى الانتخاب ، ثم يحن عليه فيتوسط فى إطلاق سراحه ، فيقول ساخرا فى نفسه : أنا الشعب !

كان أولئك « السادة » يعتدون على الشعب ثم يعطفون عليه برفع بعض ظلمهم عنه . . وكانت وطنيتهم تتمثل فى هذا « العطف » !

ومنذ اليوم الذى وقف فيه سيد إلى جانب عمال المحلج يمنع عنهم أذى مصطفى عجوة المتسلط عليهم من قبل صاحب العمل ، ويمسح على رأس صبى يتيم فى العاشرة من عمره يعمل فى المحلج بقروش يشترى بها الطعام والدواء لأمه المريضة ، وقد عاقبه المتسلط — لتأخره قليلا — بقطع هذه القروش فأشفق سيد عليه وأعانه ؛ منذ ذلك حمل سيد أمانة الكفاح من أجل هؤلاء المعذبين ، وبدأ الصعود مع الشعب ، يجاهد الصاعدين ضد الشعب ، وكان هؤلاء يصعدون نحو غايتهم ومنافعهم الشخصية ، وهم أنواع مختلفة تبدأ برأس الدولة الذى كان ، وتنتهى بالزبانية المتسلطين أمثال مصطفى عجوة ، ولكل غاية يبغى الوصول إليها على أشلاء الشعب ، والغايات تعلو إلى الثروة والترف والحكم والسلطان ، وتسفل إلى قروش فى مرتب صغير ، يسخر فى مصلحة كبير .. وكانوا يتبادلون لقب « الوصوليين » و « النفعيين » وكل منهم جدير باللقب .

أما سيد فكان من الصاعدين مع الشعب ، كان يؤلمه ويؤذيه أن يرى المظالم والفوضى فى الداخل ، والتقهقر فى السياسة الخارجية ، ويرى السادة فى نفس الوقت على أحسن ما يكون الناس رضاء عن أنفسهم وعن الحياة ، فهذا وزير يقيم حفلة ساهرة تشغل أخبارها الصفحة الأولى من الجريدة الكبيرة ، لأنه بلغ الخامسة والستين من عمره المبارك . .

وهذا احتفال آخر بزواج ابنة الغنى الكبير المعروف وقد تدفقت فيه الشمبانيا فى القصر الشاهق حتى أغرقته بالمرح ، وهذه صحيفة تزف البشرى بأن ميادين المدينة ستضاء بالأنوار الساطعة لأتفه مناسبة و . . إلخ . .

راح سيد يتلمس منافذ للكفاح ، وجدها أول الأمر فى ترشيح صديقه الشاب لعضوية البرلمان ، فجعل يبث أفكاره وهو يتمثل نفسه ناطقا بلسان المساكين الذين تطحنهم الحياة ، ولما وجد الفرصة الكبرى فى الصحافة هرع إليها وجعل مقالاته تحت عنوان « أنا الشعب » وظل يصرخ بآلام الشعب ، ويتتبع فضائح مستغلى الشعب ، فيعرضها ويحمل عليهم دون أن يؤثر فيه إغراؤهم أو تهديدهم ، وقاسى فى ذلك ماقاسى من الاضطهاد صابرا مثابرا ، ثم منطويا على آلامه وآماله فى مرحلة انتشرت فيها سحب اليأس ، حتى جاء يوم ٢٣ يولية فانجابت تلك السحب ، وأشرقت شمس توجه الأشعة القاتلة إلى الجراثيم ، وتبعث نور الأمل فى نفوس اليائسين .

هذا هو الموضوع الذى عرضه المؤلف ، وهو موضوع من صميم الواقع ، وقد عالجه بالتصوير الصادق النابض ، إذ لاءم بين الاستهداف الموضوعى والعملية الفنية ، وأكثر شىء يعجبنى أن يؤدى الكاتب موضوعه من خلال صوره من غير أن تطغى الأفكار على ملامح الصور ، فتلك الأحداث والمساخر نعرفها ، وقد أصبح الكلام فيها من الحديث المعاد ، ولكن سياقها ، أو بكلمة أدق « سأسأتها » بمقادير مناسبة فى طيات هذا التركيب الخيالى الواقعى ، وإضافة بعض التوابل إليها من الخواطر واللفتات ، كل ذلك يحملها إلينا فى جدة جديدة ، ولهذا يعتبر هذا العمل الأدبى من الإنتاج المتكامل الذى تظهر فيه ظلال هذه الثورة .

والكفاح فى القصة كله كفاح إيجابى . فإلى جانب الكفاح الوطنى للبطل الذى يرمز إلى الشعب ، نجد أنواعا أخرى من الكفاح الإيجابى فى القصة ، نجد حب البطل نفسه الذى يسير الصراع فيه بين الانقباض والأمل بجانب ذلك الصراع الوطنى بين حقوق الشعب ومصالح المعتدين عليها . نجد سيد « العامل » يداخله الشعور بصغر شأنه إزاء ابنة صاحب العمل التى يهفو إليها قلبه ، ولكنه يكافح هذا الشعور بقوة الإيحاء الذاتى ، ثم يكافح الوضع نفسه بالعمل الجاد ، ويشعر بالانتصار فى عدة مواضع: شعر به عندما جاء إلى السيد الكبير كتاجر كبير مثله يبيع له صفقة القطن الكبيرة ، وعندما استطاع أن يرد له الإهانة بمثلها وهو يناقشه فى فكرة الجريدة التى يريد إنشاءها ، ثم عندما لقيه فى حفلة استقبال الأمير . ظل سيد يكافح هذا الفارق بينه وبين حبيبته حتى عاد إليها كاتباً كبيراً وصحفياً مشهوراً ، وقد بذل لها المساعدة التى تدل على قوته وشخصيته ، وهنا استطاع أن يتغلب على انقباض نفسه أمامها فأعلن لها حبه وظفر بها ، وإعلان الحب ليس مسألة سهلة دائماً ، وهو هنا كان لابد أن يسبقه ذلك الكفاح كى يؤدى إلى ما يرجى منه .

وفى القصة كفاح مصور فى صورة عميقة عجيبة ، هى صورة حمادة الأصفر الذى يكافح بؤس الحياة وشظف العيش بالمرح ثم بالتحلل من أعباء الفضائل إلا فضيلتين . . إنه يدمن شرب الخمر ، ويفرط حتى يتمرغ فى قيئه . . ويلقى بنفسه فى أحضان النساء الفاسدات ويعايشهن ويستغلهن أحيانا فى بعض مآربه . وهو يجذب إليه سيد بالتودد والخدمة النافعة ، وسيد يرى نفسه إزاءه مشدودا بين العطف عليه وتقدير

اضطراره وبين احتقاره والتقزز منه ومن تصرفاته ، حتى يكشف لنا المؤلف عما تنطوى عليه نفس هذا الإنسان من خير . . إنه يفعل ما يفعل ، ولكنه لا يسرق ولا يحتال ، وهنا يصل بنا المؤلف إلى القمة فى تحليل هذه النفس العجيبة . إن حمادة الأصفر المنحل المسكين يترفع عن أن يكون مثل محمد باشا خلف الذى جمع ثروته من سرقة الأيتام والأرامل ، والأمراء المعتوهين ، إنه لم يحتل على ورثة السيد أحمد جلال ويأخذ منها عشرة آلاف جنيه كما زعم الباشا الوصى . . وانما اقترض منه وتاجر وربح ، يقول حمادة لسيد :

« لو كنت أعرف السرقة يا سيد أفندى كنت أشبع واكتسى على الأقل ، ولا أخدم اللئام ولا أنافق ولا أشرب الزفت ولا أرتمى على أكوام الطين ، لو كنت أعرف السرقة والنصب ما كنت أجرى بسرعة نحو الموت وأتمنى يومه . قل لى : دون ، قل لى : حقير ، قل لى : حشرة ، أصدق . لكن لص ؟ لا . لع ! أبداً . حمادة القذر الجائع العارى هو جسم حمادة ـــ العظم واللحم والدم ، ينافق ليأكل ويشحذ ليأكل ، ويتذلل ليجد السقف فى الليل ، ويرضى بالإهانة من أجل القلب الجائع . ولكن من تحت حمادة الجسم يوجد حمادة الصحيح ، حمادة الحقيقى — لا يرضى أن يسرق أبداً » .

وإذن فنحن هنا أمام قضية تشبه القضية التى عرضها توماس الصغير فى روايته « غادة الكاميليا » إذ صور مرجريت الساقطة النبيلة . . بجانب والد حبيبها أرمان ، الذى لم يتورع عن استغلالها والتضحية بها فى سبيل

الاحتفاظ بمركز أسرته وسمعتها . فالمقابلة هناك بين مرجريت ووالد حبيبها كالمقابلة هنا بين حمادة والباشا .

والفضيلة الثانية فى حمادة الأصفر هى الوفاء ، فقد كان مثالا للصديق الوفى العارف لفضل صديقه فى محنته . . لم ينس أفضال سيد عليه ، فدأب على زيارته فى السجن ، واستقدم أهله من دمنهور ، وبذل لصديقه مابذل من الخدمة والمساعدة فى هذه الشدة .

ونرى حمادة فى هذه الفترة الإنسان الذى انجابت عنه الظروف القاسية التى كانت تهوى به ، وأصبح فى حالة من اليسر مكنته من التخلص من الأوحال ، وأخذ طريقه صاعدا فى الحياة ، فالإنسان ما هو إلا وليد الظروف ونتيجة ما يحيط به فى هذه الحياة .

والمؤلف ناقد حصيف ، وهل الأديب إلا ناقد ؟ فهو يلقى نظرات كاشفة على من حوله وما يحيط به ، فيحلل وينقد ويوجه ، وقد تعرض لعدة مسائل من الشئون العامة ، فالعمال الذين يجمعهم السيد أحمد جلال ليطعمهم فى شهر رمضان لا يشعرون نحوه بالشكران لأنهم يرون أنه ينتقص من أجورهم ما يطعمهم به ليمن عليهم ، ويرون فى ذلك إذلالا لهم وإرضاء لرغبته فى الظهور بمظهر الرجل الكريم . ويقف سيد على حقيقة شعورهم ويصارح بها السيد مشيرا عليه أن يلغى المآدب ويستبدل بها رفع الأجور .

وتمتزج الالتفاتات الفرعية الناقدة مع الخطوط الكفاحية الأساسية فى القصة ، ومع تصوير الأشخاص فى تسلسل طبيعى ومنطق واقعى ، فيتكون من كل ذلك « مركب » هادف ممتع معاً .

والمؤلف يعتمد على الحركة النفسية أكثر من الوصف العادى المفصل، فهو ليس من القصاصين الذين يسهبون فى وصف كل صغيرة وكبيرة من الأثاث والملابس وغيرها ، فيطيلون من غير فائدة فيبعثون الملل إلى نفس القارىء .

وقد قلل الأستاذ أبو حديد فى هذه القصة مما كان يصنعه فى قصصه السابقة من تطويل الموقف عند عرض أفكار معينة يريد أن يبثها ، مما يشبه أن يكون درساً يلقى — قلل من ذلك هنا إلى الحد المقبول ، وكذلك وصف الطبيعة الذى كان مغرماً به، فهو هنا عابر وبقدرما يرتبط بالموقف، فالبطل مثلا يمر بمنزل أنيق له سور من أشجار شائكة تتسلق عليها أعواد مزدهرة ذات أزهار بديعة الأشكال والألوان ، ويربط بين هذا المنظر وبين موقفه من حبيبته التى تبتسم له من بعيد ولا يستطيع الوصول إليها .

وأبرز شىء يسترعى الانتباه فى تصوير الأشخاص بهذه القصة ، هو الحوار ، إذ يجرى المؤلف الحديث بطريقة تصور شخصية المتحدث أدق تصوير ، كما سبق فى حديث حمادة الأصفر ، ومثل قول أم سيد لمنى عندما زارتهم فى المنزل « ألف نهار أبيض يا حبيبتى شرفت يا منى ويوم سعيد بحضورك إلينا . زيارة عزيزة يا حبيبتى ! » والكاتب يستعمل فى ذلك — كما ترى — لغة دارجة واقعية لا تكاد تخرج عن الفصيح . وأريد هنا أن أستدرك على ما قلته فى فصل سابق من أن المازنى هو فقط من بين شيوخ الأدب الذى كان يصنع الحوار الدارج الفصيح فإن الأستاذ أبو حديد — فى هذه القصة فقط — قد صاغ هذا النوع من الحوار على نطاق واسع وناجح . ولم يكن يصنع ذلك فيما مضى . وقد شعر فى هذه

القصة أن اللغة ملكه وله أن يركبها ليصل بها إلى ما يريد، ولم يجعل نفسه ملكا للغة تتصرف فيه كما تتصرف فيمن يضعون أنفسهم فى خدمتها بدلا من أن يجعلوها فى خدمتهم .

وقد كسا المؤلف هذه الأحداث من روحه ودمه ، فأنا أعرفه فى كتابته كما أعرفه فى واقع الحياة ، وكثيراً ما رأيت ملامحه فى قصصه ، حتى القصص التاريخية التى كتبها فبث فيها نفسه وقد رأيته « مركزاً » فى هذه القصة . . فسيد فى الحب مثلا — كما صوره المؤلف فى « غرام الأدباء » — يحب ويطوف بالحبيب من بعيد .. يخلق الحوائل والحواجز كى يقف وراءها محجباً عن التقدم والمفاتحة ، وقد رأيناه يوغل فى ذلك إلى درجة غير مقبولة عندما دفع مائة جنيه فى الوثيقة ومزقها دون أن يشعر التى فعل هذا من أجلها ، وكان موقفه معها بعد حفلة الشاى غاية فى التردد والإحجام، والمؤلف مع ذلك جعله يمسك بيدها فى عدة مواقف ويضغط عليها ، وهذه الحركة من لوازم الأستاذ أبو حديد مع أصدقائه ومن يؤثرهم بمودته، ومن لوازمه الدفعة فى الكلام عندما يرى الحق، ليس هذا فى واقع الحياة فحسب بل كذلك فى تصويره لأشخاص قصصه ، كما نرى هنا فى شخصية سيد ، وكثيراً ما يقول هنـــا وهناك : « فقال فى دفعة ! » .

ويذكرنا المؤلف بوصفه لفطومة فى مغاضبتها وتدللها بشخصية الفتاة البدوية فى قصة « أزهار الشوك » التى صورها كزهرة نبتت فى برية ، فقد شبه فطومة بزهرة ماردة فى غابة استوائية . وفى مستشفى السجن وقعت فى يده راوية ( ردمويا ) الغجرية الحسناء فذكرته بفطومة ،

وحدثنا عن قصة هذه الغجرية المتوحشة التى تنطق بما يقول قلبها وأفاض فى ذلك معجباً بهذه الشخصية . وهذا من ظلال شخصية المؤلف فى القصة، فإن تكراره الوصف والتعبير دائرا حول فتاة برية يدل على تجربة فى حياته مع مثلها ، ومن ظلاله كذلك هـــذا الجمود العجيب مع فطومة المرحة الفائرة . . فهى تقص عليه مغازلات شاب آخر لها فيخجل وتضحك هى من خجله . . وأخيراً ينحيها عنه وقد أدنت منه قطوفها . ومما يتصل بهذا ما نلاحظه من ابتعاد المؤلف عن الأوصاف الجسدية فى المواقف الغرامية ، إذ يقصر التعبير فى الغالب على العاطفة الخالصة .

ويدلنا كل ذلك على مقدار اندماج المؤلف فى القصة ، وعلى ما فيها من الصدق الفنى الناشىء عن تصوير التجربة التى مارسها ، وقد ذهب فى هذا الاندماج إلى الحد غير المقبول عندما جعل بطل القصة يقول لنا فى أولها وفى ختامها : إنه هو الذى كتبها فى السجن ، وهنا يشعر القارىء بالإفاقة من الاندماج فى الجو الواقعى للقصة ، ويكاد يتطلع إلى غلاف الكتاب ليرى اسم المؤلف : أهو سيد زهير أم محمد فريد أبو حديد !

وقد أجاد المؤلف تصوير شخصية البطل ، غير أنه يظهره فى الكفاح كأنه المجاهد الوحيد فى الأمة ، وكأن لم يكن هناك غيره هو وعلى مختار الذى كان أكبر همه رواج الجريدة وانتشارها وسلامتها من المصادرة والخسارة المادية، وذلك مع أن المفروض أن الشعب كله يغلى ويوشك على الثورة . ولا بد أن نسأل : أين الأحزاب ؟ فقد رأينا المعركة الانتخابية تدور فى دمنهور من غير أحزاب . . فلم يظهر فى الميدان مرشح حزبى واحد .

وكانت هذه المعركة تصلح لتصوير مهازل الأحزاب وسفالاتها ، وقد صنع ذلك عبد الحميد السحار فى « الشارع الجديد » .

ويظهر من تصوير المؤلف للوقائع المتصلة بالعمل الصحفى أنه لم يطلع على الجو الداخلى للصحافة ، ولم يخبر ماوراء كواليسها ، ولو فعل لما جعل جريدة كبيرة بالقاهرة تطلب محررا من دمنهور كل ما تعرفه عنه أنها نشرت له قصة ، وتطلب أن يكتب فيها القصة بخمسة جنيهات عدا مرتبه الشهرى .. والواقع أن صحافتنا لا تدفع مليما واحدا لقاء أى أدب .. لأن الذى تدفعه إما أن يكون لصاحب اسم مشهور ، فهى تدفع ثمن الاسم ، أو تدفع لقاء عمل صحفى غير الأدب ، وليس مما يقع ولا من مصلحة العمل أن يقبل فيه من لا خبرة له به ، فضلا عن أن يدعى ويطلب ويسعى إليه بخطاب . وعلى أبواب الصحف كثير ممن يفوقون سيد زهير صلاحية للعمل الصحفى . وليست كتابة قصة أو عدة مقالات بالتى تدل على الخبرة بالمهنة . وقد أحس المؤلف بهذه الطفرة فى تشغيل سيد بالصحافة ، فجعل رئيس التحرير يعهد إليه فى قراءة « البروفات » لمدة شهر لا يعمل فيها غير هذه القراءة بحجة أنها وسيلة لمعرفة أفكار الزملاء بطريقة دقيقة ، وفى هذا التصرف عدة ثغرات منها أن الكفاية الصحفية ليست — كما هى واقعة — أفكارا . وإنما هى جهود عملية ، والفكر المجرد أقل عناصرها شأنا إن عد من عناصرها .

كل ذلك يدلنا على أن المؤلف كتب عن الصحافة من الظاهر ولم يستبطن دخائلها . ومن قبيل ذلك أن سيد زهير الذى أصبح صحفيا يبحث عن شىء يشغل به وقت فراغه ويجد وقتا فى أول الليل للقراءة

العميقة . . يذكر المؤلف ذلك للدلالة على أن البطل دائم الشوق إلى الاطلاع ، وكان ذلك حسنا فى تصوير حياته بالسجن ، أما فى أثناء العمل الصحفى فالذى نعرفه أن الزملاء لايجدون وقتاً لشىء من ذلك .

ومن قبيل نظرة المؤلف إلى مجرى العمل الصحفى من الخارج ، هذا الإغداق الذى يفعله صاحب الجريدة مع سيد فيضاعف أجره بعد قليل دون أية إشارة أو تلميح ، ثم يعطيه مائة جنيه دفعة واحدة ليشترى بدلة يحضر بها حفلة !

ويظهر أن الأستاذ أبو حديد يؤمن بكرامات الشيخ أبو طاقية الذى كان مقامه أو قبره مجاورا لمنزل البطل بدمنهور ، فقدكان يقرأ له الفاتحة كلما مر به ، والمسألة إلى هنا مسألة مرورفقط . . ولكنه فى ختام القصة لايجد تعليلا لثورة الجيش ضد الطاغية إلا أنها لكرامة من الولى الذى كان يؤدى فيه البطل صلاة الفجر بعين دامعة . . فيم إذن كان الجهاد والكفاح ؟ ! وهل يرى المؤلف كرامات الأولياء من بواعث الثورات ضد الفساد والطغيان ؟ !

ولم أفهم فائدة الوضوء فى قوله فى ذلك الختام : « وسرت كما أنا بوضوئى ودهشتى ، قاصداً إلى المحطة» وكان يزمع السفر إلى دمنهور ، فهل يعتبر هذا السفر من قبيل الأعمال الدينية التى يجب أو يستحب لها الوضوء . . . ؟

لم يعجبنى هذا الختام غير الواقعى لهذه القصة الواقعية التى أعجبتنى .

# على باب زويله

محمد سعيد العريان

**العرض :**

« طومان » فتى فى العاشرة من عمره ، يعيش مع أمه « نور كلدى » فى خيمة من خيام قبيلة من قبائل الجركس فى بلاد الكرج «جورجيا» . وليس للأم غير طومان ، فقد تركها زوجها وهو جنين فى بطنها ، للبحث عن رجل قتل أباه ولم يعد . .

وفى إحدى الليالى تسلل أحد تجار الرقيق إلى الخيمة ، واختطف طومان وفتاة أخرى من الحى يتيمة الأبوين اسمها « مصرباى » . . ولم يكن ذلك غريباً على هذه القبيلة ، فقد كان أولادها — فتياناً وفتيات — مطمع أنظار السلاطين وذوى الجاه ، لجمالهم ورقة طباعهم ، ومطمع النخاسين لغلاء أثمانهم .

جلست نور كلدى بين نساء الحى حزينة باكية ، قالت لها إحداهن :

— الصبر يانور كلدى ! . . ما أرى النخاس الذى خطف طومان ومصرباى إلا ذاهبا بهما إلى مصر ، تلك البلاد التى تصنع السلاطين من المماليك ، ولعلهما غداً أن يصيرا سلطاناً وسلطانة على عرش فرعون !

— ياليت كل ذلك لم يكن . . لقد كنت ادخر طومان ليقفو آثار أبيه حتى يلقاه حيا أو يدرك ثأره !

ثم سمعت نوركادى إحدى النساء تقول : إنها رأت أمس « نخاس خوارزم » فهتفت فى عزم :

ـ لا لن أتركه يذهب به بعيداً ، سأدركه ، لابد أن يعود إلى طومان العزيز .

أما طومان فقد ذهب به وبصاحبته مصرباى نخاس خوارزم ، وباعهما فى أحد البلاد لتاجر رقيق آخر ، وأخذهما هذا وسار بهما إلى حلب حيث باع طومان لقيانصوه الغورى نائب قلعة حلب من قبل الأشرف قايتباى سلطان مصر . وانتقلت مصرباى إلى تاجر ثالث سار بها إلى القاهرة حيث باعها فى سوق خان الخليلى . وكان الذى اشتراها واحداً من خاصة الأمير أقبردى دوادار السلطان ، وذهب بها الرجل إلى بيت الأمير ، وهناك أعجب بها أخوه كرت باى ، وأحبها ، وذاع أمر هذا الحب . ثم رأتها السلطانة فى بيت أختها زوجة الدوادار ، فرغبت إلى أختها أن تهبها لها فتتخذها وصيفة من وصيفات البلاط ، فقالت الأخت :

ـ قد كان لك ذلك ياخوند ، لولا كرت باى . . فليس يهون على أن أفرق بينهما .

ـ يحبها إلى هذا الحد ؟

واتفقت الأختان على عتق مصرباى ليتزوجها كرت باى ، وتذهب إلى القصر وصيفة حرة ومخطوبة لكرت باى .

كانت مصرباى فتاة طامحة تتطلع إلى أن تبلغ ما كانت تبلغ مثيلاتها

من الجوارى الحسان فى ذلك العهد . . كانت تتطلع إلى العرش ! ولم لا ؟ . . ألم يكن هؤلاء الأمراء المملوكون للسلطان مثلها ومثل طومان ، خطفوا من بلادهم وبيعوا للسلطان ، ثم تدرجوا فى مراتب المملوكية حتى صاروا إلى هذه المناصب ؟ أو لم يكن السلطان نفسه مملوكا للسلطان السابق ؟ . . ولا بد أن يخلف هذا السلطان واحد من مماليكه الكبار ، فلم لا يصل الدور إلى كرت باى ؟

لقد أحبت مصرباى قبل ذلك فتى اسمه « خاير » قدمه أبوه مع إخوته هدية إلى السلطان رغبة فى المستقبل . . مستقبل هؤلاء المماليك . وكلمة « أحبت » هنا ليست دقيقة ، فإن هذه الفتاة لا يشغلها إلا التطلع . . إنما أحبها الفتى ، وهى استراحت إليه عسى أن يبلغ بها المستقبل المأمول !

كانت مصرباى تقف وراء السلطانة وهى جالسة إلى المرآة ، وليس فى خاطرها إلا خيال واحد . . أن تكون هى الجالسة وعلى رأسها التاج ووراءها وصيفة ، وليكن السلطان من يكون . . كرت باى ، أو خاير ، أو حتى قايتباى العجوز ! وقد رأت الأمانى تتدانى لها ، إذ فتن بها الصبى محمد بن قايتباى ، وكذلك خاله قنصوه الأشرفى . ثم زفت إلى كرت باى وانتقلت إلى داره .

عاش طومان فى قلعة حلب سيداً صغيراً فى كنف سيده الكبير قنصوه الغورى ، ولم يكن يؤرقه إلا ذكرى أمه ووطنه ، وتحدث مرة مع الغورى فقص عليه خبره ، فقال له الغورى :

— إنك بعض أهلى يا بنى !

تذكر الغورى ماضيه ، إذ كان فى موطنه بلاد الكرج شاباً طائشاً

دفعه الطيش إلى قتل رجل من عشيرته ، وفر فى ركاب قافلة من تجار الرقيق ، حتى انتهت به المقادير إلى مصر مملوكا من مماليك السلطان . وقد تعقبه أركماس ( أبو طومان ) ليأخذ منه ثأر أبيه . . ثم برز له فى بعض دروب القاهرة شاهراً فى وجهه السيف ، ولكن جملا هائجا ألقى أركماس على الأرض وداسه بأخفافه ، ونجا الغورى مستيقنا أن غريمه قد مات .

وكان طومان يقص قصته ، فلما ذكر اسم ابيه « أركماس » شحب وجه الغورى وهو يردد فى صوت خافت :

— أركماس ! أركماس !

— أنت تعرف أركماس ؟ !

— نعم يابنى ، لقد كان أركماس . . أخى . . إننى أنا عمك !

وأعتق الغورى طومان ليصير حراً ويدعوه الناس : ابن أخى الغورى !

وثارت الفتن والاضطرابات فى القاهرة عقب وفاة السلطان ، وتنازع كبار المماليك على العرش ، واشتبكوا فى معارك دامية ، وكان المنتصر منهم لا يلبث على العرش إلا ريثما يقتله آخر ويأخذ مكانه ، وكان منهم قنصوه الأشرفى الذى فتن بمصرباى ، وقد تزوجها بعد موت زوجها وتحقق أملها فصارت سلطانة .

وعاد الغورى من الشام إلى مصر ، وقد رسم لنفسه خطة ، هى أن يرقب الأمور من بعيد متظاهراً بالزهد فى العرش ، برغم أنه من أقدم المماليك وأعرقهم فى خدمة السلطان وأن يترك المتنازعين على العرش يتفانون ،

ويعمل على إذكاء النزاع والحروب بينهم حتى يفنوا ويخلو له الجو ، وكان طومان أخلص رجاله ، يعمل معه فى الخطة نفسها ، وقد اتصل بمصرباى فى فترة ترملها ، ولقى عندها فتاة حسناء فتنته وفتنها ، وهى شهد دار بنت اقبردى ، وكان طومان يستغل المرأتين فى الوقوف على أخبار المؤامرات والدسائس التى تدبر فى القصور .

ونرى طومان ينفرد — من دون المماليك — باتصاله بالشعب ، فيتردد على حلقة الشيخ الصوفى أبى السعود الجارحى ، ويعرف هناك رجلا مشوها غريب الأطوار اسمه « أرقم » يقف بين يدى الشيخ ويطلق البخور . . وكان الحديث فى مجلس الشيخ لا يقتصر على الدين ، بل كان يتناول السياسة . وكان أرقم ساخطا على الغورى ، ولكنه كان يستريح إلى حديث طومان ويسر برؤيته ، وكذلك كان طومان . وذات مرة سأل طومان الشيخ عن أرقم فقال له : ترك الحلقة ولا يعرفون أين ذهب . ثم عرف طومان بعد ذلك أنه اشتغل بضرب الرمل ، وأطلق عليه الناس منذ ذلك « أرقم الرمال » .

وأفنى كبار المماليك بعضهم بعضا ، وصار الغورى سلطانا ، وأصبح طومان دواداره الكبير ، وتزوج شهد دار .

وفى خلال ذلك يتصل « خاير » بمصرباى ، وقد صار من أمراء المماليك ، فتجد فيه طيفاً جديداً لأمانيها المتجددة فى العرش بعد فجيعتها فى زوجها السلطان الأشرفى ، فتبث فيه روح المغامرة ويعاهدها على تحقيق الأمانى.. ثم يصير بعد ذلك أميراً لحلب من قبل السلطان الغورى .

وتطلع السلطان سليم العثمانى إلى مصر ، وأعد العدة ، وعلم الغورى

فأعد عدته وجهز جيشاً كبيراً وسار به إلى الشام ، وترك طومان نائباً عنه فى مصر . واشتبك الجيشان ، وانتصر المماليك أول الأمر ، ولكن خيانة الأمير خاير وجان برى الغزالى أمير حماة ومدافع العثمانيين التى لم يعرفها المماليك بعد . . كل ذلك قلب الأمر فانهزم جيش الغورى . وقتل الغورى نفسه . . وكان قتله بيد « أرقم الرمال » الذى خرج مع جيش مصر متظاهرا بالتطوع للجهاد ، ثم اغتنم فرصة انهزام الغورى وفرار أعوانه من حوله وواجهه بضربة من سيفه وهو يصيح فى نشوة :

— خذها من يد أركماس !

— أركماس ؟ !

— نعم أركماس الذى ظننت يوما أنه مات تحت أخفاف البعير الهائج، قد نشر اليوم ليأخذ منك ثأر أبيه !

إذن فأرقم المسيخ المشوه هو أركماس أبو طومان ، شوهته أخفاف الجمل حتى صيرته شخصاً آخر ، وعندما أفاق وسئل عن اسمه قال فى إعياء: ارك . . . ولم يستطع أتمام الاسم ، فقالوا : أرقم .

وعاد أرقم مع العائدين إلى القاهرة يتسلى ويتكسب بحرفته ضرب الرمل ، وبدا لامرأة عجوز فى القافلة أن تكشف عن بختها . . نظر إليها أرقم مدهوشا شاكا . . وتكلمت فأيقن أنها . . نور كلدى . . زوجته . . إنها لم تزل منذ خطف منها طومان تتبع آثار تاجر الرقيق ، وتبحث عن ولدها ، وها هى ذى قد بلغت غزة فى الطريق إلى مصر ، عرفها أرقم ، أما هى فلم تعرفه لأن شكله قد تغير وصار إلى مسيخ مشوه يتقزز منه النظر . . وأنبأها بأمرها كأنه يقرأ سطور الرمل . فوثقت به المرأة ، وسارت

فى صحبته لا يفترقان ، وقد قال لها : إنه صديق طومان وسيعمل على توصيلها إليه .

أصبح طومان باى سلطاناً بعد الغورى ، ووجه كل همه وجهده إلى الدفاع عن مصر ، فبذل كل ما فى وسعه لمحاربة العثمانيين ، وكانت الحرب سجالا . وكانت نور كادى وأرقم يتتبعان أنباء الحرب فى لهفة وأمل وشوق ، وقد أدركا أن طومان باى يقاوم الأتراك المغيرين ، ولم يكن كل من معه من المماليك ، فقد هب شعب مصر — الذى يعرف دائماً كيف يهب وقت الشدائد — برغم مايقاسيه ، ولكن خيانة الطامعين فى ولاية مصر والشام تحت الراية العثمانية حطمت كل محاولة لرد العدو المغير . وختمت المأساة بخيانة شيخ الأعراب الذى لجأ إليه طومان يستعينه على الدفاع ، فتظاهر بتأييده ، وأبلغ السلطان سليم فحضر جنوده وأطبقوا على طومان وحملوه مغلول اليدين إلى السلطان سليم .

وتردد سليم فى أمر طومان لما رأى من رجولته وقوة روحه ، ومال إلى أن يبقى على حياته ، ولكن المماليك الطامعين حذروه منه وزينوا له قتله .

وسمع أرقم ونور كادى ضجة وزياطا فى شوارع القاهرة ، وياهول ما رأيا . السلطان طومان باى فى آخر مواكبه : فارس على سرجه يحيط به جند الأتراك ، والناس على جانبى الطريق يبكون ويصرخون ، والسلطان مغلول اليدين يرد إليهم تحياتهم إيماء بالرأس وابتساما على الشفتين !

وتبددت صرختها فى الزحام ، وقال لها أرقم : صبرا يانور كادى ، وسنلحق بالركب لنرى !

وراح الوالدان يشقان طريقهما بين أمواج الناس ، حتى بلغا باب زويلة بعد تعب ومشقة . وكان على الباب جسد معلق قد شدت حول رقبته الحبال . . وهتفت المرأة والرجل معا :

— ولدى طومان !

وانفلتت المرأة تحاول أن تشق الزحام لتصعد إلى الجسد المعلق ، ولكنها سقطت مغشيا عليها .. ثم أفاقت .

وأنزل الجسد الميت عن الباب بعد ثلاثة أيام ، وحمل إلى قبة الغورى حيث دفن .

وصار الناس يرون كل يوم أربعة أشخاص يحضرون إلى قبة الغورى قبل مطلع الشمس ، فيقضون ساعة مطرقين لا يتكلم أحد منهم إلى أحد، ثم يمضون لشأنهم ، أولئك هم أرقم الرمال وصاحبته، وشهد دار بنت أقبردى وطفلتها الصغيرة نور كادى بنت طومان باى !

وجلس خاير بك، أوخاين بك ، على عرش مصر تحت الراية العثمانية، وصعدت إليه فى القلعة عروسه مصرباى . .

* * *

**النقد :**

عنيت فى تلخيص هذه القصة بالعناصر التى يعتمد عليها السياق الفنى ، أما الحوادث التاريخية فقدمررت بها عابرا ، والأستاذ محمد سعيد العريان

حين يتناول مادته القصصية من التاريخ يزاوج بين الناحيتين الفنيـة والتاريخية ، ويتبين ذلك فى هذه القصة ، « على باب زويلة » كما سأوضح ] وفى قصصه الثلاث الأخرى « بنت قسطنطين » و « شجرة الدر » و « قطر الندى » . وكان جورجى زيدان قد كتب قصصا من التاريخ الإسلامى ، يتخيل فيها حادثة حب يجرى عليها الحوادث التاريخية ، وهو فى خياله يقصد إلى مجرد التشويق والحكاية دون عناية كبيرة بالتحليل أو معالجة موضوع إنسانى ، وهو من الناحية التاريخية يختار الرواية أو الرأى الذى يتمشى مع ذلك الخيال . أما العريان فإنه يحلل ويعالج موضوعاً ، ومع ذلك يحقق التاريخ .

وثمة مؤلفون يتخذون من التاريخ للفن إطاراً فقط ، ويجعلون قلب الصورة كله للخيال والموضوع ، مثل فريد أبو حديد فى « زنوبيا » و « عنترة » وباقى قصصه ، ومثل طه حسين فى هامش السيرة .

وفى قصة « على باب زويلة » ثلاثة موضوعات ، أحدها تاريخى ، والآخران فنيان ، فقد كشف المؤلف الغموض عن فترة مهملة من تاريخ مصر ، وصور عصر المماليك أو الحقبة التى وقعت فيها حوادث القصـة من هذا العصر تصويراً تاريخيا دقيقا ، يشعر فيه القارىء بالمتعة الأدبية لمزجه بالتصوير الفنى الذى يتغلغل وراء « كواليس التاريخ » . . فيبين ما يجرى فى القصور بين الجوارى وفتيان المماليك من عواطف ودسائس تؤثر فى السياسة وتوجه مجرى أمورها ، واستخدم فى ذلك شخصية مصرباى التى كانت تلعب بالسلاطين والأمراء وتحركهم كما يحرك اللاعبون قطع الشطرنج .

أما الموضوعان الفنيان فهما : ناحية إنسانية ، وأخرى قومية . تتمثل الأولى فى خطف الغلام وعمل النخاسين ، وعواطف الأم وإصرارها على البحث عن ولدها ، وفى أطوار أركماس من خروجه للثأر وحياته بمصر ، يطاق البخور أمام الشيخ طورا ، ويصير أرقم الرمال طورا آخر .. الخ .

وقد صور المؤلف كل ذلك تصويرا تشعر فيه بحرارة قلبه يبثها فى انفعالات الأناسى الذين ابتدعهم أو ابتدع وقائعهم . وهو ينقل القارىء إلى جو الحوادث ويحكم الصلة بينه وبين أبطالها . وقد تتبع المرأة منذ خرجت من بلاد الجركس فى طريق البحث عن ولدها حتى وصلت إلى مصر ، وتغلغل فى أعماق نفسها ، وحلل عواطف الأم المنكوبة فى وحيدها ، ولهفتها عليه وهى تعلم أنه حى تائه منها فى خضم الحياة .

ومن ذلك تصويره لها فى حلب ، إذ قال لها صاحب الفندق الذى عرفت أن النخاس نزل به ومعه طومان ، قال لها : إن ابنك قد بيع فى حلب ولا بد أنه يعيش فيها . وظلت سنين تجوس أسواق المدينة ، تتفرس فى وجوه الرجال بعينين ظامئتين فيهما لهفة وحنين وتعترض سبيل الشبان فى الطرقات ، حتى ظن الناس بها الظنون . . وعرفها كل فتى فى المدينة وكل رجل ، تلك الجركسية الملثمة التى تبرز للرجال فى حنايا الدروب على شفتيها ابتسامتها وفى نظراتها الحنين واللهفة !

هاك صورة مما حدث لهذه الأم الهائمة على وجهها فى حلب .. مر بها مملوك شاب فجعلت تتفرس فيه وعلى شفتيها ابتسامتها المتلهفة ، فنظر إليها وقال ساخرا :

ـ ابعدى أيتها العجوز ؟ قد عرفتك !

وضحك ، وجاوبته ضحكات أصحابه ، وقال واحد منهم :

ـ أرأيت ! . . كذلك تستوقف كل شاب يعبر الطريق ، وإنها لعجوز فى خريف العمر ؟

وقال آخر : لست أشك فى أنها مجنونة !

وقال ثالث : لو كانت مجنونة لتساوى فى نظرها الشيوخ والشباب ، وإنما هى مفتونة !

إذن فهذا هو رأى الناس فيها . . . يغشى عليها ، ثم تفيق وتستأنف البحث ، فإن قلب الأم يحدثها أنه على قيد الحياة .

ويلتقى الأب والأم ، ويعرف أرقم الرمال أنه أبو ذلك الشاب . . الذى عرفه فى حلقة الشيخ وهفت إليه روحه . . وهنا صورة أخرى لهذا الأب الشريد . لقد شفى نفسه بأخذ الثأر لأبيه وظن أنه فرغ . . ولكن القدر يسوق إليه زوجه ، وهو يحكم على نفسه بأن يحول بينها وبينه تغير جسمه وسوء منظره.. ويسير معها إلى ابنهما طومان الذى جلس على عرش مصر ، وهل يلقيانه كما لقى يوسف أبويه على العرش ؟ . . كم دون ذلك من أهوال !

أبوان يضربان فى طرق القاهرة وابنهما على العرش ، والأحداث العصيبة تحول بينهما وبينه . . ولكنهما لم ييأسا ، فما زال الأمل يرسل إليهما شعاعه . . ولكن الرجل يعانى من بلاء اضطراره إلى التنكر مع ما يقاسى من الشوق إلى لقاء ولده .

أما الناحية القومية فى القصة ، فهى خط الاتجاه الذى وجه إليه المؤلف سير الحوادث ، إذ عنى بالتعبير عن نبضات الشعب وآلامه وما كان يقاسيه من ظلم المماليك ثم هبة الشعب للدفاع وتكتله مع المماليك الذين ثبتوا لقتال العثمانيين بقيادة طومان باى .

صور تلك النبضات فى عدة مواقف ، منها الحديث الذى جرى فى مجلس الشيخ أبى السعود الجارحى ، عن أعمال الطيش والنزق التى أتاها السلطان الصبى العابث محمد بن قايتباى ، من هتك الحرمات والاعتداء على الأعراض ، حتى كان يقتحم البيوت ومعه أعوانه وجنوده ، فيهتك ، ويقتل من لا تستسلم ، تحدثوا عما حدث لزوجة رجل من أصحاب الشيخ رآها السلطان فطمع فيها ، فأرسل إليها رسوله ، فلما تأبت عليه سعى إليها على قدميه ، وحاولت أن تفر بعرضها فأدركها بسيفه وقضى عليها . وأبدى أحد الجالسين استنكاره وتحمسه فقال الشيخ : نعم ولكن ماذا تملك أن تفعل ! . . قال رجل آخر : نملك أن نجود بأرواحنا ، وما حرصنا على الحياة وهؤلاء المماليك يسوموننا العذاب ؟

ولا يفوت المؤلف أن ينطق أحد الجالسين فى مجلس الشيخ — وهو المملوك طومان — بالكلمة الحازمة ، إذ يقول حينما يسمع حديث الاختلاف بين الطوائف :

— على رسلكم أيها الإخوان . . إنما نحن جميعاً أبناء مصر : جراكسة وأعرابا ، ومصريين . . كلنا سواسية فى الحق والواجب . . وإنما يغلبنا السلطان الجائر على أنفسنا بهذه العصبية التى تفرقنا .

ولم يكن الشعب يملك من المقاومة أو التعبير عن السخط إلا التندر والسخرية والشماتة بسلطان يصرعه مملوك ليخلفه على العرش ، وكان هناك بعض الأعراب الذين يعبرون عن سخطهم بالغارات المتتابعة على أطراف المدينة . كما كان بعض أبناء البلد يؤلفون العصابات للتخويف والإرهاب وانتهاز الفرص . وقد اشترك الزوج الذى قتلت زوجته فى قتل السلطان العابث .

ولم يستطع الشعب أن يفعل أكثر من ذلك ، لأن السلاطين قد ضربوا الذلة عليه ، ولكنه وإن غلبه اليأس لم تمت فضائله ، وقد وقف الموقف الجدير به فى وجه الغزو التركى . قال قائل من الشعب : ليس يزعم أحد أن الغورى حكم فعدل ، ولكن الأمر اليوم ليس هو أمر السلطان الغورى، وإنما هو أمر مصر التى توشك أن تطأها خيل الأعداء، وكان الأمر كذلك فلم يستسلم المصريون للعثمانيين إلا بعد قتال واستبسال .

صور المؤلف موقف الشعب هكذا ، وسواء ذلك وقع أم لم يقع.. فهو تصوير فنى هادف ولو كان خيالا .

وهو خيال لا يتنافر مع الواقع من حيث الشعب نفسه ، أما من حيث « طومان » المملوك الأجنبى ، فلا يتنافر مع الواقع أن يكون شعوره طيباً إزاء البلاد التى قسم له أن يعيش فيها ، وأن يستميت آخر الأمر فى الدفاع عن ملكه فيها ، ولكن الذى لا يتسق مع الواقع أن يكون الباعث له شعوراً وطنياً مصرياً أصيلا كما أراد المؤلف أن يصوره،

ويبلغ التعمل فى هذا التصوير مبلغه فى موقف بين طومان باى وزوجته، إذ أبدى تخوفه على ابنته نور كادى الصغيرة إذا أمعن فى حرب العثمانيين وقتلوه، فقالت له زوجته: ليست نور كادى الصغيرة بأعز من وطنك الغالى ياطومان! ثم تقول له وهى تودعه: سأباهى بأننى امرأة السلطان الذى حارب وحيداً دفاعاً عن وطنه حتى استشهد فى ساحة الجهاد!

تقول ذلك شهد دار بنت آقبردى أحد أمراء المماليك أعداء الشعب، الذين يحتقرونه ويسومونه الخسف والطغيان!

وقد رسم المؤلف عدة شخصيات رسماً دقيقاً، فقدم لنا – مثلا – «مصر باى»، نموذجاً للمرأة الطامحة الحالمة بالمجد، وحلل كذلك شخصية الغورى وأخلاقه تحليلا موفقا، ولكن بطل القصة الأول «طومان» يبدو لى أن المؤلف اضطر بحكم خط الاتجاه إلى أن يصوره كالأبطال الأسطوريين الذين يرسمون كمثال لا يأتيه النقص من أية ناحية من نواحيه، وظل يرتفع به حتى كساه ثوبا من الوطنية غير مفصل على قده فبدا فيه غير لائق.

وقد جعل المؤلف طومان – بحكم ذلك الخط – يحزن لوفاة بنت الغورى حزنا شديدا، مع أنها كانت عقبة فى سبيل زواجه من شهد دار التى يحبها، إذ أراد أبوها الغورى أن يفرضها عليه فرضاً، لا أقول بأن طومان كان يجب أن يفرح لوفاتها، وإنما أسأل: لماذا يحزن ذلك الحزن الشديد؟ ولماذا تكون هى بالنسبة له المرأة التى تصنع رجلها كما يصورها المؤلف، إذ يقول تفسيراً لحزن طومان: «ومصاب الرجل فى صاحبته

أحق بالعزاء من مصاب الأب في ابنته .. إن الأب هو يصنع بنيه وبناته، فهم كالثمرة من شجرته : تسقط الثمرة عن فرعها ، والشجرة هي الشجرة لم تنقص شيئاً فى رأى العين ، ولكن المرأة تصنع رجلها وتبنيه ..الخ ».
والواقع أن هذه الفكرة من حياة المؤلف نفسه ، أراد أن يبثها هنا فجاءت فى موضع غير ملائم لها . وشتان بين زوجة محبوبة وخطيبة مفروضة . . .

ويظهر أن الأستاذ العريان يعتقد صحة الأشياء الغيبية كضرب الرمل والتنجيم ، لم تخل قصة من قصصه التى ذكرتها فيما سبق من مثل هذا، دون أن يلقى ضوءاً يكشف عن زيفها ،وفى هذه القصة قدم لنا رجلين يضربان الرمل : أبو النجم وأرقم ، وجعل نبوءات الأول تتحقق حتى عندما تنبأ للغورى بأن رجلا أول اسمه (س) سيتولى العرش من بعده، فانصرف ذهن الغورى إلى الأمير « سيبان » ولكن المؤلف احتفظ بهذه السين لسليم الأول، أما أرقم فكان موقف المؤلف معه هو الموقف الذى كان ينبغى له مع أبى النجم ومع الآخرين فى القصص الأخرى ، ذلك أنه صور أرقم على أنه يتسلى ويبعث الآمال فى النفوس ، دون أن يكون لنبوءاته أى أثر .

وكما جعل المؤلف المماليك الأجانب تنبض قلوبهم بالوطنية المصرية، جعلهم يتمثلون بالشعر العربى . . وقد كانوا يترفعون عن النطق بلغة المصريين الدارجة ، فضلا عن العربية الفصيحة ؛ وذلك أنه صور لنا مصرباى وصاحبها خاير أديبين يفهمان دقائق الشعر العربى ، فقد التقى الحبيب بحبيبته بعد فراق طويل فقال :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

أما هى فلا ترى ما يدعو إلى الظن بألا تلاقيا ، فتقول له : إنى أتغنى فى خلواتى بشعر الشاعر :

فيارب كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة ويرعاهما ربى .. فلا يريان

ويفهم خاير مرماها فيقول : وماذا إن رؤيا يا مصر باى ؟

ويصف المؤلف معركة « مرج دابق » بين المماليك والعثمانيين، ويعد من أسباب انتصار العثمانيين فيها تسلحهم بالمدافع وإطلاق القذائف التى أفزعت المماليك ، لأن هذا الاختراع لم يكن قد وصل إلى مصر . ثم قال لنا فى وصف الإعداد للدفاع عن القاهرة « وبنى حائط يستر المكاحل والمدافع وقد فغرت أفواهها ذات اليمين وذات الشمال» ولم يبين لنا كيف حصل المماليك على هذه المدافع .

وأسلوب الأستاذ العريان يجمع بين الواقعية والسهولة ،وبين الجزالة العربية والتركيب المكين ، وهو يتدفق فى كتابته على خلاف أستاذه الرافعى الذى كان يدور حول نفسه ويصنع « الدوامات » فى كتابته ، والغريب أنه معجب بأدب أستاذه مع اختلافه عنه فى ذلك وفى غموض الأستاذ ووضوح التلميذ ، وفى طبيعة الموضوعات التى طرقها كل منهما وطريقة تناولها .

وقد ساق الأحداث التاريخية المتزاحمة المتشابكة ، بذلك الأسلوب الطلى الذى يمتع القارىء ولا يمله .

وأسلوب العريان ينم عن صاحبه ، وهو أسلوب مبتكر لا ترديد فيه للقوالب المأثورة على رغم أصالته العربية . ولم أجد فى اتساقه غير ثغرة واحدة ، إذ لمحت فى أول القصة تعبيراً لا يتفق مع الواقع النفسى ، وذلك عندما وصف ليلة اختطاف طومان ، إذ قال : فى ليلة من ليالى الربيع هب نسيمها رخاء . . وجعل يصف حتى نسى أن النسيم رخاء فقال : إن زفيف الريح حرك الخيمة . وكان هذا الزفيف هو الملائم للحادث المفجع ، ولم يكن ثمة أى داع للربيع والنسيم والرخاء .

# الشارع الجديد

## عبد الحميد السحار

**العرض :**

تقع أحداث قصة الشارع الجديد فى حارة ضيقة قذرة بمدينة الإسكندرية . فهذا يونس وهذه زوجته فاطمة يسيران بالحارة صوب بيتهما الجديد، هى ضائقة به كارهة لموقعه بالحارة قريباً من البيت الذى كانوا يسكنون به، إذ كانت تفضل أن يشتروا بيتا آخر فى شارع كبير، وهو فرح مستبشر يعلم أنه لم يقدم على شراء هذا البيت بما ادخره من مال إلا بعد أن اطلع على تخطيط جديد لهذه المنطقة ، وعرف منه أن شارعاً جديداً سيشق فى هذا الحى ، وأن هذا البيت سيقع على ناصية ذلك الشارع الجديد

ولهذين الزوجين بنون وبنات وحفدة يسكنون جميعاً فى هذا البيت المكون من ثلاث طبقات ، حتى البنات بأزواجهن . وهم جميعاً أبطال هذه القصة ، لكل منهم فيها شأن مرسوم .

فيونس عميد الأسرة وهو سائق قطار بالسكة الحديدية ، رجل طيب كريم يرعى أولاده وأزواج بناته ، وكان يسمى هؤلاء « الثيران » وكان يقول : من مساوىء البنات أن والدهن عليه أن يبحث لهن عن ثيران ليسترهن ، ثم عليه أن يتكفل بهن وبثيرانهن وبما يجود به عليه الثيران من أولاد وذرية .

كان الثيران يعيشون فى البيت ، كل مع زوجته وأولاده فى غرفة ، ولكن كرم رب الأسرة يشملهم، الثور يقترض منه ولا يرد ما يقترض والبقرة ترتع فى المنزل ، وكانت سماحته معهم لا تقف عند حد ، فهو يعلم أن إسماعيل أحد الثيران يطلب منه الريال ليحشش به،ومع هذا لا يضن عليه ، بل امتدت سماحة الرجل إلى ما بعد موته . . فعندما خرج الجميع من الغرفة التى بها جثته لشئون الجنازة المختلفة ، وبقيت فيها بناته الأبقار، خفت عزيزة إليه ودست يدها فى صدره وأخرجت حافظة نقوده وخلعت زهيرة خاتمه من إصبعه . وأخذت ثريا ساعته . وأسرعت كل منهن تأخذ كل ما تصل إليه يدها من الغنائم،حتى ملابسه أخذتها الأبقار لثيرانهن.

وليونس ولدان أحدهما حسان شاب وطنى متحمس يحمل الكراهية للإنجليز ، واشتدت هذه الكراهية بنفسه واشتعل غضبه عندما كثرت حوادث السلب والنهب والشغب والاستفزاز التى كان يأتيها جنود المستعمرين ، وقد غصت بهم الإسكندرية عقب نشوب الحرب العالمية الأولى ، قال حسان : والله لو سنحت لى فرصة لحربهم فلن أدعها تفلت من يدى . ثم جاءت الفرصة إذ وجد مركبا حمله إلى اسطنبول حيث انضم إلى الجيش التركى لمحاربة الإنجليز . وتمر سنون على هذا السفر ولا يعلم عنه فى خلالها شيء ، وتمضى أحداث قصتنا فى طريق الحياة التى لا ينقطع العابرون فيها . ثم يعود حسان محطم النفس منهوك القوى مرتبك الأعصاب لما لاقى وشاهد من أهوال الحرب وفظائعها ، عاد وفى نفسه ما فيها من كراهية المستعمرين،وفيها مشاعر جديدة نحو الحروب ومايقاسيه الإنسان فيها إرضاء لمطامع الساسة ، فأكب على الخمر يغرق فيها همومه ويغيب بشربها عن خيالاته وأفكاره .

أما الولد الثانى ليونس فهو على ، وقد ورث عن أبيه صفات طيبة منها الكرم وسماحة الخلق ، كما ورث عنه الأمل فى تنفيذ مشروع الشارع الجديد . . وهو إلى ذلك متأثر بسير أبطال المسلمين التى كان يقرؤها فى شغف، فكان يشعر بروح الفروسية الإسلامية ، يثور على الظلم وينتصر للحق ويدافع عنه ، ولو ركب فى سبيل ذلك المصاعب والأهوال . أحس بالثورة على الشركة الإنجليزية التى تستغل تحكم الإنجليز فى مصر فتتعنت مع معامليها ؛ إنها ترغمه على أن يأخذ مع الملح صابوناً وإن كان فى غنى عن الصابون ، إن هذا التعنت يضايقه حتى إنه يشعر فى أعماقه أنه يفضل أن يغلق دكانه على أن يقبل ذلك الذل . جأر التجار بالشكوى ، وكتب على إلى الشركة يحتج عليها ، دون جدوى ، ثم كتب رسالة نارية إلى المندوب السامى للدولة العثمانية . ولما لم يجد لها صدى كتب إلى وزير الخارجية البريطانية معتزما ألا يسكت على هذا الظلم ، ولو أدى به الأمر إلى أن يلجأ إلى المحافل الدولية .

وعندما استدعى على إلى قسم البوليس قال له الضابط الإنجليزى : صدرت التعليمات إلى الشركة ألا ترغمك على شراء مالا تريد . ولم يرضه أن يعامل وحده هذه المعاملة ، ورأى الضابط صلابته وتمسكه بأن يشمل ذلك جميع التجار ، فقال له ملاطفاً : سيسرى ذلك القرار عليكم جميعاً إكراما لك .

ويرزق على ستة أولاد من زوجته صفية ، وكانت شريكة له فى حياة كلها كفاح،أو أرادت هى أن تجعلها كفاحا دائباً مضنيا ، إذ تحملت مسئولية البيت وتدبير شئون الأولاد فى صبر وحرمان ، بعدأن تدهورت

تجارة زوجها واضطر إلى إغلاق محله وإلى أن يعمل بائعاً فى محل أبيها الحاج كرم ، وكان من إرادتها فى هذا الكفاح أن أصرت على تعليم أولادها فى المدارس حتى النهاية مهما لاقت فى سبيل ذلك ، وقد اضطرت إلى أن يوظف ابنها الأكبر لبيب بعد إنهاء المرحلة الثانوية ، ولكنها حرصت على أن يكون لبيب هو الضحية لباقى إخوته ، فقد تعلم زكريا حتى تخرج فى الحقوق وصار محاميا ، وكم كانت فرحة أبيه به عندما رآه يترافع فى أول قضية ويكسبها . ثم تخرج خالد فى الحربية ، وجلال فى الحقوق وسعيد فى الطب ، ويحي فى التجارة .

ويوم حصل زكريا على شهادة ( البكالوريا ) كاد ينقطع عن التعليم ويلحق بلبيب من جراء العسر الذى دامت عليه حال الأسرة ، ولكن العزيمة والصبر والحرمان والتدبير والأمل ، كل أولئك مجتمعاً لدى صفية حال دون ذلك ، وكان تدبيرها عجيباً ، جنيهات من مرتب لبيب ، وجنيهات من أجر زوجها ، كانت تنفقها على زكريا فى الجامعة وعلى بقية الأولاد فى المدارس وعلى البيت ، وكان على يقدرها على ذلك كل التقدير ويتمشى معها ، وقد قال لامرأته يوم لحق بالعمل عند أبيها : إنه لن يمكث معه إلا قليلا فإن الاهتمام بالمدينة سيشمل قريباً فتح الشارع الجديد ويصبح المنزل على الشارع ذا قيمة فيبيع حصته فيه ويستأنف عمله التجارى المستقل ، وقال لولده مرة أخرى : ستصير يا زكريا محاميا وسيصبح بيتنا على الشارع الجديد وتتخذ لك فيه مكتباً على الناصية .

ثم صار زكريا محامياً ، واستطاعت الأسرة أن تخطو خطوة فى مجابهة تبعاتها المادية ، وأخذت تنال أشياء من اليسر على مر السنين كلما

خرج واحد إلى ميدان الحياة العملية ، وكان كل منهم عندما يبدأ شأنه ويشعر بمركزه الجديد يضيق بالحارة الضيقة المظلمة ويتطلع إلى شقة فى حى نظيف ، ولكنه يتذكر حاجة الأسرة التى تتطلب الاقتصاد والصبر على التقشف . . ومات على دون أن يتحقق الأمل الذى ورثه عن أبيه فى إنشاء الشارع الجديد . . ولكن تحققت آماله كلها فى أولاده فقرت بهم عينه إذ رآهم فى مراكزهم المرموقة ، وقد جعل ولده سعيد يطببه فى شيخوخته حتى لحق بزوجته صفية، التى سبقته بسنين شعر فيها بالوحشة وران عليه الكآبة بفقد هذه الزوجة التى حملت عنه أثقال بيته، وكان يجد فيها الأنيس الذى يتحدث معه عما يهمهما وما يقر أعينهما من شئون الأولاد .

وكان لهؤلاء الأولاد مغامرات فى ميادين الحب ، ما عدا زكريا الذى طبعت حياته بما جبل عليه من التدين والتعقل الطاغى على العاطفة ، وكان لكل من أولئك الشباب لون خاص فى عواطفه ، فخالد كان يلاحظ درية بنت خاله ويهيم بها منذ الصغر ، وقد شغله حبها عن فتاة أخرى كانت تحبه وهو لا يدرى ، وهى علية أخت صديق له ، وتزوج خالد درية وفجعت علية بهذا الزواج ، وتمضى السنون وكل من خالد وعلية فى طريقه ، هو سعيد بزوجته وأولاده منها ، وهى شقية بزوجها يتعرض طيف خالد بينه وبينها . . ثم يلتقيان بعد الانقطاع الطويل ، فيعرف خالد أخيراً أن علية تحبه ، ويتصارحان ، ثم تهيم به ويهيم بها ، ولكنها تفر من الشيطان ، وتكتب إليه أنها عاجزة عن مقاومته ، ولهذا تفزع إليه أن يبعد عنها ، وترجوه أن ينساها وألا يحاول أن يراها .

وأما جلال فهو شاب يحب لفت الأنظار إليه ، ويسره أن يكون موضع الإعجاب ، وقد تعرف بفتاة على الشاطىء استجابت لغزله ، ثم كانت علاقتهما غريبة ، كل منهما يريد أن يفتن الآخر ويذل كبرياءه ، ويكون آخر مايهمهما أن تستسلم له فيتركها معرضا عنها مظهراً الازدراء ، ويرضى بذلك رغبته فى الانتقام منها لتدللها وإخلافها المواعيد وتعمدها أن تظهر مع شاب غيره .

ثم يرحل جلال وسعيد إلى القاهرة لطلب العلم فى الجامعة ، والشباب لا يكفيه العلم وحده ، فلا بد من الحب ، وهذا جلال يطلبه من النافذة حيث يرى بنت الجيران ، ولا يسيئه أن تقفل الشباك فى وجهه بعنف أول مرة ، فقد عد ذلك دليلا على أنها التفتت إليه واهتمت به ، وهذا يرضيه مؤقتاً ، وبعد ذلك تبادله الفتاة التحيات وإشارات الغزل ، ثم يكون اللقاء فى منزل الفتاة حيث يفجؤهما أهلها الذين كانوا غائبين ، وتقع جرائر الكارثة على الفتاة وعليه أيضا ، فتغلق النافذة ، وترسل إليه الفتاة عساه أن يبر بوعده الذى قطعه على نفسه لأهلها بأن يتزوجها عندما باغتوه معها فى المنزل ، ويحاول أن يحقق هذا الوعد ولكن أمه تفهمه فيفهم أنه طالب وأن حالة الأسرة المالية لا تسمح .

ويسعى الحب إلى قلب سعيد فى صورة تلميذة بالمدرسة السنية ، رآها فى الطريق إلى المدرسة فخفق قلبه وهفا روحه إلى روحها . لم تكن رائعة الحسن ولكن كان فيها شىء جذبه إليها ، فكانت إحساساته نحوها روحية صافية عذبة ، ولم يفكر أن يغازلها أو يحدثها أو حتى يشعرها

بوجوده ، بل كان يكتفى بملاحظتها فى الذهاب والإياب ، وظل كذلك ينتظرها عند باب المدرسة ويودعها حتى منزلها ، دون أن تحس به ، وهو قانع بالنظر ، سعيد بأنه وإياها فى طريق واحد . . حتى جاء الوقت الذى تخرج فيه ، وعمل « طبيب امتياز » بقصر العينى ورأى هناك ممرضة تشبه فتاته ، وعرف أنها أختها فتوسل بها إليها ، ثم خطبها وتزوجها ، ثم سافر فى بعثة إلى انجلترا ، واشتد بهما الوجد فى أثناء هذا الفراق ، واستفحل مرضها الذى كان بها من قبل ، وعاد من إنجلترا وكله شوق إليها ولكنه بوغت بنبأ وفاتها فى غيبته .

وأما يحي فهو من عشاق الجسد ، وكانت له مغامرة مع إحدى الراقصات .

وكانت مغامرة زكريا من نوع آخر ، كانت مغامرة سياسية حزبية . رشح نفسه لعضوية مجلس النواب منتميا إلى الحزب السعدى ، وساعده إخوته وكانوا قد بلغوا مراكزهم المرموقة وصار لكل منهم مكانة ملحوظة فى الدائرة ، كما ساعده إمام المسجد الضرير الذى كان زكريا يحضر دروسه ويقرأ له كتب الحديث والتفسير أيام كان طالباً ، ولكن الحزب السعدى قد ساءت سمعته الوطنية فى الانتخاب التالى وأبى زكريا أن يبرأ منه حين طلب إليه ذلك بعض شباب الدائرة ، فسقط فى الانتخاب .

وتعاقبت فى أثناء كل ذلك الأحداث والتطورات السياسية وفسدت الأمور فى مصر ، حتى زفت الصحافة «الرشيدة» بشرى النسب الشريف . إذ أصبح فاروق ، بفضل المنافقين من رجال الدين وغيرهم سليل الرسول . وراح حسان إلى الحانة يحتسى الكئوس حتى ثمل ويرتل قائلا :

فاروق بن نازلى بنت توفيقة ماريكا بنت كاتريتا . . بنت . . بنت فاطمة الزهراء .

ولكن الوطنى السكير يصبح ذات يوم على صوت المذيع يعلن أن الجيش المصرى هب يحارب الفساد ، وجعل حسان يتابع الأنباء ويرقب الحال ، حتى إذا غادرت الباخرة التى تحمل الملك المخلوع مياه مصر هدأت نفسه وأحس كأنما خلق خلقا آخر وراح يغمغم : أصبح فى الحياة ما يستحق أن أفيق من أجله .

* * *

**النقد :**

هذه خطوط عامة لقصة «الشارع الجديد» للأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، فلم يكن من المناسب للحيز المرسوم هنا أن آتى لها بملخص واف إن صح أن يكون الملخص وافياً . . فهى قصة طويلة جدا ، إذ تقع فى ٤٦٩ صفحة من القطع المتوسط ، وهى مجال كبير للزمن وللأشخاص ، إذ يبدأ وقتها من قبل الحرب العالمية الأولى ، وينتهى عند قيام ثورتنا سنة ١٩٥٢ وتصور فى هذا المجال الزمنى ثلاثة أجيال من الناس تعاقبوا فى أسرة واحدة ، الجيل الأول يونس وزوجته ، والثانى أولادهما ، والثالث أحفادهما ، تناولهم المؤلف ، وتناول من اتصل بهم من أشخاص القصة الآخرين ، بتحليل شخصياتهم ، ووصف ما أحاط بهم ووقع لهم ، وأشبعهم من ذلك أو أشبع القارىء بما لا مطمع فى أكثر منه .

وهى فى الحقيقة قصص متوازية ، وإن كان توازيها لا يمنع

التقاءها ، وهى لا تلتقى فى النهاية فقط بل تلتقى فى البداية ثم تفترق ثم تلتقى وهكذا .

لكل من أولئك الناس قصة تختلف عن قصة غيره ولكنها جميعاً تشتبك ، والذى يحملك على الصبر لها بل الشوق إلى متابعتها هو أنك تشعر بمجرد الأخذ فى قراءتها أنك ابتدأت تعاشر هذه الأسرة وأصبح يهمك أمرها ، وقد تحنق أحياناً على المؤلف لأنه قطع عنك قصة من تلك القصص المتفرعة وأخذ فى قصة فرع آخر وأنت تريد أن تظل فى الأولى حتى تبلغ النهاية . ولكن هذه النهاية لا تجىء إلا بعد أن تستوعب جميع الفروع، على أن هذه القصة ليست من النوع الذى يصنع فيه الكاتب جوا يشوق إلى نهاية ، إنما أنت فى قصتنا هذه تحب أن تعيش فيها ، كما تحب أن تعيش الحياة ، دون التطلع إلى نهاية..فإن ضقت بصنيع المؤلف فلأنه يطوى عنك صفحة من الحياة لا تريد أن تلوى عنها إلى صفحة أخرى .

وعندما ترى الفنان – كاتبا أو ممثلا أو غيرهما – قد اندمج فى جوه فوضع قدمه أو قلمه ثابتاً ينقل إليك قطعة من حياة أو ينقلك إلى حياة. فأنت مطمئن إليه مندمج معه تشعر أنك أيضاً فنان . فنان مستهلك .

والمؤلف مع الإفاضة والتطويل فى السرد والتحليل يختار خيوطا من حياة أبطال القصة ليربطها ، يربط أجزاء الخيط بعضها ببعض ، ويربط الخيط بخيط آخر ، حتى تربط الخيوط كلها كى يصـــل بذلك كله إلى ما يستهدف .

وقبل أن ننظر فى الهدف الذى يرمى إليه أذكر أن صديق عبد الحميد

السحار حدثني عن قصته هذه قبل أن أقرأها فقال : إنه رحل إلى الإسكندرية من أجل هذه القصة وتتبع أحوال أبطالها وسمع منهم وتأملهم، ثم صورهم وقص قصصهم طبقا لما وقع، لم يتعمد تأليفا ولم يقصد إلى الخيال ، سمعت ذلك منه فأشفقت عليه أن يكون صحفيا في قصته لم يزد على كاتب «ريبورتاج» يعتمد على الوصف « الفوتغرافي » ولكن حينما قرأت القصة تبدد ذلك الإشفاق إذ وجدت ريشة ترسم لا آلة تلتقط ، إنه كان يظلم نفسه في حديثه إلى ، ولعلني أنا الذي ظلمته في نفسي بسوء فهمي عنه .

القصة — كما فهمت وأحسست منها نفسها — ذات وقائع وأفكار وأشخاص عاشرهم المؤلف وانفعل بهم ، واختار من واقعهم ما احتاج إليه تكوين القصة وهدفها ، يمر عابرا ولم ينقل هذا الواقع ، كما هو وبحذافيره ، كما كدت أفهم .

المؤلف إذن قد اختار أشخاصا وسار بهم في خطوط رسمها لبلوغ هدف معين ، فهي قصة كفاح للوصول إلى حياة أفضل ، كل من أولئك الأشخاص يريد هذا الوصول ، والمؤلف يسيرهم كجماعة نحو الغرض العام للجماعة، فيونس — رب الأسرة — يحلم بالشارع الجديد ليرفع مستوى حياته وحياة أسرته ، وسنمر به مر الكرام كما مر هو بالحياة كريما ، لا يعنيه إلا أن يهيء أسباب العيش والسعادة لمن حوله، وسيعنينا كثيرا من بعد موته هؤلاء الذين خلفهم في الحياة لذلك الكفاح ، وقد ورث عنه ولده «على» حلم الشارع الجديد ، كما راود هذا الحلم أبناء «على» كلما ضاقوا بالحارة الضيقة القذرة وتطلعوا إلى أن يسكنوا في حي نظيف ، ولك أن تعتبر الضيق بالحارة والأمل في الشارع إطارا مناسباً للصورة كلها . .

صورة العمل المتصل لتغيير الواقع وبلوغ ما يرجى من حياة لائقة كريمة .

وعلى وحسان تراهما فى أول الأمر شابين ثائرين على الاستعمار وتحكم المستعمرين ، يطلبان العزة والكرامة للبلاد وأهلها جميعاً ، ثم تختلف وسائلهما ، كما تختلف سبيل كل منهما عن أخيه فى حياته كلها .

أما حسان فقد غادر البلاد متحمسا لحرب الإنجليز فى أى مكان بعد أن لم يجد سبيلا لحربهم فى بلاده ، وقد بر بقسم أقسمه حين رأى أخاه «على» يضمد جرحه على أثر معركة نشبت فى قهوة بينه وبين جنود استراليين من الذين كانوا يعتدون على الأهلين ويسلبونهم ما فى جيوبهم من نقود ، أقسم حسان ليحاربن الإنجليز ما سنحت له الفرصة .

ويعود حسان بعد سنتين ، ولا نعرف ما حدث له بالتفصيل ، ولكننا ندرك من حديثه وحاله أنه لقى أهوالا ، ورأى أموراً استخلص منها أن هذه الحروب التى تطحن الإنسانية إنما تثيرها أطماع السياسيين ، وقد بعث فى نفسه اليأس أن الإنجليز لم يهزموا ولم يقض عليهم كما كان يؤمل ، فلم يكن شعور الخيبة هذا أقل أثراً فى نفسه ، وتأثيراً فى جسمه وأعصابه مما عاناه من فظائع الحرب وما رآه من مناظرها البشعة .

لذلك كله تغير طعم الحياة فى فم حسان ، وأعرض عن الزواج ولم يقو على عمل ما ، واتخذ رأى المعرى فى جناية الآباء على الأبناء ، ولم يقتنع بأن فى الحياة ما يستحق أن يفيق لأجله من الشراب ، ولكن شعوره الوطنى برغم ذلك كله كان سلبيا ، إذ نراه يهتز فى بعض المناسبات، يهتز بالسخط دائماً وسباب كل عمل فاسد ، وفى النهاية نراه شخصاً آخر يهتز غبطة ورضى ، ويصحو لأن البلاد قد صحت بالثورة .

وأما «على» فكان سبيله فى الحياة والكفاح يختلف كل الاختلاف عن أخيه حسان ، فقد تزوج وأنجب الأولاد ، وعكف هو وزوجته «صفية» على الكفاح من أجل أولادهما ، ويمثل هذان الزوجان طبقة من الناس نشأت فى شىء من اليسار وأحست بنور يضىء لها طريقاً أفضل ، ثم يريد الظلام أن يبدد النور ويضلهم عن الطريق .

عقد الأبوان العزم على أن يسلكا بأبنائهما طريقاً يؤدى بهم إلى الحياة التى يتطلعان إليها ، وأراد الفقر أن يحول دون ما يريدان ، ولكنهما تغلبا عليه بعزم حديد عجيب .

وكان « على » رجلا ذا أريحية ونخوة ومروءة ، فكان يشعر بالغبطة عندما يجد أحداً فى حاجة إلى مساعدته ، فقد ذهب مرة إلى رجل لا يعرفه واشتبك معه فى عراك لأنه ظلم زوجته وأبى الإنفاق عليها . . وكانت هذه المروءة تنسيه الإساءة ، فصهره التاجر البخيل الحاج كرم وأولاده تعرضوا للإفلاس ، فأنقذهم « على » منه بوساطة صديق له من التجار الأجانب ، وذلك على رغم سوء المعاملة الذى لقيه « على » وزوجته من أصهاره فى مناسبات مختلفة ، وكان اشتغال زكريا بالمحاماة أملا لأبيه « على » كى يرى ولده ، يدافع عن المظلومين وينجد المكروبين .

وهكذا تجد بقية أبطال القصة كذلك نماذج إنسانية مختلفة مرسومة بدقة ووعى ومهارة .

سعيد شاب حديدى الإرادة يرى أن كل شىء مرهون بالعزيمة وأنه يستطيع أن يصل إلى أية غاية مادام يعمل لها ؛ وقد بلغ فعلا بجده ودأبه كل ما حلم به وعمل على بلوغه ، فقد صار طبيباً كما أراد ، وحصل على

الدرجات العلمية التى عمل لها ، وتزوج الفتاة التى أحبها برغم بعض العوائق ، ولكنه فى النهاية يرتطم بالقدر فتموت زوجته الحبيبة ويفقد بفقدها ثقته بنفسه وإيمانه بأنه يستطيع أن يبنى مستقبله بيديه كما يشتهى .

ويحيى شاب منحرف يتركز اهتمامه بالمرأة عند جسدها ، وحب يحيى هذا أحد ألوان ثلاثة من الحب عرضها المؤلف فى هذه القصة ، وفصل بعضها عن بعض ، وهى حب الجسد هذا ، والحب العذرى الذى أحبه سعيد ، وحب الذات الذى كان يسعى إليه جلال بلفت أنظار الفتيات إليه وسروره باهتمامهن به ، وقد عجبت من توفيق المؤلف فى تصوير هذه الألوان المختلفة وهو فى كل منها كأنه عاشه ، فجمع بين الأضداد فى شخصه .

وهناك حب أعجب من ذلك كله ، وهو حب « النجرو » للفتاة الانجليزية الخيالية « جورج » .

و « النجرو » شاب أسود بائس يشارك فى الأعمال الوطنية خلال الثورة الأولى بطريقته الخاصة ، فقد علم من زكريا وهو صبى فى المدرسة أن اسم البنت باللغة الإنجليزية « جيرل » فكان يلقى الجندى الإنجليزى باسما غامزاً قائلا : جيرل . . فيتبعه الجندى ، حتى إذا انفرد به النجرو فى ظلام الخربة انقض عليه فقتله وسلب ما معه .

وكان من الأسلاب فى إحدى المرات صورة فتاة إنجليزية سرعان ما أخذها ودسها فى جيبه بعناية . . ثم يتحدث مع شباب الحارة فيقول لهم : إنه ينتقم من الإنجليز بقتل رجالهم وإذلال نسائهم إذ أحبته واحدة منهن فاستجاب لها ثم أعرض عنها ليذلها ، سأله أحدهم عن اسمها فقال :

« جورج » ولم يأبه لاعتراضهم بأن جورج اسم رجل . . وتجسم الخيال عنده فصارت جورج حقيقة فى عالمه ، يناجيها ويعتب عليها ، ويقرأ أحيانا رسائلها إليه ، من قصاصات احتفظ بها من تلك الأسلاب ، ثم يعقب على تدللها المزعوم فى حبه بأنه لن يعبأ بها . . ثم ينطلق فى الحارة وصوته يدوى : نظرة يا جورج . . يا جورج نظرة .

وأكثر شخصيات القصة كل منها تمثل فكرة وتعبر عن موضوع ، حتى لترى القصة كأنها كتاب ذو موضوعات مختلفة ، اجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها ، والعمل الفنى يصهرها جميعاً ، إذ يستخدم الحركة القصصية فى ذلك التعبير ، فيبدو عرض الموضوعات وبسط الأفكار عرضاً وبسطا للحياة الطبيعية ، وهذا غاية ما يصل إليه القصاص الفنان الواقعى ، وهو يأتى من صب الواقع فى قالب جميل من الصور الحية ، ولعل هذه الصفة هى التى تسترعى انتباهى وتعجبنى فى هذه القصص التى اخترتها لهذا الكتاب .

والمؤلف يغوص فى أعمـــاق شخصياته ويندمج فيما يعرض من حياتهم ، ويستغرق فى بعض النواحى حتى لتوقن أنه زاول ما يصف ، ومن قوة تمثيله — ولا أقول تجريبه — تصويره لمخاوف أحد « الثيران » وقد عاد إلى المنزل فى منتصف الليل مخدراً من الحشيش ، يصور له وهمه ظلال الأشياء أشباحا تعدو خلفه فيعدو أمامها ، حتى إذا بلغ الدار صرخ فى صوت مضطرب : عزيزة . . النور . . عزيزة . . النور ، وتستقبله عزيزة زوجته بالتقريع ، ولكنها كانت قد أعدت له عشاء طيباً « لسانها عليه وقلبها معه » .

وأريد بعد ذلك أن أدخل مع المؤلف فى حساب نستوفى فيه ما عليه، مع شيء مما بقى له.

لا أريد أن آخذ عليه التطويل فى الرواية ما دام هذا التطويل غير ممل، ولكن التزامه عرض حياة هذه الأسرة الكثيرة الأفراد المتعاقبة الأجيال قد أدى إلى زحام يحار القارئ فى خلاله، فلا يكاد يلم خيوط القصة. وحين يشعر القارئ بالرغبة فى تتبع قصة واحد من الأشخاص يقطع عليه المؤلف السبيل، إذ ينتقل إلى قصة أخرى ثم يعود إلى غيرها، والعمل القصصى يقتضى هذه الانتقالات فى هذا النوع من القصص التى تعرض حياة مجموعة من الناس، ولكن الفواصل هنا طويلة جدا، والقصة لا تقرأ مرة واحدة، فيقتضى هذا وذاك أن يصعب التتبع والربط على القارئ.

حوادث القصة تأخذ مجرى الحياة الطبيعية، ولكن فيها بعض الميل عن هذا المجرى، فعلى تندفع به روح الفروسية حتى يقفز فوق الواقع فى بعض المواطن.. فقد كانت شكايته من الشركة الإنجليزية فردية فلم يتضامن مع بقية التجار، أى تقدم وحده، ودعى وحده إلى مقابلة الضابط الإنجليزى الذى أبلغه بأن الأوامر قد صدرت إلى الشركة ألا تكرهه على شراء الصابون، وقال له: إن هذه منة من الحكومة الإنجليزية. كان منطق الواقع يقضى بأن يكتفى بإظهار أن هذا حق لا منة، أما أن يقف وحده أمام السلطة الإنجليزية ويملى إرادته أن تشمل هذه المعاملة جميع التجار، وترضخ السلطة له وحده، فهذه هى القفزة..

وهذا «الخواجه استاورو» المرابى العجوز.. أمره عجيب، هو

صديق «علي»، و «علي» يستخدمه في مساعدة أصهاره، عندما تهددهم الإفلاس، مساعدة لا تكلف المرابي غرما، وهذا مقبول ولكن الذي نقف عنده أن نرى استاورو يقبل على صديقه «علي» فيراه عابسآ، ويعلم أنه يفكر في إلحاق ولده خالد بالحربية وليس لديه «مصروفات» فيعرض عليه أن يقرضه ؛ فيقول «علي» : لا أحب أن أربي أولادي بالربا، وهنا يقفز استاورو فوق واقعه، فيقرض علي كل ما يحتاج إليه ابنه خالد من مصروفات في الحربية على أن يسدد خالد الدين بعد التخرج وحين يحلو له.. ويقول استاورو : النقود ليست كل شيء في الحياة.

هذه حقيقة نقتنع بها أنا وأنت، ولكن استاورو المرابي أي شيء في حياته غير النقود..؟

القصة كما قلت ترسم خطوطا للكفاح من مختلف النواحي، الكفاح الفردي والأسري والوطني، فكل من هؤلاء ومنهم مصر التي اصطلح عليها الاستعمار وفساد النفعيين من أبنائها، كل من هؤلاء يكافح. والمفروض أن العمل سلاح صادق لبلوغ الهدف، ولكن المؤلف يعرض لنا عنصرآ من هذه العناصر المكافحة، ويسلحه بالعزيمة والإيمان بأنه يستطيع أن يصل بعمله إلى ما يريد ثم يغدر به مع القدر، ذلك هو سعيد الذي جاهد ما جاهد ثم كبا في آخر الشوط متعثرا بوفاة زوجته التي كان يعدها كل شيء في حياته، ولا يكتفي بذلك بل يشمت به كأنه يقول له : لقد كنت واهما في اعتقادك وعابثا في جدك، وذلك على حين يصل الكفاح العام في الرواية إلى أهدافه، حتى الشارع الجديد ينفذ مشروعه.

حليمة فتاة — في أول الأمر — بها مسحة من جمال يكاد يغطيها

الفقر ، تجلس على باب الدار تبيع الحلوى للأطفال ، صورها المؤلف في صورة المرأة المحرومة ، وهي صبية وسيمة يطمع فيها الرجال ، لم يقل لنا المؤلف لماذا أبقاها بباب الدار على تعاقب أجيال الأسرة حتى شاخت بطبيعة الحال ؟ لماذا لم يبعث إليها إلا النجرو المشوه المخبول الذى كانت ترجف فزعاً منه كلما اقترب منها يصيح : نظرة ياجورج ؟ وهى كما وصفها كانت جديرة برجل ابن حلال ، لقد صورها لنا من الظاهر ، وجاءت صورتها مهزوزة .

لو أنه جعل يحيى مكان «خالد» فى موقفه مع أخت صاحبه التى أراد أن يلتهمها عند ما كشف حبها له ، لو كان « يحيى » لكان ذلك أليق به ، أما خالد فلم نر فى حياته ومسلكه فى الماضى ما يجعله يترك فى بيته زوجته وأولاده ويهجم على امرأة لا حصون لها ولا قلاع .

فى القصة مصادفات قليلة جدا ، غير متسقة مع المجرى الطبيعى فيها — فجلال مثلا إذا أراد أن يلتقى صاحبته فى الإسكندرية فما عليه إلا أن يركب سيارة الأتوبيس فإذا لم يجدها نزل وركب التى وراءها ، وهكذا حتى يجدها إن لم يجدها فى الأولى .

وهنالك صورة بالغ فيها حتى أشبهت « الكاريكاتير » ، ذلك أن فى الحارة قهوة يجلس عليها الصعايدة وتشرف على الحارة حارة أخرى مرتفعة هى حارة الفلاحين . يكون عرس عند الفلاحين فينحدر الموكب مارا بالقهوة ويأبى الوقوف عندها تحية للصعايدة فيهجم هؤلاء على موكب العرس الذى يتراجع فى خطة مدبرة ، هى أن يتبع الصعايدة الفلاحين وهم يرتدون إلى بيوتهم ليستدرجوهم ، ثم تنزل الزجاجات

المملوءة بالرمل من الأسطح والشبابيك على رؤوس الصعايدة كالطير الأبابيل.. والمبالغة إنما هي تكرر الحادثة مرات كثيرة جدا دون أن يلتفت الصعايدة إلى المكيدة المدبرة .. وهى صورة غير واقعية ولكنها ظريفة .. تشبه شراء الترام رقم ٣٠ .

والمؤلف يريد أحياناً - وهى نادرة - أن يقول شيئاً فى فكره فيقوله ولو لم يكن من شأن الشخصية التى يتحدث عنها بلسانها أن تقوله . فالفتاة تقول لصاحبها : إنها كانت تتدلل عليه لتزيد شوقه إليها ورغبته فيها ، ولا شك أن هذا المعنى يكون فى أذهان النساء ولكن هل تفضى به المرأة لحبيبها ؟

وحسان وهو غير متعلم يتحدث بأفكار أعلى من مستواه الفكرى بكثير ، فهو ينافس خريج الحقوق ويقول له : إن التاريخ سلسلة من الأكاذيب ، وإن الأهرام إحداها ، وهى رمز للعبودية والذل . وإن الذين بنوها طغاة استبدوا بالشعب وسخروه فى تشييدها ، وإن الرجل المجهول الذى صنع القلة لأول مرة أعظم من بناة الأهرام، لأنه ترك للبشرية شيئا نافعاً دون أن يعلن عن نفسه ، على حين أنفق هؤلاء الجهود فيما لا نفع فيه إلا الإعلان عن جبروتهم وعظمتهم .

والمؤلف متأثر بالشعراء الذين كانوا يتغزلون فيصفون حبيباتهم بأن أجسامهن يفوح منها العبير بطبيعتها دون أن يصطنعن الطيب . فيردد ذلك ، إذ يقول : إن سعيد كان يحس بأن أريج حبيبته أزكى من أطيب الطيب وأفضل العطور ، ولا شك أن هذا من وهم الشعراء ولا يليق بالقصاص الواقعى .

انظر إلى هذه الصورة « أحس يدين ناعمتين تخفيان عينيه ، وصدراً ممتلئا يلتصق بصدره » .

ذلك أن «يحيى» كان جالسا فى المرقص ينتظر فتحية الراقصة ، فجاءت دون أن يراها فداعبته بوضع يديها على عينيه ، وبالطبع لا يتصور ذلك إلا أن تكون خلفه ، فكيف يحس بصدرها يلتصق بصدره ؟ هل كانت عيناه فى قفاه . . ؟

أسلوب عبد الحميد السحار من نوع أسلوب نجيب محفوظ فى السرد وفى الحوار ، فهو يحرص على الصحة اللغوية وعلى القرب من اللهجة الدارجة ، وإن كان عبد الحميد يرضى الأسلوبيين أكثر من نجيب ، ونجيب يرضى الواقعيين أكثر من عبد الحميد .

فحوار قصتنا هذه واقعى فصيح يتحدث فيه الأشخاص بالعربية السليمة التى لا تعلو ولا تنبو عن اللغة الدارجة .

# مأساة أوديب

علي أحمد باكثير

**العرض :**

نحن الآن فى « طيبة » إحدى مدن اليونان القديمة ، حيث نجد ملكها « أوديب » وزوجته « جوكاستا » وأخاها « كريون » . . يرفع الستار فى المشهد الأول عن جوكاستا وكريون فنسمع الأخوين يتحدثان عن الوباء الذى يجتاح المدينة ويفتك بأهلها ، حتى إن من لم يمت بالداء مات من قلة الغذاء ، والشعب يجأر بالشكوى ، ويعرب المتحدثان عن رجائهما فى أن يلبى الملك رغبة شعبه فيرسل من يستفتى معبد « دلف » فى هذه النازلة لعل الإله يكشف عنهم هذا البلاء . ولكن أوديب لا يؤمن بالمعبد ولا بالإله ، بل هو عازم على مصادرة أموال المعبد ، وترى جوكاستا أن فى هذه المصادرة خطرا على الملك ، فكلمة من الكاهن الأكبر كافية أن تثير الشعب .

والبلاء يشتد ، والشعب يلح فى استفتاء المعبد ، وأوديب لا يرى فى هذا الاستفتاء إلا أنه . . « قول يرسله عاجز مأفون إلى إله أعجز منه وأضل سبيلا » وأن للمعبد من أوقافه وأملاكه ما يشغله عن الاهتمام ببؤس الشعب . .

ويخرج كريون فتحدث الملكة الملك بخوفها من أن يعلن الكاهن

الأكبر – إذا استمر الملك فى محاربته – الحقيقة الهائلة للشعب . . وهى أن أوديب هو قاتل لايوس ، ملك طيبة السابق وزوج جوكاستا قبل أوديب . . ويستطردان فى الحديث فيسألها ، ألم يحزنك قتل لايوس قط ؟ .. فتجيبه : حزننى ذلك برهة إلى أن شاءت الأقدار فعوضتنى خيرا منه . ثم يسألها : ألم تشعرى بأى حرج قط من زواجك بعده بمن قتله ؟ وتجيب تلك مشيئة القدر لا حيلة لى فيها ، فمن يدرى لعل القدر أراد عقاب لايوس على أنه قتل طفله البرىء خشية أن يقتله ذلك الطفل ويتزوجنى كما زعمت تلك النبوءة الهوجاء فسلط عليه من قتله وتزوج امرأته جزاء وفاقا .

ويدخل كريون معلنا قدوم « ترزياس » الكاهن القديم الذى طرد من المعبد متهما بالإلحاد ، فيرحب به أوديب ويختلى به إجابة لرغبته . ويبدأ الحديث بمناقشة فى الإله ، الذى ينكره أوديب وكان يتوقع أن يكون ترزياس منكرا مثله ، ولكن ترزياس يقول : إنه مؤمن بالإله وإن الكهنة طردوه لأنه كان ينعى عليهم جشعهم وتكالبهم على المال ؛ وأنه جاء اليوم ليؤيد أوديب فى عزمه على مصادرة أموال المعبد وتوزيعها على الشعب .

ويدلل أوديب على فساد الاعتقاد فى الإله بأنه يوحى بالشر ، فيقول : « أوحى بهذا الشر إلهكم يوماً إذ زعم وحيه الكاذب لسلفى لايوس بأنه سيولد له غلام شقى يقتل والده ويتزوج من والدته ، فدفعه ذلك إلى التخلص من ولده . ومن هنا يأخذ ترزياس فى بيان حقيقة تلك النبوءة الهائلة التى عرف وقائعها ، كما يعرف كل أسرار الكهنة بوساطة أتباع ومريديه المنبثين بينهم ، فيقول : إن « لوكسياس » الكاهن الأكبر – هو الذى

دبرها من نفسه ، لا من وحى الإله ، وعمل على تحقيقها بتدبيره ومكره حتى تحققت ! فيرتاع أوديب قائلا :

— تحققت ؟!

— نعم . .

ويلك ما تقول ؟ هل تعنى أن ما تنبأ به ذلك الوحى الباطل قد وقع ! وتحتد المناقشة بينهما حتى يقول أوديب :

— ويلك لا تجادلنى فيما لا تعلم . . إنك لا تعرف قاتل لايوس ، وإلا كففت عن هذا اللغو !

— بل أعرفه يا أوديب كما تعرفه أنت ، وكما يعرفه الكاهن الأكبر ، وتعرفه الملكة جوكاستا .

— من هو ؟

— أنت !

ويثور أوديب على ترزياس ، ثم يجنح إلى الهدوء ليسمع منه تفصيل مادبره الكاهن الأكبر ، وذلك أن لايوس — لما ولد له الطفل — بعث به مع الراعى ليقتله فى البرية ، وأوعز الكاهن إلى الراعى بألا يقتله ، وبأن يسلمه لراع من « كورنث » . . وأوعز إلى هذا الراعى بأن يسلمه إلى « بوليب » ملك كورنث ، وتبناه بوليب حتى كبر وهو يعتقد أنه أبوه ، ثم أوعز الكاهن إلى شاب استثاره فى مجلس شراب وطعن فى نسبه ، حتى دفعه إلى استشارة معبد دلف .. وأفتاه الكاهن بأنه ابن لايوس وجوكاستا وأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه .

أوديب : أجل . . هذا حق . . ولكن كيف عرفت ذلك ؟

ترزياس : ألم أقل لك : إن لى عيونا فى المعبد ينقلون لى كل شىء .

أوديب : قل لى ماذا صنع بعد ذلك ؟

ترزياس : جعل يحذرك من الذهاب إلى طيبة لكى يغريك بالذهاب إليها . فقصدت أنت إلى طيبة لتتحدى تلك النبوءة ، وتقبل رأس أبيك بدلا من أن تقتله ، فاعترضك لايوس فى طريقك ، وكان لوكسياس قد أرسل إلى لايوس من أخبره بقصة نجاتك من القتل ، وأنك قاصد إلى طيبة لتقتله ، فإن شاء النجاة فليعترضك دون طيبة ويقتلك قبل أن تقتله . وقتلته . ثم عدت إلى كورنث ، فحذرك الكاهن مرة أخرى من الذهاب إلى طيبة حتى لاتتزوج أمك ، وجعل ينعت لك جمال جوكاستا وينذرك بأنك إن رأيتها فستقع فى حبها حتما . . وذلك ليغريك . . فتحديت النبوءة كما فعلت فى المرة الأولى وقصدت طيبة . وبقية تدبير الكاهن أن طيبة كانت فى فزع من « أبى الهول » الذى كان يربض فى مدخلها ويلقى الألغاز على كل من يلقاه ، فلا يجيب من الخوف فيقتله ، ولم يكن أبو الهول إلا دمية من صنع الكهان قد اختفى أحدهم فى داخلها ، فهو الذى يحركها ويلقى الألغاز ، فلما جزعت طيبة وفزعت من هذا الوحش » جعلت جائزة لمن يقتله ، وهى أن يولى ملكا على طيبة ويتزوج الملكة . وكان التدبير أن ينال الجائزة أوديب . . وظفر أوديب بالجائزة »

وما ينتهى ترزياس فى حديثه إلى هذه النهاية ، حتى يرتمى أوديب مغشيا عليه ويسرع الجميع لإسعافه ويهبط الستار وهم يحملونه إلى سريره

وترزياس يقول : ياويح أوديب . . لطالما سعى مفتوح العينين وهو نائم فلما استيقظ أغمض عينيه !

وقد سأل أوديب ترزياس عن الباعث للكاهن الأكبر على تدبير تلك النبوءة . . فقال : إنه قبض ثمنها من ملك كورنث المنافس للايوس على أرض يونان، والذى لا يحب أن يكون للايوس دونه وريث على العرش .

وفى المشهد الثانى نرى أوديب وترزياس فى ضحى اليوم التالى ، وأوديب يقول : ليت الغشية التى لحقتنى أمس كانت القاضية ، وترزياس يواسيه ويصبره . ثم يسأل أوديب ترزياس : ماذا يكون مصير أولادى إن اعترفت الملأ أن أمهم لم تعد زوجى بل صارت أمى ؟ كيف نواجه الناس بهذه الفضيحة الهائلة ياترزياس ؟ . . ويجيب ترزياس بأنه لابد من إعلان الفضيحة التى ستكون كفارة لأوديب ولأمه ، ويحذره من سترها لأن الكهنة سيستغلونها فى إثارة الشعب ما لم يعدل عن مصادرة أموال المعبد .

وتقبل جموع الشعب ، ويدخل كريون ويقول لأوديب : إن أهل طيبة جاءوا يتوسلون إليك أن تبعثنى إلى معبد دلف لأستخبره فى أمر هذه النازلة التى أكلت الأخضر واليابس . ويرفض أوديب ذلك ،فيشير عليه ترزياس بأن يجيب طلبهم ريثما يتسنى له تنفيذ عزمه ، فيقبل أوديب ويأمر باستخارة المعبد ، ويأخذ بيد ترزياس خارجين .

وتدخل جوكاستا من باب آخر فتتحدث مع أخيها كريون وتشكو إليه أن زوجها أصبح ينظر إليها نظرة غريبة لا تعهدها منه . . ويخرج

كريون ذاهباً إلى المعبد ، ثم يدخل أوديب ويتقدم من جوكاستا قائلا بصوت مرتجف :

ـ جوكاستا . . أمى !

أمك ! ما بالها ياحبيبى ؟ ماذا بأمك ؟

ـ شاقنى أن أراها يا جوكاستا !

ويبذل جهده ليفاتحها فى الأمر ، ولكنه كلما هم بذلك انعقد لسانه . . ثم تخرج وتأتى إليه بأولادها الأربعة عسى أن يسروا عنه بعض ما به . ولكن هيهات . . فالذى به أن يقول لزوجته وأم أولاده : أنت . أمى ! ويجىء بعد ذلك الفصل الثانى ، وهو يقع فى مشهد واحد ، تبدو فيه جوكاستا تنتظر قدوم ترزياس الذى أرسلت فى استدعائه ، ولما يدخل تطلب منه جوكاستا أن يصلح ما أفسده ، إذ جعل زوجها يهجرها فى المضجع ويؤمن بالخرافة التى طالما كذبها . . فيقول ترزياس : لكنها ليست خرافة ياجوكاستا ، إنها الحقيقة التى آمن بها اليوم أوديب بعد ماجاءته البينات . . ولما لم تصل معه إلى ما تريد أمرت الخادم أن يقوده إلى مضجعه . ثم يدخل أوديب ، ويجرى الحوار بينه وبين جوكاستا . . حتى يقول لها :

ـ أماه . . حنانيك يا أماه !

فتنفجر ثائرة قائلة : اسكت ويلك ! كيف تعود إلى هذه الكلمة اللعينة ؟ ألم أقل لك يوم أسمعتنيها أول مرة لا أسمعها منك أبداً ؟

ولكنه يصر قائلا : أنت أمى ياجوكاستا . أمى التى ولدتنى من

صلب لايوس !.. وهى تنكر ذلك بكل قواها وتقول : لو شهدت الآلهة كلها بأنك ابنى من لايوس لكذبتهم جميعاً ولبقيت زوجى أوديب الحبيب.

وينال جوكاستا ما ينالها من الألم والجزع ، ويغشى عليها ثم تفيق وتخرج ثائرة . ويدخل ترزياس . ثم يأتى الحاجب معلنا قدوم كريون من المعبد ومعه الكاهن الأكبر . ثم يدخل كريون ويقول لأوديب: إن الكاهن الأكبر جاء بنفسه ليحمل إليك وحى الآلهة. ويجىء الكاهن الأكبر ويلجأ فى حديثه مع أوديب إلى المساومة ، إذ يطلب إليه أن يرجع عما اعتزمه من مصادرة أموال المعبد مقابل السكوت عن الفضيحة، ولكن أوديب يقابله بجفاء ويعلنه أنه لن يرجع عن عزمه وليقل ما يشاء . وتسمع جوكاستا ما يدور فتدخل وتقول : ارحمنى يا أوديب .. ارحم أكبادك الصغار . . ارحم نفسك! فيقول أوديب : لا يا أماه... إن السماء تصيح فىّ: يا أوديب ارحم شعبك! ويخرج لوكسياس « الكاهن الأكبر » إلى جموع الشعب ليعلن الوحى، وتخرج جوكاستا ، ويعلن الكاهن فى جموع الشعب أن فى قصر الملك رجلا سفك دم أبيه ، وانتهك عرض أمه وهو قاتل الملك السابق لايوس ، ولن يرفع العذاب عن طيبة حتى يقتص أهلها من ذلك المجرم .

وما تسمع جوكاستا ذلك حتى تنطلق إلى حجرة نومها وتغلق عليها الباب ، وعندما يقتحم أخوها كريون باب الحجرة يراها معلقة من عنقها إلى السقف بحبل غليظ ، فيقطع الحبل ويحملها إلى حيث أوديب وهى تجود بنفسها ، وتقول لأوديب : حمداً للآلهة يا بنى على أنى أراك قبل أن أموت ، وتوصيه بإخوته وأولاده خيراً وتموت . ويحاول أوديب أن يتناول سيفه لينتحر ، فيمنعه كريون ويحذره ترزياس من أن يتخلى عن شعبه ويفارق الحياة .

ونرى فى الفصل الثالث مشهدين ، تقع حوادث الأول أمام قصر الملك حيث يجلس الكاهن الأكبر وحاشيته فى جانب ، ويجلس فى الجانب الآخر أوديب وترزياس وكريون ، وجموع الشعب أمام الجميع . ونرى الشعب فى هذا المنظر كالكرة يتقاذفها الجانبان . . فهو يطالب بتطهير المدينة من « القاتل » دون أن يعلم من هو ، ويسخط على أوديب عندما يصرخ بأنه القاتل الذى قتل أباه وتزوج أمه ، ولكن عواطف الشعب تتغير عندما يتكلم ترزياس ويدلى بحججه على أن ذلك الوحى إنما هو من تدبير الكاهن الأكبر وليس من عند الإلـه . وكان ترزياس قد دبر هو وأوديب الأمر بحيث تنكشف للشعب ألاعيب لوكسياس ودقائق تدبيره المحكم ، ومن ذلك إحضار الشهود ومنهم بوليب وميروب ملكا كورنس اللذان نشأ فى كنفهما أوديب . وقد عمل لوكسياس للموقف حسابه ، فعندما يجده قد تحرج يعلن شعب طيبة برجوع « أبى الهول » إلى افتراس الملحدين الكافرين بالإلـه . . وينزل أبو الهول إلى الميدان بتدبير الكاهن الأكبر ، ولكنه ينصرع حين يتقدم منه أوديب بتدبير ترزياس .. فيثور لوكسياس على كهنته ويتهمهم بالخيانة . . ثم يسفر الكاهن الذى بداخل الدمية « أبى الهول » ويعلن حقيقة الدور الذى يقوم به ، والذى قام به عقب قتل لايوس . . وهو يعترف هذا الاعتراف بعد أن يعطيه أوديب الأمان . . ويشترك كهنة لوكسياس فى كشف دجله وألاعيبه .

وفى أثناء ذلك يجرى العمل لحل أزمة المدينة ، فإن أوديب على اتصال ببوليب ملك كورنس الذى تطوع لإمداد شعب طيبة الجائع بثلاثة آلاف وسق من الطعام .

ويقول أوديب كلمته فى الكاهن الأكبر ، فيأمر بأن يلقى به فى قمة « كتيرون » لا يبرحها حتى الممات ، ويولى ترزياس رياسة المعبد ، ويقضى بأن توزع أملاك المعبد وأمواله على جميع أفراد الشعب .

وفى المشهد الثانى من الفصل الثالث نرى أوديب آخر الليل يرسل البصر من القصر نحو المدينة الهاجعة ، ويحدث نفسه حديثاً ندرك منه أن أزمته النفسية قد أرقته ، ويبكى ثم يكفكف دمعه قائلا : ياويلتاه . . كيف أبكى على ماض كله فسوق ودنس ؟ واشقائى . . ألتفت إلى أمسى فيروعنى الإثم والعار ، وأنظر إلى يومى فأجد الحسرة والندم ، وأستطلع غدى فلا أرى غير اليأس والقنوط . وتقبل عليه ابنته الكبرى « أنتيجون » وتقول له :

— قد شعرت يا أبت أنك مقدم على أمر ، فبت الليل يقظى ، فبحق حبى لك خذنى معك يا أبى ولا تتركنى فإنى لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنك .

— ويحك هذه رحلة طويلة شاقة يا أنتيجون !

— سأحتمل كل شىء معك ، سأكون عوناً لك يا أبى ولا أكون كلاً عليك .

— يا بنيتى الحبيبة . . إنى سأهيم على وجهى فى القفار والجبال . . وقد يلقانى حتفى فى الطريق .

— لا ضير يا أبتاه . . لأن ألقى حتفى معك أهون عندى من أن أموت هنا كمدا عليك !

— وما هذا الذى بيدك ؟

— زنبيل أعددت لنا بعض الزاد فيه .

— ما أحناك على أبيك ! يخيل إلى أنك لم تدع لى بدآ من أخذك معى .

ويأتى إلى أوديب فى هذا الموقف ترزياس ، ثم كريون ، وقد شعر كل منهما بحركة أوديب ومرماه ، فيحاولان عبثا أن يثنياه فلا يجدان بدآ إزاء إصراره وعناده إلا أن يتركاه وشأنه . ويقول أوديب لترزياس فى الختام .

« تذكر . . أن مع اليـأس لأملا . . وأن من الماضى مستقبلا . أنا الماضى يا ترزياس ، فلأخل الطريق للمستقبل ! وأنا اليأس يا ترزياس ، فلأمض ليجىء الأمل ! أنا بخير ياترزياس ما كانت طيبة بخير ! »

* * *

**النقد :**

ذلك ملخص مسرحية « مأساة أوديب » للأستاذ على أحمد با كثير ، وقد عرض بها تمثيلية سوفوكليس القديمة عرضاً جديداً ، على أساس جديد غير الأساس الذى بناها عليه المؤلف اليونانى القديم ، ولم يقصر مؤلفنا التغيير فى القصة على الفكرة وفلسفة الموضوع كما صنع سابقوه من الذين حاكوا سوفوكليس فتناولوا تلك الأسطورة العريقة متقيدين بأساسها العريق .

الأسطورة القديمة تجعل تلك النبوءة وحيا صادقا من لدن الإلـه

أبولون ، وأوديب يصارع إرادة الإلـه التى نفذت النبوءة فجعلت لايوس يسلم طفله إلى من يقتله ، حتى لا يتحقق الوحى فيقتل الابن أباه ويتزوج أمه ، وجعلت أوديب يسلم من القتل وينشأ بعيداً عن والديه ، ثم تسوقه إرادة الإلـه إلى حيث يقتل أباه وهو لا يعلم بأنه أبوه ، ثم يتزوج أمه وهو لا يعلم . . إلخ . وكل ذلك يقع بقضاء الإلـه لا تدبير فيه لمخلوق .

فالموضوع عند سوفوكليس موضوع القدر القاسى المحتوم ، الذى يصرع من يقف فى طريقه ، ويعمل الإنسان جاهداً على الخلاص منه فلا يستطيع ، فيقع صريعا تعبث به الأقدار وتسخر منه .

وجاء بعد سوفوكليس شعراء وكتاب قلدوه فى مختلف العصور وفى مختلف بلدان أوروبا ، أشهرهم فى فرنسا كورنيل وفولتير وجان كوكتو وأندريه جيد ، ثم فى مصر توفيق الحكيم . ويقول لويس دى مارينياك المتخصص السويسرى فى آداب اللغة اليونانية — فى مقدمة الترجمة الفرنسية لمسرحية توفيق الحكيم « أوديب الملك » — يقول : ليس هناك ما يمنع الكاتب العصرى مقدما من أن يستخدم لمراميه الخاصة تلك الخرافة التى استخدمها سوفوكليس لتصوير القدر وفزعات الإنسان الواقع فى حبائله . ولكن أترى هذه الخرافة الخاصة كل الخصوص تقبل كما تقبل الكثيرات غيرها تعبيراً غير التعبير القديم ؟ إن المحاولات الفرنسية التسع والعشرين — عدد المؤلفين الفرنسيين الذين تصدوا لهذه الخرافة — تجيب فيما يظهر على هذا السؤال بالنفى . فهل ترى توفيق الحكيم نجح فى إقامة الدليل على أن خرافة أوديب يمكن تحويلها إلى مقاصد غير مقاصد سوفوكليس ؟ » ثم يرى الأستاذ السويسرى أن

أوديب هذا الذى ولد على ضفاف النيل كأمثاله المولودين فى فرنسا لا يسلم من تناقض ، وذلك أن الخرافة هنا أقوى من المؤلف الذى يستخدمها » .

ويقول توفيق الحكيم فى تعقيبه على المسيو دى مارينياك : إن إخفاق ثلاثين مؤلفاً فى مختلف العصور ، منهم الوثنى والمسيحى ثم أخيراً المسلم ، أمام مأساة أوديب لهو فى ذاته مأساة ! » ويعلل الحكيم هذا الإخفاق بأن كارثة المؤلف الذى يتصدى لأوديب هى أنه لا يريد أن يقبل هذه الفكرة — فكرة القدر القاسى المحتوم — فالمؤلفون الذين تناولوا القصة هم بين مسيحى متدين ، ومسيحى متحرر ، ومسلم ، فهم لا يرتضون الفكرة كما هى وفى نفس الوقت لا يستطيعون تناول أوديب بغير الخرافة .

وقد استخدم كل من أولئك المؤلفين الأسطورة لمراميه الخاصة ، فاتجه جان كوكتو — مثلا — نحو فلسفة « فرويد » فيما يكون من الأحاسيس الخفية بين الأمهات والأبناء ، وبث فيها أندريه جيد فكرته فى حرية الإنسان وإيمانه بقواه وتحديه للقضاء المقدور ، وجعل الصراع بين الدين ممثلا فى الكاهن وبين أوديب الذى لا يؤمن إلا بنفسه وعقله ، وخالف توفيق الحكيم أندريه جيد فى « توحيده » للإنسان ، لأنه — كما قال فى مقدمة مسرحيته — لا يرى الإنسان وحده فى هذا الكون ، وجرد إرادة الله من الحقد والرغبة فى الكيد والشر ، وجعل الموجب لكارثة أوديب طبيعة أوديب ذاته المحبة للبحث والجرى وراء الحقيقة ، ووجه بذلك الصراع بين « الواقع » الذى يتمثل فى الحب المتبادل بين أوديب وجوكاستا وبين « الحقيقة » التى أفسد الوقوف عليها ذلك الحب .

كل أولئك الذين حاكوا سوفوكليس تمسكوا بأساس الأسطورة، فسيروا القضية على مقتضى الوحى الإلهى الصادق الذى أعلنه الكاهن الصادق بإرادة الإلـه. وعلى ذلك الأساس قامت الأسطورة لتصور الفكرة السائدة عند الإغريق، وهى أن الإنسان ألعوبة فى يد القضاء وأن الآلهة تسخر به وتهزأ من آلامه ومصائبه. وقد استخدمها سوفوكليس فى بناء عمل فنى ناجح صور بها معتقدات قومه فى زمانه. أما الذين عارضوه مسلمين بهذا الأساس فقد أخفقوا لأنهم لا يؤمنون بالفكرة ولا يصورون بها واقعا فى زمانهم؛ بل هم يتخذون لعملهم قاعدة لا ترتضيها أفكارهم وقد تتعارض مع ما يستهدفونه من العمل نفسه كالإيمان بالإنسان وحده عند أندريه جيد.

ثم جاء باكثير فبنى مسرحيته على أساس جديد يفسر الأسطورة تفسيراً جديداً واقعياً، وعرضها فى شكل ملائم لروح العصر الحديث، واستخدمها فى غرض واقعى من أغراض الأدب فى المجتمعات الحديثة.

ومن الحق — قبل أن نمضى فى الحديث عن عمل باكثير — أن نذكر أنه انتفع بعمل توفيق الحكيم فى مسرحيته، فقد خطا الحكيم بعض الخطوات نحو ذلك التفسير الواقعى للأسطورة، فاخترع شخصية سماها «ترزياس» جعل لها شأناً كبيراً فى مجرى الأحداث غير الشأن الإلهى الذى ينطق به كبير الكهنة، وجعل ترزياس يضع من عنده نبوءة قتل لايوس بيد ولده ليحمله على قتله طفلا قبل أن يكبر ويقتله، وجعل ترزياس يموه على أهل طيبة عقب قتل لايوس فيوهمهم أن أوديب قتل الوحش الخرافى الذى كان يتهدد طيبة، وأنه جدير لذلك بالعرش، ولم

يقتل أوديب فى الحقيقة غير أسد حقيقى صرعه بهراوته خلف أسوار طيبة . فأخذ باكثير من هذا فكرة وضع النبوءة وادعاء أنها من عند الإلـه . ولكن الحكيم مع ذلك التزم فكرة الوحى الإلهى الصادق الذى أتى به كبير الكهنة من المعبد ، والذى يقول بأن سبب محنة المدينة هو وجود دنس بها يتمثل فى قاتل لايوس الذى لم يقتص منه ، وتمضى أحداث المسرحية بعد ذلك على أساس هذا الوحى .

وبذلك فتح الحكيم باب التفسير الواقعى لباكثير أو — على الأقل — أرسل إليه بصيصاً يدله على هذا الباب . وقد كان إحساس توفيق الحكيم بعدم ملاءمة الخرافة للعرض الحديث قويا ، ولكنه كبح إحساسه بعد أن أرخى له قليلا ، ولما نظر باكثير فى الموضوع شعر بمثل إحساس الحكيم ولكنه لم يتهيب ولم يكبح جماحه ، بل قصد إلى عمله العظيم وهو هذا التفسير الواقعى الملائم لروح العصر الحديث . وانتفع باكثير بشخصية ترزياس التى صورها توفيق الحكيم على نحو مغاير لترزياس سوفوكليس ، وإن كان باكثير قد قلبها إلى العكس ، فترزياس توفيق الحكيم رجل يتدخل فى المجرى الطبيعى للحوادث فيغيره ويحوله إلى مايؤدى إلى الشر ، ولكن ترزياس باكثير رجل مصلح يقاوم الفساد وتدبير الشر ، وهناك فرق بينهما من حيث العمل الفنى ، فترزياس الحكيم فكر يكاد يكون مجرداً ولاتكاد ترى له تجسيما أو صورة فى واقع الحياة أو مكانا واضحاً فى مجتمعه ، أما ترزياس باكثير فهو شخصية واقعية مرسومة على مثال مايقع فى الحياة . ومما يذكر أن اسم « ترزياس » يطلق فى المسرحية الأصلية على « الكاهن » الذى ينطق بوحى الإلـه .

استخدم باكثير تلك الخرافة القديمة على هذا الوضع الحديث لمراميه الخاصة وليس هناك ما يمنع من هذا ، كما قال الناقد السويسرى ، ولكن العبرة بالتطبيق والنجاح فيه . كتب باكثير هذه المسرحية فى وقت ساد الفساد فيه والدجل وغلب اليأس على النفوس ، وكان ذلك عقب حرب فلسطين ، ويخيل إلى أنه خيل إليه أن يهرب إلى عمل أدبى يبعده عن الواقع المؤلم ، ولكن الأديب السجين فى مشاعره دائما ، تصحبه المشاكل أينما كان ، لا يستطيع انفكاك من المشاعر والمشاكل . لم يكن فى اليونان القديمة صراع بين دجل وتضليل وبين مصالح الشعوب ، ولم يكن شىء من ذلك بالذى يهتم به مؤلفو المسرحيات ليجروا عليه الصراع فيها ، إنما كانوا — مؤلفين وجماهير — مستغرقين فى الخيال السابح وراء الطبيعة حيث تجد قرائحهم وأمزجتهم مرتعها الخصيب ، ولكن مؤلفنا رأى هناك مشاكل قومه ، رأى فى قصة سوفوكليس مجالا للتنفيس ولتصوير ما يريده بعيداً عن المواجهة والمجابهة والمصادرة . . فصور شعباً بائساً يؤمن بالمعبد ، ومن المعبد بؤسه ونكبته ، وللمعبد من أوقافه وأملاكه ما يشغله عن الاهتمام ببؤس الشعب ، بل إن الأموال التى تكدست للمعبد إنما هى أقوات الشعب سلبت منه لتتجمع فى أيدى الكهنة الذين يرون صالحهم فى تمويه الحقائق على الشعب وتعليق مشاعره وأفكاره بأوهام تبعده عن إدراك الحقائق .

وكان المؤلف بارع الحبكة واسع الحيلة فى تدبير القضاء على الدجل وإنقاذ الشعب من محنته ، وكانت شخصية ترزياس هى عصب هـــذه الحركة ، وقد استخدمها المؤلف بطريقة منطقية

متسلسلة مشوقة ، وكان الصراع فى الحقيقة بين الكاهن المستولى فى المعبد وبين الكاهن المنبوذ من المعبد أكثر مما هو بين الكاهن الأول والملك أوديب ، ولكن أوديب وترزياس يمثلان جانباً واحداً وفكرة واحدة ترمى إلى إنقاذ الشعب من الدجل وسوء الحال . وكان ترزياس هو الموجه لأوديب ، وكان توجيهه إياه توجيها صحيحاً صاعداً نحو الهدف ، فقد ارتفع به من التفكير فى الحل الفردى الذى كان يمكن أن يقع بقبول مساومة الكاهن الأكبر على أن يترك أوديب وأسرته فى حالهم ويستر فضيحتهم مقابل عدول أوديب عن مصادرة أموال المعبد ، ارتفع ترزياس بأوديب عن هذا الحل وقوى عزمه حتى ثبت على خطته فى المصادرة التى اختطها من أول الأمر ، فقد قال أوديب لترزياس عن هذه الفضيحة :

ــ أفلا يمكن سترها يا ترزياس فنعيش فى القصر كما كنا ، زوجين أمام الناس ، وأما وابنها أمام الإلــه ؟

ــ لكن الكهنة لن يدعوك حتى يعلنوها فى الشعب ليثيروه عليك مالم تخضع لمشيئتهم وتعدل عن مصادرة أموال المعبد .

ــ فما السبيل يا ترزياس ؟

ــ امض فى عزمك ولا تلو على شىء ، فلأن يغضب عليك الكهنة خير من أن يغضب الإلــه عليك . وستكون هذه الفضيحة التى تخشاها كفارة لك ولأمك .

ومن تأثير ترزياس فى أوديب أن حوله عن الإلحاد الناشىء عن فساد الكهنة إلى الإيمان بالإله الحق .

وعندما يحاول أوديب أن يقتل نفسه ، أو يفقأ عينيه كما فعل فى المسرحية الأصلية وفى المسرحيات الأخرى ، يثنيه عن ذلك ترزياس قائلا : إن عينيك يا أوديب ليستا ملكك اليوم بل ملك هذا الشعب !

وفى هذا التوجيه ، من ترزياس لأوديب ، أصاب المؤلف ما رمى إليه من هدف ، إذ حول المسألة من فجيعة شخصية إلى قضية قومية ، أو بتعبير أدق جعل هذه بجانب تلك وزاوج بينهما ، فلم يهمل جانب الفن بإهمال تحليل الفجيعة ، ولم يهتم بالقضية العامة اهتماماً خطابياً ، بل أعطى الفن حقه . وفى الوقت نفسه حمله رسالة الجماعة .

وهذا التعادل الذى يتم فى العمل الفنى بين المتعة الفنية ورسالة الفن ، بحيث لا تطغى الأولى على الثانية ، ولا تقوم الثانية على جثة الأولى ، هذا التعادل أو التلازم هو الذى أبدأ من عنده فى الإعجاب بهذه القصص التى أتناولها بالعرض والتحليل والنقد .

والإمتاع الأدبى على المسرح من خصائص باكثير ، ويتجلى فى قوة تصوير الأشخاص وانفعالاتهم ، وفى عذوبة الحوار ، وفى الجو المؤتلف من هذه العذوبة وذلك التصوير .

ومن الشخصيات المرسومة بدقة وعمق شخصية جوكاستا ، وهى نموذج بشرى ثابت ، هى المرأة دائما ، فقد صورفيها الأنثى الحريصة على الرجل المتعطشة إلى دوام الصبا ، والتى تعتبر الحب ضرورة من ضرورات حياتها . ومن المواقف الدقيقة فى هذا التصوير ما اعترى جوكاستا على أثر إعلانها بالحقيقة المروعة ومجادلتها لأوديب واستنكارها لمخاطبته لها : « يا أمى » قائلة له : إنك تشتهى موتى لتتزوج بعدى صبية حسناء . إن الهم قد أذوى شبابى فى بضع ليال . . ولكنك حين ترضى عنى وتقول لى كعادتك يا حبيبتاه . . يا زوجتاه . . سأعود ناضرة الوجه ريا الشباب . ولكنه يقول لها : يا أماه . . فتتهاوى مغشياً عليها . . ثم تنتفض بعد هذه الغشية

انتفاضة عجيبة .. إذ تستوى جالسة وتلتفت إلى أوديب فى دهش عظيم كأنها لا تصدق ما ترى عيناها . . وتقول له : لايوس زوجى الحبيب ! هذا أنت حقاً قد عدت إلى شبابك ، إذن فلم يكن حلماً ما رأيت .

ويستمر الحوار بينهما ، هى فى دهشة وسعادة حالمة ، وهو فى دهشة وألم ، ثم تنتبه إلى حقيقة الموقف وتثور بترزياس الذى كان السبب ، ثم تتداعى فيحملها أوديب إلى سريرها ليضجعها عليه وهو لا يشك فى أنها فاقدة الوعى وإذا هى تلح عليه بأن يرقدها على سريره !

وذلك أنها لما يئست من أوديب الشاب لجأ شعورها الباطن إلى خيال زوجها الشيخ الذى دعت الآلهة يوماً أن يعيدوه إلى الشباب ، فتمثلته فى هذه اللحظة أمنية حققتها الآلهة .

ذلك ما صنعه مؤلفنا باكثير فى استخدام تلك الخرافة القديمة لمراميه الجديدة ، قلبها من خرافة مصدق بها إلى إفك مفترى لا يليق بالعقل الحديث أن يجاريه ويبنى عليه فناً حديثاً . وإنى أراه قد بلغ الهدف الذى رمى إليه ، ولكن يبقى السؤال الذى سأله المسيو دى مارينياك وهو « أترى هذه الخرافة الخاصة كل الخصوص تقبل كما تقبل الكثيرات غيرها تعبيراً غير التعبير القديم ؟ » . . وبنى عليه الحكم بإخفاق تسعة وعشرين مؤلفاً فرنسياً يضاف إليهم توفيق الحكيم ويكمل عدتهم ثلاثين ، لأنهم فى رأى الناقد السويسرى وفى رأى توفيق الحكيم — لم يقبلوا الخرافة بكل قوتها كما هى عند الإغريق وشاعرهم سوفوكليس ، ومع هذا تقيدوا بها تقيداً لم يدع لهم إلا النزر القليل من حرية التصرف .

أما باكثير فقد تحرر منها وأطلق لنفسه التصرف فيها ، فهل تراه

نجح ؟ لقد استخدمها فيما أراد ونجح فى هذا الاستخدام دون شـــك .
ولـكن قوة الخـرافة المستمدة من معتقدات زمانها . . ألم تفلت من يد
مؤلفنا على رغمه وعلى رغم واقعيتنا ؟ وكيف تنسحب واقعية عصرنا على
الكاهن باسم أبولون فتجرؤ على إنزاله من مكان القـداسة إلى اتهامه
بالإفك والدجل ، وتحاول إقناع جماهير الشعب . . شعب هيلاس . ،
بإدانته ؟ وهل هذا يطابق الواقع إذ ذاك ؟ حقاً إن كثيرين تصرفوا فى
هذه القصة فجردوها من مقتضيات عصرها إلى حد أن جعلوا أشخاصها
يتصرفون كما يتصرف الناس فى العصر الحديث، ولـكن ألم يكن هذا أيضاً
من عوامل الإخفاق الذى منى به الجميع ؟

فهل أدركت « لعنة أوديب » مؤلفنا باكثير كما أدركت من قبـله . .
فجعلت منه الواحد والثلاثين فى عداد المخفقين ؟

جوابى على ذلك : نعم ، ولا . نعم إن جعلنا باكثير فى جملة المحاكين
لسفوكليس ، ولا ، إذا اعتبرنا هذه المسرحية مسرحية جديدة ، نسبتها
إلى القديمة نسبة النقيض إلى النقيض .

وتفسير المؤلف لوقائع الأسطورة منطق محبوك ، ولـكن تبدو لى
فيه بعض الثغرات . . فإن أوديب بعد أن قتـل أباه ، وتحدى الكاهن
الذى حذره من الذهاب إلى طيبة حتى لا يتزوج أمه فذهب إليها ، وكان
منه ما كان مع أبى الهول ثم اعتلى العرش . . وعلى الرغم ممـا لا بد أن
يكون فى نفسه من احتمال صدق النبوءة مهما أنـكرها وتحداها ، فإنه
تزوج من أمه دون تردد وعاش معها سبع عشرة سنة دون أن يخامره
شك ! وقد أراد المؤلف أن يسوغ ذلك بأن وصفاء القصر تداولوه

وشاغلوه بالطيب وفاخر الثياب والتزين والترنم بمحاسن الملكة ، وأنه لما أدخل عليها وجدها جارية حسناء كأنها فتاة عذراء ، ساق المؤلف هذا الوصف ليمحو من قلب أوديب كل أثر لاحتمال أن تكون أمه ! ولكن كيف يكون ذلك وقد سمع .. ؟ وكيف يستمر ومن يسمع يَخَلْ .. أى لابد أن تذهب به الظنون كل مذهب ! إن مجرد وجود الفكرة فى نفسه : فكرة احتمال أنها أمه ، كان كفيلا أن ينغص عليه كل شىء مهما زين وخيل له .

على أنه يسأل : أين كان عقله قبل أن يتداولوه ويدخلوه عليها ؟

وهناك ثغرة أخرى . . عندما أرسل الملك إلى الكاهن لايوس من أخبره بقصة نجاة ولده الطفل من القتل ، ونشأته فى قصر بوليب وبأنه قاصد إلى طيبة لقتله مصداقاً للنبوءة ، فإن شاء النجاة فليعترضه دون طيبة وليقتله قبل أن يقتله . إن الكاهن من شأنه أن يلقى النبوءة مصراً على أنها لابد واقعة ، لا أن يلحقها بالنصيحة التى تعوق وقوعها . .

فإن إشارته على لايوس أن يبادر بقتل ابنه قبل أن يقتله معناها أن النبوءة يمكن ألا تتحقق .. والكاهن لابد أن يصر على نبوءته وأنه لامفر من وقوعها .

لغة باكثير تعتبر مثالا للغة المسرح التى تتطلب الحال أن تكون عربية فصيحة ، لأنها تجمع بين الواقعية والسهولة وبين قوة التعبير وجمال الأسلوب . فهو ليس فى حاجة إلى أن يدل على اقتداره اللغوى ، ولهذا لا أجد تفسيراً لاستعماله بعض الألفاظ غير المأنوسة الاستعمال

الآن . . مثل « احتوشونى » و « أثوال النخل » و « كشيش » و « ساخ الأفاعى » .

ولا أخفى — برغم أنى ممن يسند إليهم الاختصاص اللغوى — أن هذه الكلمات تصدم ذوقى حين أقرؤها فى كلام عصرى — وهى ألفاظ قليلة معدودة فى المسرحية ، ما كان أغنى الأستاذ باكثير عن « نشازها » الذى يصدم الذوق خلال السياق العذب الجميل .